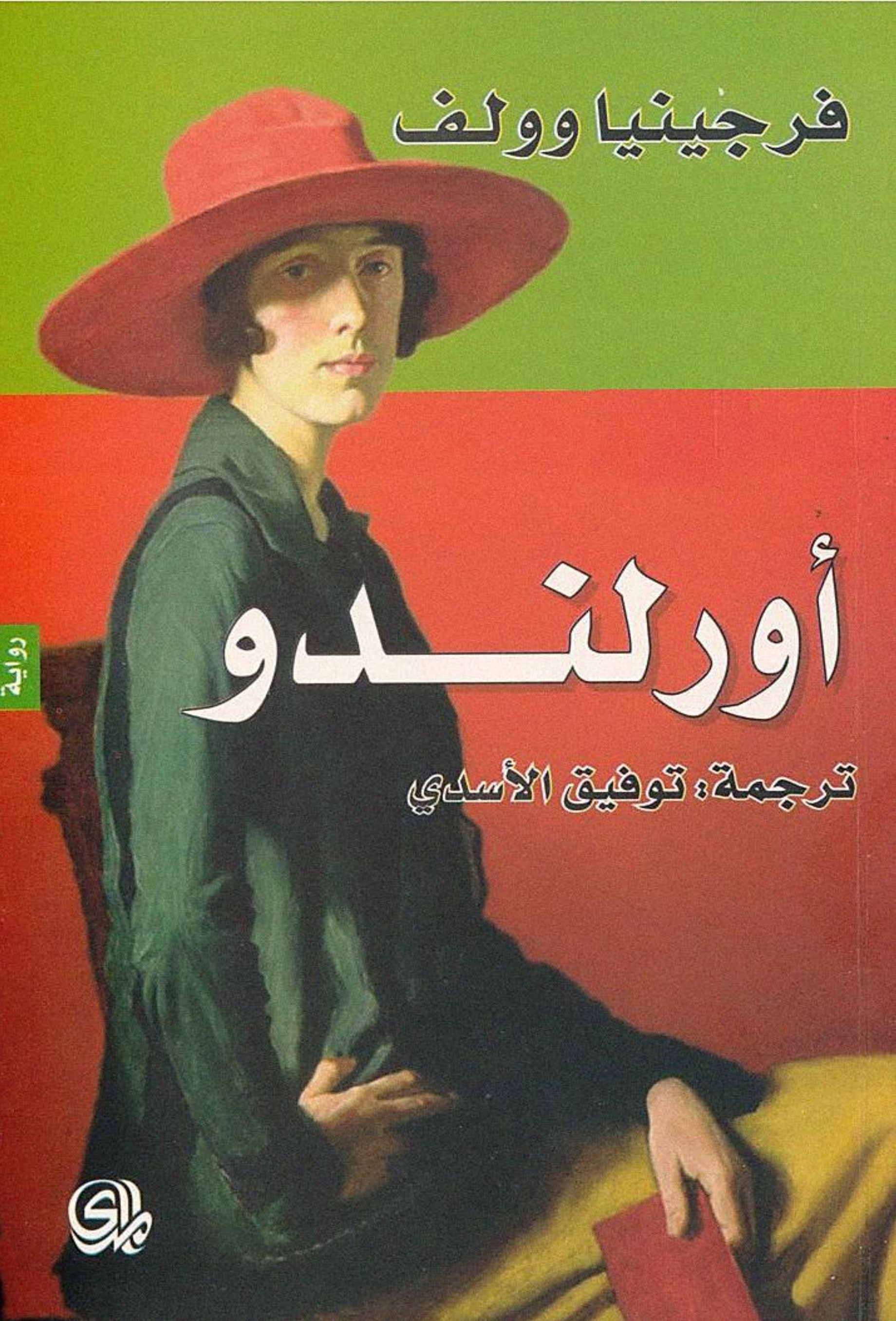

فرجينيا وولف
أورلندو
ترجمة: توفيق الأسدي
رواية

فرجينيا وولف

أورلندو

ترجمة: توفيق الأسدي




أورلنـــدو



المؤلف: فرجينيا وولف
عنوان الكتاب: أورلندو
ترجمة: توفيق الأسدي
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: 2016

Author: **Virginia Woolf**
Title: **Orlando**
Translator: **Tawfik Alasadi**
cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: **2016**



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد : حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الإهداء: إلى: ڤ. سكڤيل- ويست

لمحة عن فرجينيا وولف

هــي روائية إنكليزية، ومن كتّاب المقـالات. تزوجت ١٩١٢ من ليونارد وولف، الناقد والكاتب الاقتصادي، وهي تعد من كتاب القصة التأثيريـن. كانت روايتها الأولى ذات طابــع تقليدي مثل رواية «الليل والنهار» ١٩١٩، واتخــذت فيما بعد المنهج المعروف بتيار الوعي أو تيار الشــعور، كما في "غرفة جايكوب" ١٩٢٢، و«السيدة دالواي» ١٩٢٥ و"إلى المنـارة" ١٩٢٧، و"الأمــواج" ١٩٣١، ولها روايات أخرى ذات طابع تعبيري، منها رواية "أورلندو" ١٩٢٨ و"الأعوام" ١٩٣٧، و"بين الأعمال". ١٩٤٢ اشتغلت بالنقد، ومن كتبها النقدية "القارئ العادي" ١٩٢٥، "موت الفراشة ومقالات أخرى" ١٨٤٣. كتبت ســيرة حياة "روجر فراي" ١٩٤٠، وكتبت القصــة القصيرة، وظهرت لها مجموعــة بعنوان "الاثنين أو الثلاثــاء" ١٩٢١. انتحرت غرقاً مخافة أن يصيبها انهيار عقلي.

حياتها المبكرة

ولــدت فرجينيــا وولف في لنــدن باســم أديلين فرجينيا ســتيفن. والداها هما الســير ليزلي ستيفن وجوليا دكوورث. كان والدها ليزلي ســتيفن مؤرخاً مرموقاً وكاتباً وناقداً ومتســلق جبــال. وكان المحرر المؤســس لمعجم الســير الوطنية، وهو عمل تأثرت بهِ لاحقاً وللف في ســيرها الذاتيــة التجريبية. أما والدتها جوليا ســتيفن فقد كانت آيةً في

الجمال، ولدت في الهند البريطانية للأبوين الدكتور جون وماريا باتل جاكسون. انتقلت جوليا مع أمها إلى إنكلترا حيث عملت كعارضة لبعض الرسامين مثل إدوارد برني جونز. تعلمت وولف على يدي والديها في بيت مثقف ومترابط. كان كلا الوالدين قد تزوج وترمل مسبقاً، وبالتالي كان البيت يجمع أطفالاً من الزيجات الثلاث. كان لدى جوليا ثلاثة أطفال من زوجها الأول هيربرت دكوورث: جورج، ستيلا، وجيرالد دكوورث. أما ليزلي فقد تزوج أولاً من هاريت ماريان ثاكري وأنجب منها ابنةً واحدة: لورا ستيفن، والتي عُرف بأنها معاقة عقلياً، وقد عاشت مع الأسرة إلى أن أودعت في مصحة عام ١٨٩١. أنجب ليزلي وجوليا معاً أربعة أطفال.

الروايات

الليل والنهار (١٩١٩)

غرفة جايكوب (١٩٢٢)

السيدة دالواي(١٩٢٥)

إلى المنارة (١٩٢٧)

أورلندو (١٩٢٨)

الأمواج (١٩٣١)

السنة (١٩٣٧)

بين الأعمال (١٩٤١)

أفلام

الساعات (The Hours) ٢٠٠٢

السيدة دالواي (Mrs Dalloway) ١٩٩٧

وفاتها

بعـد أن أنهت روايتها (بـين الأعمال) والتي نشـرت بعد وفاتها، أصيبـت فيرجينيا بحالة اكتئاب مشابهة للحالـة التي أصابتها مسبقاً. وزادت حالتهـا سوءاً بعد اندلاع الحـرب العالمية الثانية وتدمير منزلها في لنـدن والاستقبال البارد الذي حظيت به السيرة الذاتية التي كتبتها لصديقها الراحل روجر فراي، حتى أصبحت عاجزة عن الكتابة. وفي ٢٨ مارس)آذار(١٩٤١ ارتـدت فيرجينيا معطفها وملأته بالحجارة وأغرقت نفسهـا في نهر أوس القريب من منزلها. وجد جسد وولف في ١٨ نيسـان (أبريـل) ١٩٤١ ، ودفن زوجهـا رفاتها تحت علم في حديقة مونكس هاوس في رودميل سسِكس.

وفي رسالة انتحارها كتبت لزوجها:

" عزيـزي، أنا على يقين بأنني سأجنّ، ولا أظن بأننا قادران على الخوض في تلـك الأوقات الرهيبة مـرة أخرى، كمـا ولا أظن بأنني سأتعافـى هذه المـرة. لقد بدأت أسمـع أصواتاً وفقـدت قدرتي على التركيـز. لذا، سأفعل مـا أراه مناسباً. لقد أشعرتني بسعادة عظيمة ولا أظـن أن أي أحد قد شعر بسعادة غامرة كما شعرنا نحن الاثنين سوية إلى أن حـلّ بي هذا المرض الفظيع. لست قادرة على المقاومة بعد الآن

وأعلم أنني أفسدت حياتك وبدوني ستحظى بحياة أفضل. أنا متأكدة من ذلــك، أترى؟ لا أستطيع حتى أن أكتب هذه الرسالة بشكل جيد، لا أستطيــع أن أقرأ. جــلّ ما أريد قوله هو أنني أدين لك بسعادتي. لقد كنــت طيباً معي وصبــوراً عليّ. والجميع يعلم ذلــك. لو كان بإمكان أحــد ما أن ينقذني فسيكــون أنت. فقدت كل شيء عــدا يقيني بأنك شخص جيــد. لا أستطيع المضي في تخريب حياتك ولا أظن أن أحداً شعر بالسعادة كما شعرنا بها كلانا.

مقدمة

لقد مدّ إلي يد العون في تأليف هذا الكتاب الكثير من الأصدقاء. البعض منهم من الأموات وهم فائقو الشهرة إلى حدّ أني لا أجروؤ إلا بالكاد على ذكر أسمائهم، ولكن لا يمكن لأي شخص أن يقرأ أو يكتب دون أن يكون مديناً على الدوام لديفو والسير توماس براون وستيرن والسير وولتر سكوت واللورد ماكولي وإيميلي برونتي ودي كوينسي وولتر باتر... هذا لو ذكرت فحسب أول أسماء تخطر في ذهني. هناك آخرون ما يزالون على قيد الحياة، ورغم أنهم لا يقلون شهرة عن أولئك بدورهم، إلا أنهم أقل هيبة عنهم لهذا السبب بالذات. وأنا مدينة على نحو خاص للسيد س. ب. سانغر، الذي لولا معرفته بقانون العقارات لما أمكن تأليف هذا الكتاب. كما أنقذتني المعرفة الواسعة والمميزة للسير سيدني تيرنر من الوقوع في بعض الأخطاء الفاضحة والمؤسفة على ما آمل. لقد حظيت بالاستفادة من معرفة السيد آرثر ويلي باللغة الصينية، ولا أحد سواي يستطيع تقدير مدى تلك الاستيفادة. كما كانت المدام لوبوكوفا (السيدة ج. م. كينز) تقدم على الدوام يد المساعدة في تصحيح لغتي الروسية. كما أدين في أي فهم أتمتع به لفن الرسم للتعاطف والمخيلة الفريدين للسيد روجر فراي. كما آمل أن أكون قد استفدت في مجال آخر من النقد الحاد والفريد، إنما الصارم، لابن شقيقتي جوليان بِل. أما البحوث الدائبة السعي التي قامت بها الآنسة مْ. ك. سنودون في أرشيف هاروغيت وتشلتنهام فكانت مع ذلك شاقة لأنها كانت عقيمة. وهناك أصدقاء آخرون

ساعـدوني بوسائل أكثر تنوعاً من أن أحددها. عليّ أن أقتنع بذكر اسم كل مـن السيد أنغوس ديفيدسون والسيـدة كاترايت والآنسة جانيت كايس واللورد برنرز (الذي أثبتت معرفته بالموسيقى الإليزابيثية أنها لا تقـدر بثمن)؛ والسيد فرانسيس بيريل وشقيقي الدكتور أدريان ستيفن والسيـد ف. ل. لوكاس والسيد والسيـدة ديزموند ماكارثي. وهناك أكـثر النقاد إلهاماً ألا وهو زوج شقيقتي السيد كلايف بِل والسيد ج. هـ. ريلاندز والليدي كولفاكس والآنسة نيلي بوكسول والسيد ج. م. كينيـز والسيد هيو ولپول والآنسة ڤيوليت ديكينسون وجناب إدوارد سكڤيـل- ويست والسيد والسيدة سانت جـون هتشينسون والسيد دنكان غرانت والسيد والسيدة ستيفن توملين والليدي أوتولاين موريل وحماتـي السيدة سيدني وولف والسيد أوسبرت سيتويل والمدام جاك راڤيرا والكولونيل كوري بِـل والآنسة ڤاليري تايلور والسيد ج. ت. شبرد والسيد والسيدة ت. س. إليـوت والآنسة إيثيل ساندز والآنسة نان هدسون وابـن شقيقتي السيد كوينتين بِل (متعاون قديم وثمين في فن الرواية)؛ والسيد رايموند مورتيمر والليدي جيرالد ولسلي والسيد ليتون ستراتشي والفايكونتس سيسيل والآنسة هوب ميرليس والسيد إي. م. فورستر وجناب هارولـد نيكولسون وشقيقتي فانيسا بِل ... ولكـن هاهي اللائحة تهددنا بأن تطول إلى مـا لا نهاية، وهي شديدة التميّـز. فبينمـا توقظ فيّ ذكريـات هي أكثر بثاً للسـرور في النفس إلا أنهـا توقظ على نحو محتوم آمالاً لدى القـارئ لا يمكن للكتاب نفسه إلا أن يثبطهـا لديه. لذلك سأختم بشكر موظفي «المتحف البريطاني» و»مكتـب السجلات» علـى كياستهم المعتادة. وأشكـر ابنة شقيقتي أنجليكا بِل على خدمة ما كان غيرها قادراً على تقديمها وكذلك زوجي علـى الصبر الذي أبـداه والذي ساعـدني على القيـام ببحوثي وعلى معرفتـه العميقة بالتاريخ التي تدين هذه الصفحات لدقتها مهما بلغت

هذه الدقة. وأخيراً أود أن أشكر شخصاً كريماً من أمريكا نسيت اسمه وعنوانه على تصحيحه السخـي والمجاني لعلامات التنقيط وما يتعلق بعلم النبات وعلم الحشـرات والجغرافيا والتسلسل التاريخي لأعمالي السابقة، وآمل ألا يبخل بخدماته عليّ في هذا الكتاب أيضاً.

الفصل الأول

كان هو- ولا مجال للشك في جنسه، رغم أن الموضة السائدة آنذاك كانت تساهم في تمويه ذلك- آخذاً بتقطيع شرائح من رأس رجل مغربي كانت تتأرجح من عوارض السقف، ولها لون كرة القدم العتيقة وشكلها تقريباً، باستثناء الوجنتين الغائرتين وخصلة أو اثنتين من الشعر الخشن والجاف الأشبه بشعر جوز الهند. كان والد أورلندو وربما جدّه قد قطع هذه الرأس من فوق كتفي وثني ضخم الجثة برز فجأة تحت ضوء القمر في الحقول الوحشية لأفريقيا. والآن هاهي الرأس تتأرجح بنعومة وبشكل دائم تحت النسيم الذي لا يتوقف عن الهبوب عبر غرف العليّة في المنزل الهائل الحجم للورد الذي كان قد قتل ذلك الرجل.

كان آباء أورلندو قد امتطوا الجياد عبر حقول من النرجس البري وحقول حجرية وحقول تسقيها أنهر غريبة، كما أنهم ضربوا رؤوساً كثيرة ذات ألوان عديدة من فوق أكتاف عديدة، وعادوا بها ليعلقوها من عوارض السقف:؛ وسيفعل أورلندو ذلك أيضاً كما عاهد نفسه. ولكن بما أنه كان في السادسة عشرة من عمره فحسب، وأصغر سناً من أن يرافقهم على ظهر جواد عبر أفريقيا أو فرنسا، فسوف يتسلل مبتعداً عن أمه والطواويس التي في الحديقة ويذهب إلى حجرته في السقيفة، وهناك سوف يطعن ويقتحم ويضرب الهواء بسيفه. أحياناً

كان يقطع الحبل فتسقط الجمجمة على الأرض، وكان عليه أن يربطها مجدداً، فيثبتها بشهامة بعيداً عن المتناول تقريباً، حتى أن عدوه كان يتبسم له عبر الشفتين المسودتين والمتقلصتين بانتصار. تأرجحت الجمجمة جيئة وذهاباً، فالمنزل الذي كان يعيش هو في أعلاه كان شديد الاتساع حتى لقد بدا أن الريح نفسها كانت قد وقعت أسيرة له فراحت تعصف في هذا الاتجاه وتهب في ذلك الاتجاه شتاء وصيفاً. كانت الستارة المزركشة خضراء اللون والصيادون المرسومون عليها يتحركون على نحو دائم. كان آباؤه ينتمون إلى طبقة النبلاء منذ أن وجدوا. لقد خرجوا من السديم الشمالي وهم يضعون التويجات على رؤوسهم. ألم تكن قضبان العتمة في الحجرة والبرك الصفراء التي ترسم على الأرضية مربعات كمربعات الداما، من صنع أشعة الشمس الساقطة عبر الزجاج الملون على شعار النبالة الضخم الذي في النافذة؟ وقف أورلندو الآن في وسط الجسم الأصفر لفهد شعار النبالة. حين وضع يده على حافة النافذة ليفتحها، اكتست بالأحمر والأزرق والأصفر على الفور كجناح فراشة. وهكذا، فإن أولئك الذين يحيون الرموز ويميلون إلى حلّها، قد يلاحظون أنه رغم أن الساقين الجميلتين والجسد المتناسق والكتفين القويتين كانت كلها مزينة بمختلف ألوان النور القادم من شعار النبالة؛ إلا أن وجه أورلندو، حين فتح النافذة، أضيء لوحده من قبل الشمس ذاتها. من المستحيل أن تجد وجهاً أكثر نزاهة وتجهماً من ذلك الوجه. لكم هي سعيدة تلك الأم التي تحمل مثل هذا الابن والأسعد أيضاً هي كاتبة سيرة تروي حياة مثل هذا الشخص! لا حاجة أبداً إلى أن تغيظ نفسها، ولا أن تتوسل المساعدة من روائي أو شاعر. من فعل إلى فعل ومن مجد إلى مجد ومن منصب إلى منصب عليه أن يمضي، وعلى كاتبته أن تلحق به حتى يصلا إلى المقرّ الذي هو في ذروة رغبتهما. كان أورلندو، عندما تنظر إليه،

يبـدو كمن صُنع بالضبط لمثل هذه السيرة. كانت حمرة وجنتيه مغطاة بزغب كزغب الدرّاق، أما الزغب الذي على شفتيه فكان أثخن بقليلٍ من ذاك الذي على الوجنتين. كانت شفتاه قصيرتين ومنسحبتين قليلاً فـوق أسنانـه ذات البياض الحاد واللّوزي. لا شـيء كان يعيب الأنف الذي كالسهم خـلال طيرانه القصير والمتوتر. أمـا الشعر فكان داكناً والأذنـان صغيرتين وملتصقين جداً بالرأس. ولكن يا للأسى، لا يمكن لهذه اللوائح التي تصف هذا الجمال الشاب أن تنتهي دون ذكر الجبين والعينـين. ويـا للحسرة أن ينـدر أن يخلق الناس خالـين من مثل تلك الأشياء الثلاثة معاً، فنحن لو نظرنا إلى أورلندو وهو واقف عند النافذة علينـا أن نعترف بأن له عينين كالبنفسـج المندّى، واسعتين حتى ليبدو الماء وكأنه يطفح منهما ويوسعهما. وكان له جبين أشبه باستدارة القبة الرخاميـة المضغوطة بين ميداليتين غير منقوشتـين هما صدغاه. ننظر مباشرة إلى العينين والجبين ونستفيض في الثناء . ننظر مباشرة إلى العينين والجبـين فيكـون علينا أن نقرّ بألف أمر غير محبـب، وهذا هو الهدف الـذي علـى كل كاتب سـيرة جيـد أن يتجنّبه. هناك مشاهـد تثير فيه الاضطراب، كمشهد أمه، وهي سيدة فائقة الجمال، وترتدي ملابس خضـراء اللون، وقـد خرجت لتطعم الطواويس مـع خادمتها المسماة «تويتشـت» وهي تسير خلفها. هناك مشاهد تثـير النشوة... الصور والأشجار ؛ ومشاهد تجعله يعشق الموت: سماء المساء وطيور الغداف الموجهة. وهكذا بدأت كل هذه المشاهد المتصاعدة على السلم اللولبي نحو دماغه- وهي دمـاغ واسعة- وكذلك أصوات الحديقة وصوت طرَقات المطرقـة وتقطيع الخشب، بدأت بذلك الشغب والفوضى في الانفعـالات والعواطف التي يكرهها كل كاتـب سيرة. ولكن لنتابع: أدخـل أورلنـدو رأسه ثم جلس إلى المنضدة وتنـاول على نحو نصف واع - كمـا قـد يفعل الناس في كل يوم من أيـام حياتهم في مثل هذه

الساعة -دفتراً عنونه باسم "إيثلبرت: مأساة في خمسة فصول"، وغمس ريشة أوزّ قديمة وملطخة بالحبر في الدواة.

سرعان ما كان قد دوّن ما يملأ عشر صفحات بالشعر. كان الشعر يتدفق منه بجلاء، ولكنه كان تجريدياً. "الرذيلة" و"الجريمة" و"البؤس" كانت شخصيات مسرحيته. كان فيها ملوك وملكات لأراض مستحيلة، وعقد رهيبة تشعرهم بالخزي؛ وعواطف نبيلة تغمرهم؛ ولا تقال كلمة واحدة كما قد يقولها هو شخصياً؛ ولكن كان يدير كل شيء بتدفق وعذوبة استثنائيتين.بما فيه الكفاية حقاً لو أخذنا في الاعتبار سنّه- لم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد- وأن القرن السادس عشر كان ما يزال أمامه بعض السنوات قبل أن ينقضي. وأخيراً، وعلى أي حال، فقد توقف عن الكتابة. كان يصف، كما هو شأن جميع الشعراء الشبان إلى الأبد، الطبيعة، وحتى يجد ما يضاهي الدرجة اللونية للأخضر بدقة، فقد نظر (وهنا أظهر جرأته كأكثر ما تكون) إلى الشيء بحد ذاته، وكان عبارة عن شجيرة غار نمت تحت النافذة. بعد ذلك، بالطبع توقف عن الكتابة. الأخضر في الطبيعة شيء والأخضر في الأدب شيء آخر. بين الطبيعة والأدب كراهية طبيعية، فإذا جمعتهما معاً، مزق الواحد منهما الآخر إلى أشلاء. كانت تلك الدرجة اللونية التي رآها أورلندو الآن قد أفسدت قافيته وأتلفت وزن قصيدته. وإضافة إلى ذاك فإن للطبيعة أخطارها الخاصة بها. إذا نظر المرء ذات مرة عبر النافذة إلى نحل بين أزهار وكلب يتثاءب والشمس وهي تغرب، لقال في نفسه: "كم شمساً بعد سأرى وهي تغرب؟" (هذه الفكرة مألوفة جداً إلى حد أنها لا تستحق أن يُكتب عنها) ويرمي هو بالقلم ويتناول عباءته ويخرج من الغرفة، وتصطدم قدمه بصندوق مطليّ خلال ذلك. فلقد كان أورلندو أخرق بعض الشيء.

كان حريصاً على تجنب مقابلة أي شخص. كان هناك "ستَبس" الجنائني قادماً عبر الممر. اختبأ هو خلف شجرة حتى مرّ ذلك الشخص. خرج من بوابة صغيرة في سور الحديقة. طاف من حول جميع الإسطبلات ووجارات الكلاب ومخامر الجعة وورشات النجارين والمغاسل وورشات صنع الشموع الشحمية ومذابح الثيران وورشات حدادة حدوات الخيول وورشات خياطة السترات الطويلة: فقد كان المنزل عبارة عن بلدة تعجّ برجال يعملون في مختلف المهن. سار في الممر المغطى بنبات السرخس الذي يؤدي صعوداً إلى التل عبر الحديقة دون أن يراه أحد. ربما تكون هناك قرابة بين الصفات؛ فالمرء يجذب خلفه صفة أخرى مع الأولى. وعلى كاتبة السيرة أن تلفت الانتباه هنا إلى حقيقة أن هذه الصفة الخرقاء فيه كانت غالباً ما ترافق بحبّ للعزلة. فبعد أن تعثّر بالصندوق كان أورلندو يحب الأماكن المنعزلة بالطبع والمشاهد الواسعة الرحبة وأن يشعر أنه وحده إلى الأبد والأبد والأبد.

لذلك، وبعد صمت طويل، قال أخيراً: "أنا وحيد"، وهو يفتح شفتيه للمرة الأولى في هذا السجل. كان قد سار بسرعة كبيرة صاعداً عبر نباتات السرخس وشجيرات الزعرور البري فأجفل الغزلان والطيور البرية، إلى مكان تتوّجه شجرة سنديان ضخمة. كانت شديدة الارتفاع حتى أنه كان ممكناً مشاهدة تسع عشرة مقاطعة إنكليزية من تحتها. وفي الأيام الصافية ربما ثلاثين أو أربعين مقاطعة إن كان الطقس شديد الصفاء. كان يمكن مشاهدة الأنهار وزوارق النزهة تنزلق فوقها؛ والسفن الشراعية الضخمة تنطلق نحو البحر؛ وأساطيل تنطلق منها نفحات من الدخان الناجمة عن إطلاق المدافع؛ وحصون على الشاطئ؛ وقلاع بين المروج، هنا برج مراقبة، وهناك حصن: ومن جديد منزل ضخم مثل منزل والد أورلندو، ويبدو كبلدة في واد

محـاط بالأســوار. إلى الشرق كانت هناك أبراج لنــدن ودخان المدينة، وربمـا عند الأفق تماماً، وحين تكون الريح في المـكان الملائم، كانت القمـة شديدة الانحـدار والحواف المسننة لـ "سنــودون" نفسها تبدو جبليـة بين الغيوم. لبرهة وقف أورلندو وهـو يعدّ ويحدق ويميّز. كان ذلك منزل والده، وذاك منزل عمّه. كانت عمته تمتلك تلك البريجات الثلاثة التي هنـاك. كان المرج ملكاً لهم وكذلك الغابة؛ طيور التدرج وكذلك الغزلان، الثعالب والغريريات، كما الفراشات.

تنهد بعمق، ورمـى بنفسه- كان هناك انفعال في حركاته تستحق أن تُسمى كذلك- على الأرض عند أسفل شجرة سنديان. كان يحب، تحت كل هذا الزوال الصيفـي، أن يشعر بعمود الأرض الفقري تحته. لذلـك فقد كان يتخيل الجذر القاسـي للسنديانة على أنه ظهر حصان عظيم كان يمتطيه، أو كانت صورة ذلك تتبع الصورة. أو يتخيلها متن سفينـة منقلبـة، بل أي شيء بالفعـل طالما كان قاسياً، فقـد كان يشعر بالحاجـة إلى شـيء يستطيع أن يربط قلبه العائم بـه؛ ذلك القلب الذي كان يكافـح في جنبـه. ذلك القلب الذي كان يمتلـئ بعواصف مبهّرة ومترعـة بالعشق في مثـل هذا الوقت من كل مسـاء لدى خروجه من المنـزل. كان يتشبث بالسنديانة وهو ممدّد هنـاك، وكانت الحركة من حوله تهدأ تدريجياً. فـالأوراق الصغيرة تبقى معلقة وتتوقف الغزلان وتقف غيـوم الصيف الشاحبـة في مكانها وتبدأ أعضـاؤه تثقل على الأرضـ. وكان يستلقي هناك بسكون تام إلى حد أن يحدث تدريجياً أن تقـترب منه الغزلان أكـثر وتحوم طيور الغداف مـن حوله وتنقض السنونوات وتدور من حوله بينما تندفع اليعاسيب من فوقه وكأن كل النشـاط المتعلق بالخصوبة والغزل لمساء صيفي قـد راح يغزل ما يشبه بيت عنكبوت حول جسده.

بعد حوالي الساعة أو نحوها، كانت الشمس قد بدأت تغرب بسرعة وهاهي الغيمات البيضاء قد احمرت واكتست التلال لوناً بنفسجياً والغابات لوناً أرجوانياً والوديان لوناً أسود: سمع صوت بوق. قفز أورلندو ناهضاً. وصل الصوت الجاد من الوادي. وصل من بقعة مظلمة هناك في الأسفل. إنها بقعة متراصة ومخططة جيداً؛ متاهة؛ بلدة؛ ولكنها محاطة بسور. كانت تأتي من قلب منزله الضخم في الوادي الذي كان معتماً من قبل. وحتى هو ينظر عاد صوت البوق مرة أخرى ثم أخرى مع أصوات حادة أخرى، فقد فقد المكان عتمته وبرزت منه ثقوب مضيئة. كان بعضها أضواء صغيرة سريعة، وكأن خدماً كانوا يندفعون عبر ممرات ليلبّوا طلبات معينة؛ وأخرى كانت أضواء عالية ولامعة وكأنها صادرة عن قاعات ولائم فارغة يتم تجهيزها لاستقبال الضيوف الذين لم يصلوا بعد. وهناك أضواء أخرى كانت تبهت وتتموج وتغرق ثم تصعد كأنما تمسك بها أيادي جماعة من الخدم كانوا ينحنون ويركعون وينهضون ويستلمون ويحرسون ويرافقون بكل وقار داخل المنزل أميراً عظيماً يترجل من عربته. كانت العربات تلتف ثم تنعطف في الباحة. كانت الجياد ترفع رؤوسها المزينة بالريش. لقد وصلت الملكة.

لم يعد أورلندو ينظر. اندفع هابطاً التل. دخل من بويب. انطلق صاعداً الدرج اللولبي. وصل إلى غرفته. رمى بجوربيه إلى أحد جوانب الغرفة وسترته إلى جانب آخر. أخفض رأسه ثم رفعها مجدداً. نظف يديه. شذب أظافره. ارتدى بنطالاً قصيراً قرمزي اللون وقبة مخرّمة وصدرية من التافتا وحذاء مزيناً بورديات كبيرة بضعف حجم وردة الأضاليا خلال أقل من عشر دقائق حسب ساعة الإسطبل مستعملاً مرآة لا يزيد طولها عن ست إنشات فحسب وزوجاً من

الشموع العتيقة. كان جاهزاً. كان متورد الوجه ويشعر بالإثارة. ولكنه كان قد تأخر إلى حد كبير.

بواسطة ممرات مختصرة يعرفها جيداً، شق طريقه عبر أكوام من الغرف والسلالم نحو قاعة الولائم، التي تبعد خمسة آكرات على الجانب الآخر من المنزل. ولكن حدث أن توقف في منتصف الطريق إلى هناك، في الغرف الخلفية التي يسكن فيها الخدم. كان باب غرفة جلوس السيدة ستيوكلي مفتوحاً: كانت قد غادرت دون شك مع مفاتيحها كافة لتكون في خدمة سيدتها. ولكن هاهو رجل بدين وأشعث إلى حد ما، كان طوق قبّته قذراً وملابسه بلون بني داكن، يجلس إلى مائدة الخدم وإلى جانبه إبريق معدني بينما وضعت أوراق أمامه. كان يمسك قلماً بيده، ولكنه لم يكن يكتب. كان يبدو كمن يقلّب فكرة ما صعوداً ونزولاً وجيئة وذهاباً في رأسه، حتى اتخذت شكلاً أو زخماً حسب ما يحبّ. راحت عيناه، اللتان كانتا مستديرتين وغائمتين كحجر أخضر ذي تركيب غريب، تبدوان ثابتتين. لم ير أورلندو. ورغم كل عجلة أورلندو، فقد جمد في مكانه. هل كان هذا شاعراً؟ كان أن يود أن يقول: "إحكِ لي عن كل ما في هذا العالم بأجمعه." فقد كانت لديه أكثر الآراء جموحاً وغرابة وتطرفاً عن الشعراء والشعر. ولكن كيف يمكنك أن تخاطب شخصاً لا يراك؟ شخصاً يرى غيلاناً وآلهة الأساطير الإغريقية وربما أعماق البحر بدلاً عن ذلك؟ لذا وقف أورلندو وهو يحدق بينما راح الرجل ينقّل قلمه بين أصابع يده. كان يحدق ويفكر. ثم كتب وبسرعة كبيرة نصف دزينة من الأسطر ورفع بصره. عندها انطلق أورلندو وقد غلبه الخجل، ووصل إلى قاعة الولائم في الوقت الملائم ليركع على ركبتيه وينكس رأسه بارتباك، وهو يقدم طاساً من ماء الزهر للملكة العظيمة نفسها.

كان خجله عظيماً إلى حدّ أنه لم يرَ منها سوى يد مغطاة بالخواتم مغموسة في الماء، ولكن كان هذا كافياً له. كانت يداً جديرة بالتذكر: نحيلة ذات أصابع طويلة ودائماً في حالة التفاف كأنما من حول كرة أو صولجان؛ يداً عصبية ومعقدة ومريضة، يداً آمرة أيضاً؛ يداً ما كان عليها سوى أن ترفع لتسقط رأساً ما. كانت يداً معلقة، كما خمّن، بجسد عجوز له رائحة خزانة يُحفظ فيها الفراء بالكافور. إنه جسد مغطى بكل أنواع البروكار والجواهر ويبقى منتصباً ولو مع الألم من عرق النّسا، ولا يجفل قط رغم أنه متوتر من ألف من المخاوف. أما عينا الملكة فكان لونهما أصفر فاتحاً. لقد شعر بهذا كله بينما الخواتم الضخمة تلتمع في الماء، ثم ضغط شيء ما على شعره: وهذا ما يفسر ربما أنه لم يرَ شيئاً يمكنه أن يكون على الأرجح مفيداً لمؤرخ. وفي الحقيقة، كان ذهنه في حالة ازدحام بالأضداد– بالليل والشموع اللاهبة، بالشاعر رث الملابس والملكة العظيمة، بالحقول الصامتة وصلصلة الخدم– حتى أنه لم يستطع رؤية أي شيء، أو مجرد يد.

وفي هذا المضمار نفسه، فإن الملكة نفسها ما كانت لترى سوى مجرد رأس. ولكن لو كان ممكناً استنتاج جسد من يد، فنحن مع معرفتنا بكل صفات ملكة عظيمة، سرعة غضبها وشجاعتها وضعفها ورعبها، فلا شك أن رأساً ستكون بالخصوبة نفسها، إذا ما نُظر إليها من كرسي الدولة من قبل سيدة كانت عيناها واسعتين جداً إذا كانت تماثيل الشمع في "الدير الكبير" موثوقة. كان الشعر الطويل المجعد والرأس الداكنة المنحنية على نحو شديد التبجيل والبراءة أمامها، يعنيان ضمناً أن له زوجاً من أجمل السيقان التي أتيح لأي نبيل شاب أن يقف عليهما؛ مع عينين بنفسجيتين وقلب من ذهب وإخلاص وفتنة رجولية: كل الصفات التي كانت المرأة العجوز تحبها أكثر كلما خيبت أملها أكثر. فقد كانت توغل في السنّ وجسدها

يشيخ وينحني قبل الأوان. كان صوت المدافع يدوي دائماً في أذنيها. كانت تشاهد على الدوام نقطة السم المتلألئة والمدية الطويلة. وبينما كانت تجلس إلى المائدة، فقد راحت تصغي. سمعت صوت المدافع في القنال الإنكليزي، وشعرت بالخوف: هل كانت تلك لعنة؟ هل كانت همسة؟ البراءة والبساطة كانتا أحبّ إليها بسبب الخلفية الداكنة التي كانت تضعهما عليها. وقد حدث في تلك الليلة بالذات، كما يروي التراث، أنه بينما كان أورلندو يغط في النوم، أنها اتخذت قراراً رسمياً فوقعت وختمت الوثيقة بشكل نهائي، بمنح المنزل الخاص بالدير والذي كان ملكاً للأسقف ثم للملك إلى والد أورلندو. نام أورلندو الليل بطوله في جهل بما جرى. لقد قبّلته ملكة دون أن يعرف بذلك. وربما كان جهله وإجفاله عندما لمسته شفتاها هما من أبقى ذكرى ابن عمها الشاب (فقد كانا من سلالة واحدة) حيّة في ذهنها، فقلوب النساء معقّدة. وعلى أي حال، فإن عامين من حياته الريفية الهادئة لم يكونا قد مرّا بعد، و لم يكن أورلندو قد كتب أكثر من عشرين تراجيديا ودزينة من السونيتات على الأرجح، وذلك حين وصلت رسالة تفيد بأن عليه أن يمثل في حضرة الملكة في "وايتهول".

قالت وهي تراقبه وهو يتقدم على امتداد البهو المعمّد الطويل باتجاهها: "ها هي براءتي قادمة!" (كان هناك على الدوام نوع من السكينة تحيط به ولها مظهر البراءة، في حين أن هذه الكلمة لم تعد ملائمة إطلاقاً من حيث المبدأ).

قالت: "تعال!" كانت تجلس باستقامة قرب المدفأة. وقد جعلته على مسافة قدم منها وتأملته من أعلى إلى أسفل. هل كانت تقارنه مع تأوّلاتها في تلك الليلة الأخرى والحقيقة ماثلة الآن أمامها. هل وجدت تخميناتها مبررة؟ العينان والفم والأنف والصدر والوركان واليدان:

استعرضتهــا جميعــاً. ارتعشت شفتاها بجلاء وهــي تنظر إليه؛ ولكن حين رأت ساقيه أطلقت ضحكة عالية. كان الصورة المثالية للجنتلمان النبيــل. ولكن في سرها أطلقت نحوه عينيهــا الصفراوين كعيني صقر كأنمــا أرادت أن تخترق روحه. صمد الشاب أمام تحديقتها واحمرت وجنتاه كــوردة دمشقية وكما يليق به. قوة ولباقة ورومانسية وحماقة وشعر وفتــوة... قرأته كما تُقرأ صفحة من كتــاب. اقتلعت خاتماً من أصبعهــا (كان مفصل أسبعهــا متورماً إلى حد ما) وبينمــا ألبسته هذا الخاتم في أصبعه، فقد عيّنته خازناً وقهرماناً. وتالياً علقت على صدره نياشــين المنصبــين. ثم أمرتــه أن يحني ركبته، فربطــت من حول أرق أجزائها أعلى أوسمة الفروسية للعرش البريطاني. بعد ذلك لم يرُفض له أي طلــب. حين كانت تمتطي عربتها الملكية كان يرافقها على حصانه عنــد باب عربتها. أوفدتــه إلى سكوتلاندا في مهمــة تعيسة إلى الملكة الحزينــة. كان على وشــك الإبحار ليشارك في الحــروب البولندية إلا أنهــا أمرته بالعودة. فكيف كانت ستتحمل التفكير في أن يتمزق ذلك اللحم الغضّ وأن يتدحرج ذلك الرأس المجعد الشعر في التراب؟ أبقته إلى جانبها. في أوج انتصاراتها حين كانت المدافع تدوي في برج لندن والجــو ملبّد بمــا فيه الكفاية بدخان المدافع، حتــى يسبب في العطاس، وصيحــات الابتهاج تدوّي تحت النوافذ، فقد شدته إليها بين الوسائد حيث أضجعتها وصيفاتها (فقد كانت مرهقة وعجوزاً جداً) وجعلته يدفن وجهه في ذلك التركيــب المدهش- لم تكن قد غيرت ثوبها منذ شهر- وكانت رائحته حقــاً، وكما فكر، مستدعياً ذاكرته وهو صبي صغــير، أشبه برائحة خزانــة عتيقة كانت يُحفظ فيها فــراء أمه. نهض وهــو نصف مختنق من ذلــك العناق. همست: "هذا هــو انتصاري!" حتى حين انفجر سهم ناري عالياً وصبغ وجنتيها بلون قرمزي.

فقد كانت المرأة العجوز تحبه. والملكة، التي كانت تميز الرجل حين تراه، ورغم أن ذلك لم يحدث بالطريقة المعتادة كما يقال، فقد كانت تخطط له مستقبلاً طموحاً ولامعاً. منحت له أراضي ووهبت له منازل. كان عليه أن يلعب دور ابنها في شيخوختها، ووسيلة قوتها في ضعفها؛ السنديانة التي كانت تستند إليها في انحطاطها. نعبثُ بتلك الوعود وألفاظ الحنان المستبدة الغريبة (كانا يقيمان في ريتشموند الآن) وهي جالسة باستقامة في ملابسها المخيطة من البروكار المنشى قرب المدفأة، والتي مهما أوقدوها وعلت نيرانها ما كانت لتدفئها.

في هذه الأثناء كانت شهور الشتاء الطويلة تمرّ ببطء. كانت كل شجرة في المنتزه مغطاة بالجليد. وكان النهر يجري بكسل. في أحد الأيام حين كان الثلج يغطي الأرض والغرف المعتمة بنوافذها ذات الألواح الزجاجية الطويلة مليئة بالظلال، بينما تنبح الأيائل في المنتزه، فقد شاهدت في المرآة – التي كانت تبقيها إلى القرب منها خشية الجواسيس– عبر الباب– الذي كانت تبقيه مشرعاً على الدوام خشية المغتالين– غلاماً (أيمكن أن يكون أورلندو) يقبّل فتاة. ومن كانت ويا للشيطان تلك اللئيمة الوقحة؟ استلّت سيفها ذا المقبض الذهبي وضربت به المرآة بعنف. تحطم الزجاج. وصل الناس مسرعين. رُفعت وأُجلست في كرسي من جديد، ولكنها كانت حزينة بعد ذلك وراحا تئنّ كثيراً، بينما راحت أيامها تمرّ ببطء وملل من خيانة الرجال.

ربما كانت تلك غلطة أورلندو على الأرجح. ومع ذلك فهل علينا حقاً أن نلوم أورلندو؟ كان ذلك هو العهد الإليزابيثي و لم تكن أخلاقهم أخلاقنا، ولا شعراؤهم شعراءنا، ولا مناخهم مناخنا ولا حتى خضارهم خضارنا. كل شيء كان مختلفاً. حتى الطقس نفسه، الحرّ والبرد في الصيف والشتاء، كان على ما نعتقد مختلفاً في حدّته تماماً.

كان اليـوم الغَـزَلي الرائع يُفصل تماماً عنِ الليـل كما تفصل الأرض عن الماء. كان غروب الشمس أكثر احمراراً وكثافة، أما الفجر فأكثر بياضاً وفجريـة. لم يكونوا يعرفون شيئاً عـن أنصاف نورنا الغسقي ومشاهد شفقنـا المتواني. كان المطر يهطل بقـوة أو لا يهطل قط. كانت الشمس تتّقـد أو يسود الظلام. وإذا مـا ترجمنا هذا إلى المجالات الروحية كما هـي عادتهـم، كان الشعراء يتغنّـون على نحو جميل عـن كيف تذبل الأزهـار وتسقـط تويجاتها. كانوا يغنّون قائلين بـأن اللحظة موجزة، وأن اللحظـة قد انقضت. عندها فـإن الجميع سينام عبر ليلة طويلة. أما بالنسبة إلى استخدام مهارات بيت الدفيئة أو المستنبت الزجاجي لإطالة عمر هذه القرنفلات والورود النضرة أو حفظها، فتلك لم تكن واحدة من طرائقهم. لم تكـن معروفة لديهم التعقيـدات والالتباسات الذابلة لعصرنـا الأكثر تدرّجاً وريبة. كان العنف هـو كل شيء. كانت الزهرة تتفتـح ثم تذبـل، والشمس تبزغ ثـم تغيب. وكان العاشـق يحبّ ثم يمضي. وما كان الشعراء يقولونه من قصائد مقفاة كان الشبان يمارسونه فعلياً. كانـت الفتيات وروداً وكانت مواسمهـن قصيرة شأن الورود. كان لا بـدّ من قطفهن قبل هبـوط الليل، فالنهار قصير وكان النهار كل شيء. وهكذا، فلو اتبع أورلندو إملاءات المناخ والشعراء والعصر نفسه وقطـف وردته في مقعـد الشباك، حتـى لو كان الثلـج يغطي الأرض والملكـة يقظة في الممـر، فلا نستطيـع إلا بالكاد أن نلومـه. كان شاباً وطائشـاً و لم يفعل سوى ما أمرته الطبيعة بفعله. أما ما يخص الفتاة فلا نعرف اسمها أكثر مما كانت تعرفه الملكة إليزابيث. ربما كان دوريس أو كلوريس أو دِليا أو ديانا، فقد كان ينظم قصائد لجميع هذه الأسماء كلاً بدورها. ربما كانت من سيـدات البلاط أو خادمة على حد سواء. فقد كان ذوق أورلندو واسعـاً. لم يكن عاشقاً لورود الحديقة فحسب، بل كانت الورود البرية والأعشاب تخلب لبّه أيضاً.

هنــا نكشف فعلاً وبفجاجة، كما قد يفعــل أي كاتب سيرة، نزعة غريبــة لديــه، لا بدّ مــن تفسيرها على الأرجــح، بحقيقــة أن إحدى جداته كانت ترتــدي ثوباً خارجياً فضفاضاً وتحمل دلاء الحليب. ربما امتزجت بعض حبيبــات التربة الكنتيــة أو السَسكسية (مقاطعتان في إنكلترا) بالسائل الرقيق الــذي وصَله من النورمَاندي. كان يعتقد بأن مزيج التربة البنية والــدم الأزرق مزيج جيد. من المؤكد أنه كان يحبّ علــى الدوام مصاحبة من هم من طبقة وضيعة، وخاصة المثقفين الذين تبقيهــم حصافتهــم غالباً في الأسفــل، وكأنما بينهــم تعاطف يعود إلى صلــة الدم. في تلك الفترة من حياته، حين كانت رأسه تطفح بالقوافي ولم يكــن يذهب إلى فراشــه دون أن يكون قد التقط صورة خيالية ما، فوجنة ابنــة صاحب نزل ما بدت أنضر مما هي لــدى سيدات البلاط، كما بدا ظرف ابنة شقيق حارس منطقة الصيد أسرع من ظرف أولئك السيــدات. وهكذا بدأ يذهب غالبــاً إلى "وپينغ أولد ستيرز" وحدائق الجعة ليلاً وقد تستر بعباءة رمادية اللون لإخفاء النجمة التي على عنقه والوســام الذي على ركبته. هناك، مع إبريــق الجعة أمامه بين الحارات المتربــة ومروج لعبة البولينغ وكل العمائــر البسيطة لمثل هذه الأماكن، كان يصغــي إلى حكايــات البحارة عــن المشاق والأهــوال والقسوة في ذلــك الجزء من البحــر الكاريبي الــذي كان تحت سيطــرة السفن الإسبانية؛ كيــف أن البعض فقدوا أصابع أقدامهَــم وآخرون أنوفهم: فالحكاية المروية لم تكن معقدة جداً أو ملونة بتلك الرهافة شأن الحكاية المكتوبــة. وكان يحب على نحو خاص الاستماع إليهم وهم يطلقون أغانيهم عــن أرخبيل الأزورز (٤)، بينما تنقر الببغاوات الصغيرة التي أحضروها من تلــك الأصقاع حَلَق آذانهم وتضــرب بمناقيرها القاسية الطماعــة الياقوت الذي على خواتم أصابعهم، وهم يشتمون أسيادهم بــكل الشتائم القذرة. ولم تكن النساء أقل جرأة إلا بالكاد في كلامهن

أو أقل تحرراً في سلوكهن من الطيور. كنّ يجثمن على ركبته ويلقين بأذرعتهن من حول عنقه، وبينما كن يتحزّرن بأن شيئاً غير عادي يكمن تحت عباءته الصوفية، فقد كان توقهن إلى معرفة حقيقة الأمر قوياً بقدر ما كان توق أورلندو نفسه.

ولم تكن الفرص غير متاحة. كان النهر نشطاً في أول النهار كما في آخره بالمراكب والزوارق والسفن من كل الأصناف. في كل يوم كانت سفينة رائعة ما تنطلق مبحرة نحو جزائر الهند الشرقية أو الغربية؛ وبين الحين والآخر كانت سفينة مسودّة ورثّة تحمل على متنها رجالاً طويلي الشعور تزحف بألم نحو المرسى. لم يكن هناك من يفتقد فتى أو فتاة لو توانيا قليلاً فوق الماء بعد الغروب؛ أو يرفع حاجباً لو أن الإشاعة قالت إنهما كانا ينامان بعمق بين أكياس النفائس وقد اطمأن كل إلى ذراعي الآخر. كانت تلك بالفعل المغامرة التي كان يخوضها أورلندو و"سوكي" و"إيرل أو كمبرلند". كان النهار حاراً وكانت غرامياتهم نشطة. غلبهم النوم بين أحجار الياقوت. في وقت متأخر من تلك الليلة فإن إيرل كمبرلند الذي كانت حظوظه تعتمد على المغامرات الإسبانية إلى حد كبير، أتى ليتفحص الغنائم بقنديل. وجّه الضوء على برميل ما. ثم تراجع وهو يشتم. كان روحان يتعانقان من حول برميل الخمر وهما نائمان. وبما أن الإيرل كان يؤمن بالخرافات بطبعه، وضميره مثقل بجرائم كثيرة، فقد اصطحب الثنائي- بعد أن تم لفّهما بعباءة حمراء وكان صدر سوكي أبيض مثل الثلوج الأبدية لشعر أورلندو- فقد قفز شبح من قبور البحارة الغرقى ليلومه. رسم إشارة الصليب على نفسه. أقسم على التوبة. كان صف من بيوت تكية الفقراء ما يزال قائماً في "شين رود" هو ثمرة رعب تلك اللحظة. ها هنّ اثنتا عشرة امرأة عجوزاً من الفقيرات يحتسين الشاي اليوم

ويمجدن الليلة سعادة الإيرل لأجل السقف الذي فوق رؤوسهن. إذاً فالحب المحرّم سفينة كنوز... إلا أننا نهمل هنا ما هو أخلاقي.

سرعان ما أصيب أورلندو بالتعب، ليس بسبب متاعب هذه الطريقة في العيش وشوارع الجوار المزعجة، بل بسبب السلوك البدائي للبشر. إذ أن علينا أن نتذكر أن الجريمة والفقر لم تكن لهما تلك الفتنة بالنسبة إلى معاصري العهد الإليزابيثي كما هما بالنسبة إلينا. لم يكن لديهم أي شعور بالخجل المعاصر تجاه تعلم القراءة والكتابة ولا عرفوا اعتقادنا بأننا إن كنا أبناء لجزّار فهذه نعمة وأن جهلنا للقراءة فضيلة. لم يكن لديهم أي وهم بأن ما نسميه "حياة" و "واقعاً" مرتبطان نوعاً ما بالجهل والوحشية؛ كما لم يكن لديهم بالفعل أي معادل على الإطلاق لهاتين الكلمتين. لم يكن أورلندو يعاشرهم ساعياً إلى "الحياة" ولا طلباً لـ"الواقع" حين هجرهم. ولكن حين سمع عشرات المرات كيف فقد "دجيكس" أنفه و "سوكي" شرفها، وكانوا يروونها على نحو مثير للإعجاب – كما علينا الإقرار بذلك– فقد بدأ يملُّ من التكرار، فالأنف لا يمكن أن يُجدع إلا بطريقة واحدة ولا تُفقد العذرية إلا بطريقة واحدة أخرى؛ أو هكذا بدا له: بينما الفنون والعلوم تتحلى بالتنوع الذي يحرك فضوله على نحو عميق. وهكذا، ومع إبقائهم دائماً في ذاكرته السعيدة، فقد توقف عن ارتياد حدائق الجعة وحارات البولينغ، وعلّق عباءته الرمادية في خزانته، وترك نجمته تلمع على عنقه ووسامه يشع على ركبته وعاد إلى الظهور في بلاط الملك جيمس. كان شاباً وكان غنياً وكان وسيماً. لم يكن هناك من يمكن أن يلقى ترحيباً أعظم مما تلقاه.

من المؤكد بالفعل أن كثيراً من السيدات كنّ مستعدات لإظهار

محاباتهن له. وهناك أسماء لثلاثة منهن ارتبطن به برابط الزواج بحرية: كلوريندا وفافيلا ويوفروسين؛ هكذا أسماهن في سونيتاته.

ولنتعامل معهن بالترتيب: كانت كلوريندا سيدة ذات سلوك عذب ولطيفة بما فيه الكفاية؛ وبالفعل كان أورلندو قد أغرم بها إلى حد كبير لستة أشهر ونصف الشهر. ولكن كانت رموش عينيها بيضاء ولم تكن تستطيع تحمل مشاهدة الدم. لقد سبّب لها الإغماء أرنب أُحضر إلى مائدة والدها مشوياً. وكانت خاضعة إلى حد كبير إلى تأثير القساوسة أيضاً، فراحت تبخل على نفسها بالثياب الداخلية لتعطي الفقراء. وقد عاهدت نفسها على تخليص أورلندو من خطاياه مما أثار اشمئزازه فانسحب من الزواج، ولم يأسف كثيراً حين ماتت بعد فترة قصيرة من مرض الجدري.

أما فافيلا التي هي الثانية فكانت من صنف مختلف تماماً. كانت ابنة جنتلمان فقير من سومرستشر، وقد استطاعت بكدّها واستخدام عينيها أن تشق طريقها صعوداً في البلاط حيث نالت براعتها في ركوب الخيل وأخمص قدمها الجميل ورشاقتها في الرقص إعجاب الجميع. في إحدى المرات تصرفت دون حكمة حين جلدت كلباً سنبيلياً مزّق إحدى جواربها الحريرية (ولا بدّ أن يُقال هنا من أجل العدل أن فافيلا كانت لا تملك سوى القليل من الجوارب وكان معظمها من القماش الصوفي الخشن) حتى كاد يموت تحت نافذة أورلندو. لاحظ أورلندو الآن، الذي كان من محبّي الحيوانات الشغوفين، أن أسنانها كانت ملتوية وأن سنّيها الأماميتين كانتا معقوفتين نحو الداخل، وهي علامة أكيدة على نزعة شاذة وقاسية لدى تلك المرأة، وهكذا فقد ألغى الخطوبة في تلك الليلة وإلى الأبد.

أمـا الثالثة يوفروسين فقد كانت دون شك الأكثر جدية بين قصص عشقه. كانت من حيث السلالة من آل دزموند الأيرلنديين ولها بالتالي شجـرة عائلة بقدم وتجذّر عائلة أورلنـدو نفسها. كانت شقراء وذات بشـرة متوردة ولا مبالية قليلاً، تتقن الايطالية نطقاً وتتمتع بأسنان غاية في الكمـال في الفـك العلوي، رغـم أن تلك التـي في الفك السفلي كانـت غير صافية اللـون بعض الشيء. لم تكن تذهـب إلى أي مكان دون كلب سلوقـي أو سبينيلي إلى جانبها، وكانت تطعم كلابها خبزاً أبيض من طبقها الشخصي وتغني بعذوبة بمصاحبة آلة موسيقية تسمى "العذرواية". و لم تكـن ترتدي ملابسها للظهور قبل منتصف النهار بسبب العناية الكبيرة التي كانت توليها لشخصها. باختصار، كان من شأنها أن تمثل الزوجة الملائمة تماماً لنبيل شأن أورلندو؛ وكانت القضية قـد وصلـت إلى حـد أن المحامين عـن كلا الطرفين كانـوا مشغولين بترتيب العهود والعقارات الموهوبة من الزوج إلى الزوجة والتسويات والأملاك العقارية والمباني، وكل ما هو مطلوب قبل أن تتوحد ثروتان كبيرتـان معـاً، حين حلّ "الصقيـع العظيم" بالفجائيـة والشدة اللتين كانتا من علائم المناخ الإنكليزي.

كان "الصقيـع العظيم"، كما ينبئنـا المؤرخون، الأشد الذي عرفته هـذه الجزر. فقـد كانت الطيور تتجمد وهي تطـير في الهواء وتسقط كالحجـارة على الأرض. في نورويتش بدأت امـرأة ريفية شابة بعبور الطريـق بصحتها القوية المعتادة، وقد شوهدت من قبل الناظرين وهي تتحـول إلى مسحـوق وأن تعصف بهـا الريح فـوق الأسطح، عندما عصفـت بها هبة صقيعية عند ركن الشـارع. ماتت الخراف والأبقار بنسبة عاليـة. كانت الجثث تتجمد ويصعـب سحبها من بين ملاءات السريـر. لم يكن أمراً غير معتاد مشاهـدة قطيع كامل من الخنازير وقد

تجمـد حتى الموت على الطريق. كانت الحقول مليئة بالرعاة والحرّاث والأحصنـة وصبية صغار يعملون على إخافـة الطيور وقد تجمدوا في التـو واللحظـة، ويد أحدهم علـى أنفه وآخر والزجاجـة مرفوعة إلى شفتيه وثالث وقـد رفع حجراً ليرمي به غراباً كانت يجثم وكأنه محنّط فـوق السياج على بعد ياردة واحدة منـه. كانت شدة الصقيع عظيمة الاستثنـاء حتى لقد حلّ نوع من التحجّر بالكائنات. وكان من الشائع الافتراض بأن الزيادة الكبـيرة في الصخور في بعض أنحاء "ديربيشر" لا يعـود إلى أي حمـم بركانية فلـم تكن هذه موجـودة هناك، بل إلى تصلّـب أجساد عابري السبيل الذيـن تحولوا بالفعل إلى حجارة حيث كانـوا يقفون. مـا كان للكنيسـة أن تقدم سوى القليـل من العون في هـذه المسألة، ورغم أن يعض مـلاّك الأراضي طلبوا تبريك هذه الآثار المقدسة، إلا أن الجزء الأكبر منهـم فضلوا استخدامها إما كعلامة على الحدود أو أعمدة تحك عليهـا الخراف فراءها، أو كحوض تشرب منه البقر إن كان شكله يسمح بذلك؛ وما تزال معظم هذه الحجارة تخدم هذه الأغراض نفسها إلى يومنا هذا على نحو مثير للإعجاب.

ولكن بينمـا عانى سكان الريف من فرط العـوز، وكسدت تجارة الريـف تماماً، إلا أن لندن تمتعت بكرنفال في غاية الروعة. كان البلاط في غرينيتشـ، واغتنـم الملك الجديـد الفرصة التي أتاحهـا له تويجه وذلك لكسب رضا المواطنين. وقد أمر بأن يُنظف ويزيّن النهر، الذي كان متجمداً حتى عمق عشرين قدماً أو تزيد، على امتداد ستة أو سبعة أميال على شاطئيه، وأن يمنح صفة المستراد أو المتنزه العام مع تعريشات ومتاهات وأماكـن للتمشّي وأكشاك للشرب، إلخ... وذلك كله على نفقته الخاصة. ومـن أجل شخصه وأعضاء البلاط فقد خصصت بقعة معينـة مقابل بوابات القصر الملكي مباشـرة؛ كانت يفصلها عن عموم

المواطنين بجود حبل حريري، فأصبحت على الفور مركزاً لألمع شخصيات المجتمع في إنكلترا. كان رجال الدولة الكبار، بلحاهم وأطواق رقابهم المكشكشة، يديرون شؤون الدولة تحت الظلة القرمزية للخيمة الملكية. كان الجنود يخططون لغزو "المغرب" وسقوط الأتراك تحت تعريشات مقلّمة تعلوها علامات الشرف المصنوعة من ريش النعام. كان أمراء البحر يتمشون جيئة وذهاباً عبر الممرات الضيقة وبأيديهم الأقداح، وهم يكتسحون الأفق بأعينهم ويروون حكايات الممر الشمالي الغربي والأرمادا الإسبانية. كان العشاق يتوانون فوق أرائك مغطاة بأقمشة سوداء، وكانت الأزهار المتجمدة تتساقط كوابل المطر حين كانت الملكة ووصيفاتها يتمشين في الخارج. كما راحت بالونات ملونة تحلق دون حراك في الجو. هنا وهناك كانت تتوهج نيران المشعلات من خشب الأرز والسنديان وقد أشبعت بالملح حتى يكون لهبها باللون الأخضر والبرتقالي والأرجواني. ولكن مهما كان اختراقها شديداً، فإن الحرارة لم تكن كافية لصهر الجليد الذي، رغم شفافيته الفريدة، إلا أنه كان بقساوة الفولاذ. كان صافياً جداً إلى حدّ أنك كنت تستطيع أن ترى تحت عمق عدة أقدام دلفيناً هنا أو سمكة موسى وقد تجمدا. هاهو قطيع من الأنقليس يقبع دون حراك في حالة غشية، ولكن سواء كانت حالتهم هي الموت أو مجرد حياة معلّقة سيعيد الدفء تحريرها، فكانت مسألة حيّرت الفلاسفة. قرب جسر لندن حيث تجمد النهر إلى عمق حوالي عشرين قامة، كان زورق خفيف محطم مرئياً بوضوح، وقد قبع فوق حوض النهر حيث غرق في الخريف الماضي وقد حُمّل فوق طاقته بالتفاح. كانت صاحبة الزورق العجوز التي كانت تحمل تفاحها إلى السوق على شاطئ "ساري"، تجلس هناك بجدائل شعرها وقوس تنورتها وحضنها مليء بالتفاح، وتبدو تماماً وكأنها على وشك أن تبيع زبوناً من تفاحها، رغم أن

ازرقاقـاً عند الشفتين كان يشي بالحقيقة. وكان ذلك مشهداً راق جداً للملـك جيمس وكان يحضر مجموعة من أعضــاء البلاط ليحدقوا إليه معـاً. باختصار لم يكن هناك شيء يمكنه أن يفوق روعة ومرح المشهد نهاراً. ولكن كان الكرنفـال في أكثر حالاته مرحاً في الليل. فالصقيع ما يزال كما هو. كانت الليالي ساكنة تماماً. وقد راح القمر يتألق بثبات أشبـه بثبات الألماس وكذلك النجوم؛ ويرقص أعضاء البلاط على وقع موسيقى الفلوت والبوق.

لم يكـن أورلنـدو، وهـذا صحيـح، واحـداً مـن أولئـك الذيـن يشاركون بخفـة في رقصتي الكورانتو واللافولتـا؛ فقد كانت تعوزه الرشاقـة ويشكـو من شـرود الذهن قليـلاً. كان يفضـل إلى حد كبير الرقصـات البسيطة لوطنـه والتي مارس الرقص بهـا وهو طفل، على تلـك الرقصات الأجنبيـة الخيالية. كان قد توقـف بالفعل عن الرقص حـوالي الساعـة السادسة مـن مساء السابـع من كانون الثـاني (يناير) عنـد نهاية رقصـة الكودريل أو المينويت حين أبصـر شخصاً قادماً من فسطاط السفارة الموسكوفية. لم يكن قادراً على تمييز ما إذا كان رجلاً أم امرأة، فالسـترة الروسية الفضفاضة والبنطال حسب الزي الروسي كانـا يخفيان جنس مـن يرتديهما، مما أثار فضولـه إلى حد كبير. كان ذلـك الشخص، مهما يكن اسمـه أو جنسه، ذا قامة متوسطة الطول، رشيق الجسم، ويرتدي ثيابـاً مخملية بلون أصداف البحر ومزينة بفرو ذي لون مخضر غير مألوف. ولكن هذه التفاصيل كانت مخفية بالإغواء الاستثنائـي الـذي كان ينبعث من ذلك الشخص كلـه. راحت صور واستعارات شديدة التطرف والإسراف تدور وتلتف في ذهنه. أسماها بطيخـة وأناناسة وشجرة زيتون وزمردة وثعلب في الثلج خلال ثلاث ثـوان. لم يكن يعرف إن كان قد سبق أن سمعها، أو تذوقها، أو رآها،

أو الثلاثة كلها معاً. (فعلى الرغم من أنه ليس علينا أن نتوقف ولو لبرهة في سيـاق الحكاية، إلا أنه يمكننا وبسرعـة أن نلاحظ أن جميع صوره في هذا الوقت كانت بسيطة إلى آخر حد بالمقارنة مع إحساساته، وقد أُخذت تلـك الصور من أشياء كان قد أحـب مذاقها وهو صبي بعد. ولكن لو كانت إحساساته بسيطة إلا أنها في الوقت نفسه قوية إلى حد كبير. لذلك فإن التوقف والسعـي إلى معرفة السبب في الأمور مسألة مستحيلـة) ... بطيخة، زمردة، ثعلب في الثلـج: هكذا راح يهذي، وهكـذا راح يحدق. وحين انزلق الغـلام (ويا للأسى لابد وأن يكون هذا غلاماً، فليست هناك امرأة يمكنها أن تتزلج بتلك السرعة والحيوية) مـاراً به على رؤوس أصابع قدميه تقريبـاً، كان أورلندو مستعداً لنتف شعره من الغيظ لأن الشخص كان من جنسه نفسه، وهكذا فإن جميع أنواع المعانقات كانت مستحيلة. ولكن المتزلج عاد ليقترب منه أكثر. الساقـان واليدان والمشية كانت تخص غلاماً، ولكن لا يمكن لغلام أن يكـون له فم كـذاك، ولا يمكن لغلام أن يكون لـه مثل هذين الثديين، ولا يمكـن لغلام أن تكون له عينـان بدتا وكأنهما اصطيدتا من أعماق البحار. وأخـيراً، توقف وانحنى باحترام وبـكل رشاقة للملك الذي كان يجر قدميه ممسكاً بذراع لورد من الحاشية. توقف المتزلج المجهول تماماً. لم يكن بعيداً عنه أكثر من عرض يد واحدة. كانت امرأة. حدق أورلندو إليها؛ ارتجف؛ شعـر بالحرارة تغزو جسده؛ أصابه البرد؛ تاق إلى أن يرمـي بنفسه عـبر هواء الصيف؛ أن يسحـق جوز البلوط تحت قدميـه؛ أن يقذف بذراعيه أشجار الزان والسنديان. وكما جرى، فقد زمّ شفتيـه فبرزت أسنانه البيضاء الصغـيرة. ربما فتحهما مسافة نصف بوصـة كأنما ليعضّ، ثـم أغلقهما وكأنه قد عضّ فعـلاً. كانت الليدي يوفروسين تتعلق بذراعه.

لقد وجد أن اسم الغريبة هو "الأميرة ماروشا ستانيلوفسكا دغمار ناتاشا إليانا رومانوفيتش"، وقد وصلت ضمن حاشية السفير الموسكوفي الذي كان عمها على الأرجح، أو ربما والدها، وذلك لحضور حفل التتويج. لم يكن يُعرف سوى القليل عن الموسكوفيين. فبلحاهم الضخمة وقبعاتهم الفرو كانوا يجلسون صامتين؛ يشربون سائلاً أسود ما، كانوا يبصقونه بين الحين والآخر فوق الجليد. لم يكن بينهم من يتكلم الإنكليزية، بينما كانت الفرنسية، المألوفة لدى بعضهم على الأقل، لا تُستخدم إلا قليلاً في البلاط الإنكليزي.

عبر هذه الحادثة أصبح أورلندو والأميرة على تعارف. كانا جالسين الواحد مقابل الآخر إلى المائدة الضخمة التي وضعت تحت ظلة ضخمة لتكريم الضيوف البارزين. كانت الأميرة جالسة بين لوردين شابين، أحدهما هو اللورد فرنسيس ڤير والآخر إيرل أوف موراي الشاب. كان من المضحك مشاهدة الحرج الذي أصابتهما به، فرغم أنهما كانا كلاهما شابين لطيفين فلم يكونا يعرفان من الفرنسية أكثر مما يعرفها طفل لم يولد بعد. وحين التفتت الأميرة في بداية وجبة الغداء نحو الإيرل وقالت بلباقة سلبت قلبه بالفرنسية: "أعتقد أني تعرفت على جنتلمان من أقربائك في بولونيا في الصيف الماضي" أو "جمال سيدات البلاط الإنكليزي يفتنني. ولا يمكن مشاهدة سيدة أكثر رشاقة من ملكتكم، ولا تسريحة شعر أجمل من تسريحتها." بدا على اللورد فرنسيس والإيرل أكبر الحرج. قام أحدهما بتقديم صلصة فجل الخيل (خردل الألمان) لها، وصفّر الآخر لكلبه وجعله يتوسل عظمة فيها مخ. أمام هذا لم تستطع الأميرة كبح ضحكتها، وضحك أورلندو أيضاً، الذي التقت عيناه بعينيها فوق رؤوس الخنازير المشوية والطواويس المحشوة. ضحك، ولكن الضحكة على شفتيه تجمدت

في تغجب. من سبق له وأحب؟ ما الذي أحبه؟ هكذا سأل نفسه في بلبلة من الانفعالات. لقد أحب امرأة عجوزاً من جلد وعظام؟ مومسات ذوات خدود حمر أكثر عدداً من أن يُحصى عددهن؟ راهبة متشكية؟ مغامِرة جموح ذات لسان قاس لا يرحم؟ كتلة نواسة من المخرمات والتشريفات؟ لم يعنِ له الحب شيئاً سوى نشارة الخشب والرماد. المتع التي نالها حتى الآن بدت تافهة إلى أقصى حد. تعجب كيف أنه مرّ بتجربتها دون أن يتثاءب. فبينما كان ينظر كانت سماكة دمه تذوب؛ تحول الجليد إلى نبيذ في عروقه. سمع المياه تتدفق والطيور تغنّي والربيع يتفجر فوق المنظر الطبيعي الشتائي. استيقظت رجولته. أمسك سيفاً بيده وهاجم عدواً أكثر جرأة من البولندي أو المغربي. غطس في مياه عميقة. شاهد زهرة الخطر تنمو في صدع. مدّ يده- في الواقع كان يردد في نفسه واحدة من أكثر سونتاته عاطفة مشبوبة حين خاطبته الأميرة قائلة: "هل لك أن تتفضل وتمرر لي الملح؟"

توردت وجنتاه بعمق

أجاب وهو ينطق بالفرنسية بلهجة لا تخلو من الكمال: "بكل السرور الذي في العالم يا سيدتي." فالحمد للسماوات أنه كان ينطق بتلك اللغة وكأنه من أهلها. كانت خادمة أمه قد علمته إياها. ولكن ربما كان من الأفضل له لو أنه لم يتعلم قط هذه اللغة و لم يجب على ذلك الصوت و لم يتّبع نور تينك العينين...

تابعت الأميرة الكلام. سألته من هما هذان الثقيلان الجالسان إلى القرب منها ويتمتعان بسلوك عمال الإسطبلات؟ وما هو ذلك المزيج الذي يسبب الإقياء الذي صباه على طبقها؟ هل يأكل الكلاب على المائدة نفسها التي للبشر في إنكلترا؟ هل كانت تلك الشخصية

المضحكة في نهاية المائدة وقد رفعت شعرها مثل عمود أيار (مايو) هي الملكة حقاً؟ وهل يسيل لعاب الملك على الدوام بهذا الشكل؟ ومن هو بين أولئك المتأنقين المتباهين هو "جورج ڤيليرز؟" ورغم أن هذه الأسئلة أقلقت أورلندو في البداية، إلا أنها طُرحت بمكر وهزل جعلاه لا يستطيع مغالبة الضحك. وحين أدرك من الوجوه الجوفاء للرفقة أنه لم يفهم أحد ولو كلمة واحدة، فقد أجابها بحرية وهي تسأله، متحدثاً بلغة فرنسية لا يعوزها الكمال.

وهكذا بدأ نوع من الحميمية بين هذين الشخصين سرعان ما تحولت إلى فضيحة في البلاط.

سرعان ما لوحظ أن أورلندو كان يبذل للموسكوڤية من الاهتمام أكثر بكثير ممّا تتطلبه الكياسة المجردة. نادراً ما كان يفارقها، وكانت محادثاتهما، رغم كونها غير مفهومة لبقية الحاضرين، والتي تتميز بكل تلك الحيوية، وتثير تلك التوردات في الوجنات وتلك الضحكات، تجعل أغبى الحاضرين يحزر موضوعها. وعدا ذلك، كان التغيير الذي طرأ على أورلندو نفسه استثنائياً. لم يسبق أن رآه أحد مفعماً بكل تلك الحيوية. فخلال ليلة واحدة رمى بعيداً بخرقه الصبياني وتحول من غلام مراهق مقطب الجبين ما كان قادراً على دخول غرفة للسيدات دون أن يوقع نصف الزينة من على الطاولة، إلى رجل نبيل مترع باللطف. فأن تراه وهو يمسك بيد الموسكوڤية (كما كانت تُسمى) حتى تركب مزلجتها، أو وهو يمدّ يده إليها عارضاً عليها الرقص، أو وهو يلتقط منديلها المنقّط الذي تركته يسقط من يدها، أو حين يؤدي أياً من تلك الواجبات المتعددة التي تأمر بها السيدة السامية، فيسرع العاشق إلى تلبيتها على الفور، كل ذلك كان يؤلف منظراً يجعل عيون العجائز تتوقد ويسرّع من نبض قلوب الشبان. ولكن

كانـت هناك غيمـة تخيم على هذا كله. هزّ الرجـال العجائز أكتافهم في لامبالاة. ضحك الشبان ضحكاً مكبوتاً من خلف أصابعهم. كان الجميـع يعـرف أن أورلنـدو كان خطيب فتاة أخـرى. كانت الليدي مارغريت أوبريان أوديز أورايلي تيركونل (هكذا كان الاسم الصحيح ليوفروسين التي نظم السونيتات لها) تلبس خاتم أورلندو من الياقوت الأزرق علـى الأصبع الثاني من يدها اليسرى. كانت هي صاحبة الحق السامـي برعايتـه. ومع ذلك فقد تُسقط كل المناديـل التي في خزانتها (وهي تملك منها العشرات العديـدة) فوق الجليد ولن ينحني أورلندو قط ليلتقطها. ربما كانت ستنتظره عشرين دقيقة حتى يمد يده ليساعدها علـى ركوب المزلجـة، وفي النهايـة سيكون عليهـا أن تقنع بخدمات بلاكمـور (خادمهـا). حين كانت تتزلـج، وكانت تفعـل ذلك دون براعـة، لم يكن هنـاك أحد إلى القـرب منها ليشجعهـا، ولو سقطت ، وكانـت تسقـط بثقل بالأحـرى، لم يكن هناك مـن يساعدها على النهوضـ على قدميها وينفض الثلج عن تنورتها. وعلى الرغم من أنها كانـت لامبالية بطبيعتها، ولا تغضب بسرعـة، وأكثر تردداً من معظم الناسـ على أن تصدق أن مجرد فتاة أجنبية تستطيع أن تمنع أورلندو عن محبتهـا، إلا أنها اضطرت أخيراً إلى الشـك في أن شيئاً ما كان يحدث ويقلق راحة بالها.

وبالفعـل، مع مرور الوقـت، راح أورلندو يـبدي القليل ثم الأقل مـن الاهتمام في إخفاء مشاعره. كان يـترك صحبته ما أن ينهي غداءه مثلاً، متذرعاً بسبـب أو بآخر، أو كان ينسل خفية من المتزلجين الذين كانوا يشكلـون مجموعات لرقصة "الكوادريـل" (التي تتطلب أربعة راقصـين). ولكن ما أثار حنق البلاط ولدغه في أكثر أماكنه حساسية، هو خيلاؤه، إذ أن الشاب والفتاة كانا ينزلقان من تحت الحبل الحريري

الـذي يفصل الحيـز الملكي عن الجـزء العمومي من النهـر، ويختفيان بين جمهـرة العـوام. إذ كانت الأمـيرة تخبط الأرضـ بقدمها فجأة وتصيح: "خذني بعيداً. أمقت رعاعك الإنكليز"، وكانت تعني بذلك البـلاط الإنكليزي نفسه، إذ ما عادت تستطيع احتماله أكثر من ذلك، فقد كان مليئاً بسيدات عجائز يحدقن بفضول، كما قالت، ويتفرسن في الوجـه، وبشبـان معتديـن بأنفسهم يدوسـون على أقـدام الغير؛ وكانت روائحهم نتنة؛ وكلابهم تعـدو بين سيقانهم. كان الأمر أشبه بـأن يكون المرء في قفص. في روسيا لديهـم أنهار بعرض عشرة أميال يستطيـع المرء أن يقـود عربة بستة خيول جنبـاً إلى جنب طوال النهار دون أن يقابـل أحداً. وإضافة إلى ذلـك، كانت تريد أن ترى "البرج" و"البيفيـترز" و"الرؤوس المقطوعة على حاجـز المعبد" ودكاكين بيع الجواهـر في المدينة. وهكذا جرى أن أورلنـدو اصطحبها إلى المدينة، وأراهـا "البيفيترز" ورؤوس المتمردين، واشترى لها كل ما أعجبها في "السوق الملكية". ولكن هذا لم يكن كافياً. كان كل واحد منهما راغباً في صحبة الآخر في عزلة عن الآخرين طوال النهار حيث لا يوجد من يتسـاءل أو يحدق. وبدلاً عـن أن يسلكا طريق لنـدن كانا يتجهان بالتـالي إلى الطريق المعاكسـ له وسرعان ما يكونان قـد تركا وراءهما ذلك الحشد من البشـر وأصبحا بين عاليات نهر التيمز المتجمد حيث لا يعترض طريقهما أحد عدا الطيور البحرية وبعض الريفيات العجائز يحاولـن عبثاً كسر الجليـد لتعبئة دلو ماء أو يجمعـن قضباناً أو أوراق شجـر ميتة لإيقاد النيران. كان الفقراء يبقـون لصيقين بأكواخهم، أما من هم أفضل حالاً، والذين يقدر منهم على ذلك، فكانوا يتجمهرون سعياً للدفء والتسلية في المدينة.

ومـن ثمّ، فإن أورلندو و"ساشـا"، هكذا راح يسميها اختصاراً ،

ولأن هذا كان اسم الثعلب الروسي الأبيض الذي كان لديه وهو صغير (كان مخلوقاً ناعماً كالثلج، ولكن بأسنان كالفولاذ عضه بها بوحشية جعلت والده يأمر بقتل الثعلب)، ومن ثم إذاً صار النهر مأواهما. كان يرميان بنفسيهما في بقعة منعزلة ما، وقد احترّ جسداهما من التزلج والهوى، حيث يحف شجر الصفصاف بضفة النهر؛ فيطوقها أورلندو بذراعيه وهما ملتفان بعباءة ضخمة من الفرو، ويعرف لأول مرة، كما راح يهمهم، متع الحب. ثم، وبعد أن تنقضي النشوة وبينما هما متمددان في حالة من الغشية على الجليد، يروح يحكي لها عن عشيقاته الأخريات، وكيف أنهن بالمقارنة معها، مخلوقات من الخشب والخيش والرماد. وبينما تضحك هي بقوة، كانت تلتف مرة أخرى بين ذراعيه وتمنحه قبلة أخرى لأجل الحب. ثم كانا سيتعجبان من أن الجليد لم يذب من حرارتهما، ويشفقان على المرأة العجوز الفقيرة التي لا تتحلى بوسيلة طبيعية كهذه لإذابته، بل عليها أن تضربه بساطور من الفولاذ القاسي. ثم سيتحدثان، وهما متدثران بما يحجبهما عن كل شيء في هذا الوجود، عن المشاهد والرحلات، عن المغاربة والوثنيين، عن لحية هذا الرجل وبشرة تلك المرأة، عن جرذ أكل طعاماً من يدها على المائدة، عن الستائر المزركشة التي تتحرك باستمرار في البهو في منزلها، عن وجه، عن ريشة. لم يكن هناك ما هو صغير جداً لتجاهله في الحديث كما لم يكن هناك ما هو ضخم جداً.

ثم، سيصاب أورلندو فجأة بواحدة من نوبات الكآبة المعتادة؛ وقد يكون السبب فيها مشهد امرأة عجوز تمشي فوق الجليد وهي تعرج، وقد لا يكون هناك أي سبب. ثم سيرمي بنفسه على الجليد وينظر إلى قلب المياه المتجمدة ويفكر بالموت. فالفيلسوف الذي قال إنه لا شيء أثخن من مجرد حرف السكين يفصل ما بين السعادة والحزن كان

على حق؛ ثم يتابع فيقول إن الشخص توأم الشخص الآخر؛ ويستنتج من هـذا النتيجة التي تفيد بأن كل الحـدود القصوى من الشعور على صلـة بالجنون؛ وبالتالي فهو يأمرنا بأن نلجأ إلى الكنيسة الحقيقية (من وجهة نظـره هي الكنيسة التي تقول بعدم عمـاد الأطفال بل البالغين فحسب)، التي هي المرفأ والميناء والمرسى الوحيد، إلخ... للذين، كما قال، قد ألقوا في هذا اليمّ.

كان مـن شأن أورلندو أن يقـول: "كل شيء ينتهي بالموت"، وهو جالس بانتصاب ووجهه قـد غلّلته الكآبة. (فبهذه الطريقة كان ذهنه يعمل الآن، وذلك مثل حركة أرجوحات عنيفة ما بين الحياة والموت، دون توقـف عند أي شـيء ما بينهما؛ حتى أنه علـى كاتب السيرة ألا يتوقـف أيضاً، بل عليه الطيران بأسـرع ما يستطيع حتى يدرك الأفعال الحمقاء الغاضبة الرعناء والعبارات المتطرفة التي كان أورلندو في تلك المرحلة من حياته يتلفظ بها، وهو أمر يستحيل إنكاره).

كان من شأن أورلنـدو أن يقول: "كل شيء ينتهي بالموت"، وهو جالـس بانتصاب أمام الجليـد. ولكن ساشا التـي لم يكن في عروقها دم إنكليـزي- بل كانـت من روسيا حيث غـروب الشمس يستغرق وقتاً أطول، ويحل الفجـر على نحو أقل فجائية، وتُترك الجُمل ناقصة للشـك في كيفيـة إنهائها- راحت تحدق إليه، وربمـا في سخرية، فقد كان يبـدو بالتأكيد كطفل في عينيها، وذلـك دون أن تقول أي شيء. ولكنهمـا بدآ يشعران بأن الجليد قد أصبح بارداً تحتهما، و لم تكن هي تحـب ذلك، لذا كانت تجذبه لينهض على قدميه، وتروح تحدثه بلهجة شديدة الفتنـة والظرف والحكمة (ولكن لسوء الحظ بالفرنسية دائماً، مما كان يفقدها نكهتها إلى حد هائل لو تُرجمت)، حتى أنه كان ينسى الميـاه المتجمـدة أو أن الليل قد اقـترب أو أن المرأة العجـوز أو أي أمر

آخـر، فيحـاول أن يقول لها- وهو يغطس ويتخبـط في آلاف الصور التي فقدت طزاجتها شأن النساء اللواتي ألهمنه بها- كيف يراها. هل هـي كالثلج أو الكريمة أو الرخام أو الكرز أو حجر الألبستر أو أسلاك الذهـب؟ لا، ليست كأي واحدة منها. كانـت أشبه بثعلب أو شجرة زيتـون؛ أو كأمواج البحر حين تنظـر إليها من مكان مرتفع؛ هي أشبه بزمـردة، بالشمس على جبل أخضر ما زال الضبـاب يلفّه... لا تشبه أي شـيء رآه أو عرفه في إنكلترا. مهما فتّش في اللغة كانت الكلمات تخونه. أراد منظراً طبيعياً آخر ولغة أخرى، فالإنكليزية كانت صريحة ونزيهـة ومعسولة إلى حـد كبير بالنسبة إلى ساشـا. ففي كل ما كانت ساشـا تقوله ومهما بدت صريحة به ومهيجة للحواس، فقد كان هناك شـيء مخفـيّ؛ وفي كل ما تفعلـه، مهما كان جريئـاً، كان هناك ما هو محجوب. لذا فـإن اللهب الأخضر يبدو مخفيـاً في الزمردة أو الشمس وهـي سجينـة في جبل. كان الوضـوح من الخارج فحسـب، أما في الداخـل فلهب متجوّل. كان اللهب يأتـي ويذهب؛ لم تكن هي تشعّ بالإشراقـة المتواصلة لامرأة إنكليزية. وهنا على أي حال، فإن أورلندو إذ يتذكر الليدي مارغريـت وتنانيرها، يجن جنونه من النشوة فيروح يدفـع ساشا عبر الجليد بقوة وعلى نحو أسرع فأسرع، وهو يقسم على أنـه سيطارد اللهب ويغطس للوصـول إلى الجوهرة، وهكذا دواليك؛ فالكلمـات كانـت تأتي مع لهاث تنفسـه وانفعال شاعـر كان شعره يُضغط نصفه خارجاً منه بالألم.

ولكن ساشا كانـت صامتة. حين ينتهي أورلندو من إخبارها بأنها ثعلـب وشجرة زيتون أو قمة جبـل أخضر، وبعد أن يروي لها التاريخ الكامـل لأسرتـه، وكيف كانت واحـدة من أقدم الأسـر في بريطانيا؛ وكيـف وصل أجداده من روما مع القياصرة وكان لهم الحق في السير

عبر شارع كورسو (الشارع الرئيسي في روما) تحت محفة مزركشة؛ وإن هذا كان امتيازاً مخصصاً لأعضاء الأسرة الإمبراطورية (فقد كانت فيه براءة حماسية تثير السرور فعلاً)؛ ثم كان يتوقف ليسألها "أين كان بيت أسرتها؟ ومن هو أبوها؟ هل لها إخوة؟ هل هي هنا وحدها مع عمها؟ ثم رغم أنها كانت تجيبه بسرعة، إلا أن حرجاً ما كان يستقر بينهما. كان يشك في البداية في أن منزلتها لم تكن سامية بقدر ما كانت هي تحبّ، أو أنها كانت تخجل من الأساليب الهمجية لشعبها، فقد كان قد سمع أن النساء في موسكوفي يربّين اللحى على وجوههن وأن الرجال يسترون بالفراء من الخصر إلى ما دون ذلك؛ وأن النساء والرجال يُلطخون بالشحم الحيواني خشية البرد. كما سمع أنهم يمزقون اللحم بأصابعهم ويعيشون في أكواخ كان من شأن النبيل الإنكليزي أن يتردد أن يبقي بقراته فيها. لذلك كان يتجنب الضغط عليها. ولكنه عندما فكر في الأمر استنتج أن صمته لا يمكن أن يكون لذلك السبب. كانت هي نفسها دون لحية وكانت ترتدي الثياب المخملية واللآلئ، وكان سلوكها بكل تأكيد لا يدل على أنه لامرأة نشأت في حظيرة بقر.

ما الذي كانت تخفيه عنه إذاً؟ فالشك الكامن تحت القوة الهائلة لمشاعره كان أشبه بالوعث (الرمل اللين المتحرك) تحت نصب تذكاري يتحرك فجأة ويجعل الدعامات كلها تهتز. كان الألم يعتصره فجأة. ثم كان ينفجر في غضب هائل إلى حد أنها لم تكن تعرف كيف تهدئه. ربما لم تكن تريد أن تهدئه؛ وربما كانت نوبات غضبه تسرها وكانت هي من يثيرها عن عمد: هكذا كان هذا الشذوذ العجيب في المزاج الموسكوفي.

هيا بنا نستأنف قص الحكاية: توغلا في ذلك اليوم أكثر من المعتاد

فوصلا إلى ذلك الجزء من النهر حيث رست بعض السفن وتجمدت ضمن مياه النهر. ومن بينها كانت سفينة السفارة الموسكوفية التي ترفع العلم الذي رسم عليه النسر الأسود ثنائي الرأس على ساريتها الرئيسية، وكانت تتدلى منه الكثير من قطع الجليد المتجمدة ذات الألوان المتعددة بطول عدة ياردات. كانت ساشا قد تركت بعض ملابسها على متن السفينة، وقد افترضا أن السفينة فارغة، فتسلقا إلى متنها ومضيا للبحث عن الملابس. مستذكراً بعض المقاطع في ماضيه، ما كان أورلندو ليستغرب لو أن بعض المواطنين الطيبين قد التمسوا ملجأ هنا قبلهما. وهذا ما جرى فعلاً: لم يكونا قد توغلا كثيراً في السفينة حتى قام شاب مرهف بالتوقف عن عمل كان يؤديه وراء لفة من الحبال وقال بالروسية إنه عضو في طاقم السفينة وسوف يساعد الأميرة لتجد ما تريده، ثم أشعل قطعة من شمعة واختفى معها في الأجزاء السفلية من السفينة.

مضى الوقت وأورلندو وقد التفّ في أحلامه الخاصة، ما كان يفكر إلا بمتع الحياة، بجوهرته، بندرتها، بالوسائل التي ستجعلها ملكاً له نهائياً وعلى نحو لا فكاك منه. كانت هناك عوائق ومصاعب يتوجب التغلب عليها. كانت مصممة على العيش في روسيا، حيث الأنهار والجياد البرية والرجال الجامحون، كما قالت، والذين كانوا يذبح واحدهم الآخر. صحيح أنه لم تكن تغويه المناظر الطبيعية لأشجار الصنوبر والثلج، وتقاليد الشهوة والذبح. كما لم يكن تواقاً إلى هجر أساليب بلده المبهجة من ممارسة الرياضة وزرع الأشجار؛ ولا كان مستعداً للتخلي عن منصبه ولا أن يفسد نجاحه المهني وأن يصطاد الرنّة بدلاً عن الأرانب، وأن يشرب الفودكا بدلاً عن النبيذ، وأن يدس خنجراً في كمّه دون أن يعرف ما الغرض من ذلك. ومع

ذلـك، كان مستعداً أن يفعل ذلك كله وزيادة عليـه من أجلها. أما ما يخصـ زواجه من الليـدي مارغريت الذي كان موعـده قد تحدد في مثـل هذا اليـوم بعد أسبـوع، فالغريب في الأمر أنـه لم يكن يفكر في هـذه المسألة أبداً. سيشتمه أقرباؤها لهجـره سيدة عظيمة مثلها؛ كما سيسخر منه أصدقاؤه لتخليه عن منصب عظيم في هذا العالم من أجل فتـاة قوزاقية وبرية ثلجية... لم يكن ذلك ليزن قشة في الميزان بالمقارنة مـع ساشا نفسها. فهما سيطيران في أول ليلـة مظلمة. سيبحران على سفينة إلى روسيا. هكذا كان يفكر. هكذا كان يخطط وهو يذرع متن السفينة جيئة وذهاباً.

عـاد إلى تذكر أيـن كان، وهو يلتفت ناحية الغـرب، وذلك بمنظر الشمـس التـي كانت معلقـة كبرتقالة فـوق صليب كنيسـة القديس بولصـ. كان المساء قد حلّ وساشا غائبة منـذ ساعة أو تزيد. استولت عليـه فوراً تلـك الشكوك المظلمة التي أغمت حتـى أكثر أفكاره ثقة، فشـق طريقه حيـث رآهما يدخـلان إلى عنبر السفينة. وبعـد أن تعثر بصناديـق وبراميـل في العتمة، فقد أدرك بفضل نـور باهت في زاوية أنهمـا كانا جالسين هنـاك. لثانية واحدة كان قد رآهمـا: رأى ساشا جالسـة علـى ركبة البحار، رآها تميـل نحوه، رآهمـا يتعانقان قبل أن يختفـي النـور في غيمة حمراء مـن شدة غضبه. عوى مـن الألم بقوة حتـى رددت السفينة كلها صدى عوائه. رمـت ساشا بنفسها بينهما وإلا لكان البحار قد اختنق قبل أن يتمكن من سحب سيفه المقوس. ثم حلّ بأورلندو دوار فاضطـرا إلى تمديده على الأرض وجعلاه يحتسي البراندي قبل أن ينتعش مجدداً. ومن ثم، وبعد أن استرد وعيه، وأُجلس فوق كومة من الأكياس على متن السفينة، راحت ساشا تحوم من حوله وتمـر عبر عينيه الدائختين برقـة، بتلوٍّ، شأن الثعلـب الذي عضه ذات

مــرة؛ وراحت تتملقه ثم تعاتبه، حتى بدأ يشــكّ فيما كان قد رآه. ألم تنـزف الشمعــة؟ ألم تتحرك الظلال؟ قالــت إن الصندوق ثقيل وكان الرجــل يساعدها على تحريكه. صدقهــا أورلندو لبرهة: فمن يستطيع أن يتأكــد من أن غضبه لم يصوّر له مــا كان يخشى أشد الخشية من أن يــراه؟ وتكون اللحظة التالية أكــثر عنفاً من غضبه على خداعها له. ثم شحــب وجه ساشا وضربت متن السفينــة بقدمها وقالت إنها سترحل في تلك الليلة بالــذات، وتوسلت إلى آلهتها أن تدمرها لو كانت هي، سليلة آل رومانوفيتش، قد استسلمت لذراعي بحّار وضيع. وبالفعل، عندمــا نظر إليهما معاً، (ما كان أورلندو قــادراً على إجبار نفسه على فعــل ذلك)، فقد غضــب أورلندو من شناعة مخيلتــه التي قدرت على تصويــر مخلوق بهذه الرقة بين مخالب ذلك البحّــار الفظّ الأشعر. كان الرجل ضخم الجثة ويبلغ طوله حوالي ستة أقدام وأربع بوصات (١٩٣ سم) وهــو واقف في جواربه، وكان يضع حلقــاً عادياً من السلك في أذنيــه، وبدا كحصان جــرّ جثمت فوقه خلال طيرانهــا نمنمة أو طائر أبــو الحنّاء. وهكــذا أذعن وصدقهــا وطلب العفو منهــا. ومع ذلك، فحــين كانا يهبطان من السفينة، وقد عــادا حبيبين من جديد، توقفت ساشــا ويدها علــى السلّم، نــادت على وحشها الأسمــر ذا الوجنتين العريضتين، مخاطبة إياه بوابل من عبارات التحية والدعابة أو التحبّب، وهي كلمات لم يفهــم منها أورلندو ولو كلمة واحدة. ولكن كان في لهجتهــا شيء ما (ربما يعود السبــب إلى خطأ ما في الأحرف الساكنة الروسية) ذكّــر أورلندو بمشهد جرى قبل بضع ليال، حين فاجأها سراً وهــي تنهش عقب شمعة في زاوية مــن الزوايا، كانت قد التقطتها من على الأرضية. صحيح أنها كانت قرنفلية اللون، إلا أنها كانت مذهّبة ومــن مائدة الملك. إلا أنها كانت من الشحــم الحيواني ومع ذلك فقد كانت تنهشها. ألم يكــن هناك، كما فكّر، وهو يمسك بها لتهبط على

الجليـد، شيء زنخ فيها، شـيء ذو نكهة فظة، شيء يـدل على أصول فلّاحية؟ ثم تخيلها وهي في سن الأربعين وقد أصبحت بدينة رغم أنها نحيلـة الآن مثل قضبة، وكسولة رغـم أنها الآن نشطة ومرحة كقبّرة. ولكــن من جديد، وبينما راحا يتزلجان نحو لندن، زالت الشكوك من صــدره، وشعر وكأنه كان قد اصطيد بخطـاف من خيشومه من قبل سمكة ضخمة وهاهو يندفع عبر الماء مكرهاً، ولكن بموافقته.

كان مســاء ذا جمال مدهش. ومع غروب الشمس، برزت جميع قبــب لندن وأبراجها المستدقة وبُريجاتهـا وقممها في اسوداد مدادي أمام غيـوم الغروب الحمـراء الغاضبة. هنا كان الصليـب المتآكل عند تشارينغ، وهنـاك قبة كنيسة القديس بولـص، وكذلك المربع الضخم لأبنيــة برج لندن، وهناك أيضاً تبدو رؤوس الرماح في "حاجز المعبد" فــوق الأعمدة وكأنها بستان عريت أشجـاره من كل أوراقها باستثناء عقــدة في نهايتها. والآن هاهي نوافـذ "الدير" وقد اشتعلت وراحت تحـترق كترس سماوي متعـدد الألوان (كما في خيــال أورلندو). بدا الغـرب كله الآن وكأنه نافذة ذهبية ذات جنـود من الملائكة (كما في خيــال أورلندو أيضاً) وهـم يصعدون ويهبطـون السلالم السماوية إلى الأبد. خلال هـذا الوقت كله، كانا يتزلجان فـوق أعماق سحيقة من الهــواء. أصبح الجليد شديـد الزرقة وبلورياً صقيلاً حتـى أنهما راحا يسرعان أكثر فأكثر نحو المدينة بينما النوارس البيضاء تحوم من حولهما وهي تشق الهواء بأجنحتها بالسرعة نفسها التي كانا يشقان بها الجليد بمزلجتيهما.

كانــت ساشا أرقّ من المعتاد وأكثر إبهاجاً، كأنما لتبث الطمأنينة في قلبــه. نادراً ما تحدثت عن حياتها السابقة، ولكن هاهي الآن تحكي له كيــف أنها في الشتاء في روسيا كانت تصغــي إلى الذئاب وهي تعوي

عــبر السهوب، وعوت كذئب ثلاث مرات لتسمعه كيف يكون ذلك العــواء. عندها حكى لها عن الأيائــل الذكور في وطنه، وكيف تسرح فتدخل البهو العظيم ملتمسة الدفء فيطعمها رجل عجوز العصيدة من دلو. ثم مدحتْه، أثنت على حبه للحيوانات وشهامته وساقيه. وإذ فُتن بمديحها، ولخجله من التفكير في أنه أساء إلى سمعتها إذ تخيلها جالسة على ركبتي بحار وضيع وقد أضحت بدينة وكسولة في سن الأربعين، فقد قــال لها إنه لا يقدر على إيجاد التعبــير الملائم لمدحها؛ ومع ذلك فقــد فكر كم أنها تشبــه الربيع والعشب الأخضــر والمياه في حفيفها؛ فأمســك بها بقوة أكبر ممــا حدث في أي وقت مضــى وأرجحها عبر نصــف عرض النهر حتى أن النوارس وطيــور الغاق تأرجحت أيضاً. وحين توقفا أخــيراً، وهما يلهثان، قالت إنه أشبــه بشجرة عيد الميلاد ذات المليــون شمعة (كالتي لديهم في روسيــا) وقد علّقت فيها كرات صفــراء؛ وهي متوهجة حتى يكفي نورها شارعاً بأكمله (هكذا يمكن للمرء أن يترجم هذه العبارة)؛ فهو بوجنتيه المتوقدتين وخصله المجعدة الداكنــة اللون وعباءته السوداء والقرمزيــة، يبدو كأنه يشتعل من شدة تألقه، من مصباح في داخله.

سرعان ما بهتت جميــع الألوان عدا أحمر وجنتي أورلندو. دجى الليل. وحــين اختفى اللون البرتقالي لغــروب الشمس، فقد تبع ذلك وهج أبيض مدهش من المشاعل والنيران الكبّارة والمشعلات المتوهجة والحيل الأخــرى التي كان النهار يُضاء بها وحــلّ أغرب تحوّل. بدت كنائس وقصور عديدة للنبلاء ذات واجهات من الحجر الأبيض مقلّمة ومبقّعة كأنها تعوم في الهواء. ومن كنيسة القديس بولص لم يكن يظهر ســوى صليب ذهبي. بدا "الدير" وكأنه هيــكل رمادي لورقة شجر. عانى كل شيء من الهــزال والتحوّل. وحين اقتربا من موقع الكرنفال سمعــا لحناً عميقاً كمثل ذاك الذي يصدر عن الشوكة الرنانة أخذ يعلو

ويعلو حتى تحول إلى ضوضاء. بين الحين والآخر كان صراخ عظيم يتبع سهماً نارياً يطلق في الجو. ثم بدأ تدريجياً بتمييز أشكال صغيرة الحجم تغادر الجمهرة الكبيرة وتدوّم هنا وهناك كما يفعل البعوض فوق سطح نهـر. فوق هذه الدائرة اللامعة و ومن حولها راح السواد العميق لليل الشتـاء يضغـط أكثر فأكثر وكأنـه طاس من العتمة. ثـم بدأت تبرز في العتمـة مع توقفات أسهم نارية تتفتـح كالأزهار والأهلة والأفعوانات والتـاج، مما أبقى التوقعات يقظة والأفواه فاغرة. في إحدى اللحظات بدت الغابات والجبال البعيدة خضراء كما في يوم صيفيّ، وفي اللحظة التالية عاد الشتاء والظلام مجدداً.

في ذلك الحـين كان أورلنـدو والأميرة قد اقتربا مـن الحيّز الملكي وشقا طريقهمـا الذي كانت تعترضه جمهرة ضخمة من العوام الذين كانوا يضغطون ليكونوا أقرب ما يكون إلى الحبل الحريري بحسب ما تسمح لهم جرأتهم. ولكرههما نهاية عزلتهما ووجود العيون اللاذعة التـي كانت ترصدهمـا، تلبّث الثنائي هناك، وقـد راح يزاحمهما في المـكان غلمـان ممتهنون وخياطـون وبائعـات أسماك وتجـار خيول وصيـادو أرانب وطـلاب مجوّعون وخادمـات في خمرهنّ وبائعات برتقال وسائسو خيـل ومواطنون غير ثملين وسقاة داعرون وجمهرة مـن أطفال بملابس رثة مثـل أولئك الذين يتلبّثـون بجوار أي تجمهر، وهـم يزعقون ويتدافعون بين أرجل الناس... كل غوغاء شوارع لندن كانـوا هناك حقاً، وهم يتداعبون ويتدافعـون: بعضهم يرمي بالنرد أو يطالـع البخت أو يتدافع أو يدغدغ أو يقرص. هنا أشخاص صاخبون وهنـاك أشخاص كئيبون؛ بعضهـم بأفواه فاغرة بعرض ياردة كاملة (٩١ سـم تقريباً)، وآخـرون موقرون قليلاً مثل غـراب الزيتون فوق سقف منزل. والجميع يرتدي أفضل ما عنده بقدر ما تسمح به حافظة نقوده أو مركزه. هنا ترى الفرو والجوخ، وهناك ترى الأسمال البالية

وأقدام لا يحميها من الجليد سوى خرقة غسل الصحون وقد لفت من حولهـا. كان التجمع الرئيسي للناس، كما بـدا، يقف أمام كشك أو خشبة مسرح يُـؤدى عليها مسرحية لشخصيتي «بنتش» و»جودي». كان رجل أسـود يلوح بذراعيه ويصيح. وكانـت هناك امرأة في زي أبيض متمـددة على سرير. ورغم أن التمثيـل كان بدائياً، فإن الممثلين الذيـن كانوا يصعـدون ويهبطون على زوج مـن الدرجات ويتعثرون أحيانـاً، والجمهور يضـرب الأرض بقدميـه ويصفّـر، أو حين يشعر بالملـل، كان يرمـي بقطعة من قشـرة برتقال على الثلـج كان من شأن كلب أن يهرع ليتشمّمهـا؛ إلا أن اللحن المتموج والمدهش للكلمات أطرب أورلندو مع ذلك كما تفعل الموسيقى. كانت الكلمات المنطوقة بسرعة فائقـة وحيوية جريئة للسان والتي ذكرتـه بالبحارة في حدائق الجعـة في «وبينـغ»، ورغم أنها دون معنى أشبـه بالنبيذ له. ولكن بين الحين والآخر هاهي عبارة واحدة تصل إليه عبر الجليد وتبدو كأنها قد انتُزعـت من أعماق قلبه. كان جنـون «المغربي» يبدو له كجنونه هو، وحـين خنق المغربي المـرأة وهي في السرير، فقد بدا لـه أنه كان يخنق ساشا بيديه حتى الموت.

وأخيراً انتهت المسرحية. عمّ الظلام كل شيء. كانت الدموع التي تذرفها عيناه تغطي وجهه. رفع نظره إلى السماء، ولم يكن هناك شيء سوى السواد أيضاً. يطغى الدمار والموت، هكذا فكر، على كل شيء. تنتهي حياة الإنسان في القبر. تلتهمنا الديدان.

أعتقد أنه كسوف ضخم يجري الآن

للشمس والقمر، وأن الكرة الأرضية الخائفة

يجب أن تتثاءب...

حتى وهو يقول هذه الكلمات كان نجم شاحب قد بزغ في ذاكرته. كان الليل دامساً؛ وكانت العتمة على أشدها؛ ولكنهما كانا ينتظران ليلة كهذه؛ ففي ليلة كهذه كانا يخططان للهروب. تذكر كل شيء. لقد آن الأوان. وبانفجار للعاطفة ضمّ ساشا إليه بقوة وهمس في أذنها بالفرنسية: "يوم حياتي كلها!" كانت تلك الإشارة المتفق عليها بينهما. في منتصف الليل سيلتقيان في نزل قرب "بلاكفرايرز". كانت الجياد ستكون في الانتظار هناك. كان كل شيء جاهز لهروبهما. وهكذا افترقا، هي إلى خيمتها، وهو إلى خيمته. ما زالت هناك ساعة زمانية قبل الموعد المنتظر.

قبل منتصف الليل بساعات طويلة، كان أورلندو ينتظر. كان الليل أسود بلون المداد، حتى أن الشخص كان سيصطدم بك قبل أن تراه، وهذا كله في مصلحتهما. ولكن الهدوء كان شديداً أيضاً حتى أن حوافر حصان واحد أو بكاء طفل يمكن أن يُسمعا من مسافة نصف ميل. في كثير من المرات أمسك أورلندو بقلبه وهو يذرع الباحة الصغيرة لدى سماعه خبب فرس مضطرد فوق الحصى، أو حفيف ثوب امرأة. ولكن المسافر كان تاجراً ما متجهاً إلى بيته متأخراً عن وقته المعتاد، أو امرأة ما من الحيّ لم تكن مهمتها بريئة على الإطلاق. مرّا، وكان الشارع أهدأ من ذي قبل. ثم أن تلك الأنوار التي كانت مضاءة في الطوابق الأرضية من ذلك الحيّ المزدحم الصغير حيث يعيش فقراء المدينة، انتقلت إلى غرف النوم الأعلى، ثم بدأت تنطفئ الواحد بعد الآخر. كانت أنوار الشارع في تلك الأرجاء قليلة على الأغلب؛ وكان إهمال الحارس الليلي يجعلها تنطفئ قبل الفجر بوقت طويل. نظر أورلندو إلى فتيل مصباحه، تأكد من أحزمة سرجه؛ لقّم مسدسيه وفحص قرابيهما. وقد فعل هذه الأمور اثني عشر مرة

علـى الأقـل حتى لم يعد يجد ما هو في حاجـة إلى اهتمامه. ورغم أنه ما يـزال أمامه عشرون دقيقـة قبل منتصف الليـل، لم يستطع أن يجبر نفسه على الدخول إلى بهـو النزل حيث كانت صاحبته ما تزال تقدم لبعض المسافريـن بحراً الخمـر المسمى الساك والنـوع الأرخص من خمـر الكناري. كان هؤلاء يجلسون وهـم ينشدون أغانيهم القصيرة ويـروون حكاياتهم عن "دريـك" و"هوكينـز" و"غرينفيل"، حتى يغلبهـم النعاس فيسقطون من فوق مقاعدهـم وينامون على الأرضية المغطـاة بالرمل. كانت العتمة أكثر رحمـة بقلبه المتضخم والذي يدق بعنـف. أصغى إلى كل وقـع لقدم وتأمّل في كل صـوت. كل صرخة لرجـل ثمـل أو عويل لبائسة تُضاجَع فـوق القش أو هي في كرب من نوع آخـر، كان من شأنها أن تخترق قلبـه في الصميم، وكأنها تعطي نذيراً شؤم لمغامرته. ومع ذلك فهو لم يقلق على ساشا. كانت شجاعتها تجعلها لا تأبه بالإقدام على مثل هذه المغامرة. كانت ستأتي وحدها في عباءتهـا وبنطالها وهي تلبس جزمـة رجالية. وبما أن وقع أقدامها كان خفيفاً فلن يستطيع سماعه إلا بالكاد، حتى في هذا الصمت.

وهكـذا زاح ينتظر في العتمـة. وفجأة، تلقى ضربـة على وجهه، ناعمـة إنما ثقيلة، على جانب وجنته. وقد كان متوتراً جداً في انتظاره فأجفل ومدّ يده إلى سيفه. تكررت الضربة اثنتي عشرة مرة على الجبين والوجنـة. كانت فترة الجليد الجاف قد دامـت لفترة طويلة بحيث أنه لم يـدرك إلا بعد دقيقة كاملة أن تلك كانت ضربات المطر. في البداية، راح يهطـل ببطء، بتـأنٍّ، واحدة بواحدة. ولكـن سرعان ما أصبحت القطرات الست ستين قطرة ثم ستمائة. ثم هطل وابل شديد من المطر. بـدا وكأن السماء المتحدة قد صبّت نفسها في نبع غزير واحد. خلال خمس دقائق كان أورلندو قد ابتلّ تماماً.

ســارع إلى وضــع الجياد تحت غطاء، واحتمــى بساكف الباب من حيــث ما يزال قادراً على مراقبة الباحة. كان الهواء أثخن الآن من أي وقت مضى وكان البخار والأزيز يتصاعدان من المطر الهاطل، حتى أنه لم يكن ممكناً سماع وقع أقدام إنسان أو حيوان. أما الطرق التي كانت مليئــة بالحفر الكبيرة فقــد أصبحت الآن مستحيلــة العبور مع هطول المطــر. ولكنه لم يفكر إلا بالكاد بتأثير ذلك كله على عملية هروبهما. كانــت كل حواســه مركــزة على التحديــق إلى امتداد الممــر المفروش بالحصى– الذي كان يومض تحت نور المصباح – منتظراً قدوم ساشا. أحيانــاً، في العتمة، بدا وكأنــه يراها ملتفة بغطاء واق من المطر. ولكن هذا الشبح كان يختفــي. وفجأة، وبصوت رهيب ومشؤوم ، صوت مــترع بالرعب والذعر بث الألم في روح أورلندو، دقت ساعة كنيسة القديســ بولص أول دقة من دقات الساعة الثانية عشرة. ثم دقت أربع دقــات أخريات دون ندم. وبتطيّر شاب عاشق فكــر أورلندو في أنها ستأتي مع الدقة السادسة. ولكن السادسة دقت وتردد صداها وجاءت السابعــة ثم الثامنة، وبالنسبة إلى ذهنــه القلق فقد بدت الدقات مترعة في البداية بالبشرى ثم راحت تعلن الموت والكارثة. وحين دقت الدقة الثانيــة عشرة، عرف أن مصيره قد أصبح محتومــاً. لم يعد مفيداً للجزء العقــلاني من دماغه أن يفكر بعقلانية. قــد تكون متأخرة، وقد يكون هنــاك من منعها من القدوم، وقــد تكون ضلّت الطريق. عرف القلب العاطفي والحساس لأورلندو الحقيقة. دقت ساعات أخرى، الواحدة بعد الأخرى على نحو مزعج. بدا العالم كله وكأنه يرنّ بخبر خداعها ومكرها. واندفعت الشكوك الكامنة في نفسه لتخرج إلى العلن. وقد راح حشــد من الثعابين يلدغــه وكل واحد منها أكثر سمية من الآخر. وقــف عند بوابة النزل تحت المطر الهاطــل بقوة دون أن يتحرك. ومع مــرور الوقت شعر بالضعف في الركبتــين. كان الهطل يقوى ويشتد.

خلال هذا كله بدت مدافع ضخمة وكأنها تدوي. وبدأ يُسمع ضجيج عظيم كأنه صادر عن تمزيق أشجار السنديان. ولكن صدرت أيضاً صرخات وحشية وأنين رهيب لاإنساني. ولكن أورلندو بقي واقفاً هناك ساكناً ما يزال حتى دقت ساعة كنيسة القديس بولص معلنة الساعة الثانية، فصرخ بسخرية رهيبة وأسنانه كلها ظاهرة للعيان: "يوم حياتي كلها!" بالفرنسية، ثم حطم المصباح على الأرض وركب حصانه وراح يعدو به دون أن يعرف إلى أين يكون الاتجاه.

لابد وأن غريزة عمياء ما، فقد كان قد فقد القدرة على التفكير المنطقي، قادته إلى ضفة النهر باتجاه البحر. فحين انبلج الفجر، وقد جرى ذلك بفجائية غير معتادة، إذ تحول لون السماء إلى الأصفر الشاحب وتوقف المطر عن الهطول تقريباً، وجد نفسه على ضفاف نهر "التيمز" بعد "وبينغ". والآن هاهو يرى مشهداً ذا طبيعة استثنائية. فحيث ساد منذ ثلاثة أشهر جليد صلب وسميك جداً حتى بدا أنه دائم كالصخر، وكانت مدينة مرحة تقف بأكملها على ضفته، هاهو يرى سباقاً لمياه صفراء هائجة. لقد نال النهر حريته خلال الليل. بدا وكأن نبعاً كبريتياً (وكثير من الفلاسفة يرون هذا الرأي) قد انفجر من المناطق البركانية في الأسفل ومزق الجليد بقوة اجتاحت الأجزاء الضخمة والثقيلة. كان منظر المياه كافياً لجعل المرء يشعر بالدوار. كانت الفوضى تعمّ النهر الذي كان مغطى بكتل الجليد. والبعض من هذه كان عريضاً بقدر ملعب البولينغ وبارتفاع منزل، وأخرى ليست أكبر من قبعة رجالية، ولكنها ملتوية بشكل فانتازي. بين الحين والآخر كانت قافلة من الكتل الجليدية تغرق كل ما هو في طريقها. وهاهو النهر الآن الذي يتلوى ويتموج كأفعوان متأ لم يبدو وكأنه يرمي بنفسه بين الشظايا ويرمي بها من ضفة إلى أخرى، حتى يمكن سماعها وهي

تتحطـم على دعامات الجسور وأعمدتها. ولكن ما كان أشد ما يبعث الرهبة في النفس ومثيراً للرعب هو مشهد مخلوقات بشرية فوجئت ليلاً بما جرى فعلقت في فخ النهر الهائج وهاهـي تحاول القفز من جزيرة إلى أخرى بأشد حالات الأسى وألم الروح. وسواء كانوا سيقفزون إلى السيـل أو سيبقون فوق الجليد فإن مصيرهم كان محتوماً. أحياناً كانت مجموعـة من هـؤلاء الأشخاص المساكـين تتراصّ معـاً، البعض راكع وهناك نساء ترضعـن أطفالهن. بدا رجل عجوز وكأنه يتلو من كتاب مقدس بصـوت مرتفع. في أوقـات أخرى كان يُـرى شخص بائس يركـب على قطعة جليـد ضيقة وحيداً، وهذا مـن كان ينتظره المصير الأكثر فظاعة. وبينما راح أولئك يُدفعون بقوة إلى البحر، كان البعض يُسمعـون وهم يصرخون عبثاً طلباً للنجـدة، ويقدمون وعوداً جنونية بالتوبة ويعترفون بخطاياهم وينـذرون الذبائح والثروات على مذابح الكنيسـة لو أن الرب سيستمع إلى صلواتهـم. وكان هناك آخرون قد اعتراهـم الذهـول من شدة الرعـب فجلسوا دون حـراك وبصمت، وهـم ينظرون إلى الأمام بثبـات. كان طاقم من العاملين على الزوارق النهرية أو سعاة البريد، كما يمكن للمرء أن يميزهم من بزاتهم، يجأرون ويصيحـون وهم يغنّـون أكثر أغـاني الحانـات فسقاً، كأنمـا للتظاهر بالشجاعة، ثم كانوا يصطدمون بشجرة ويغرقون وعبارات التجديف على شفاههم. وهاهو نبيل عجوز- فهكذا كانت تعلن عنه عباءته التي من الفـرو وسلسلته الذهبية- يغرق ليس بعيـداً عن المكان الذي كان أورلندو واقفاً فيـه، وهو يتوعد الثوار الأيرلنديـين بالانتقام، لأنهم- كمـا كان ما يـزال يصيح حتى آخر نفس فيه- كانـوا وراء هذا العمل الشيطاني. هلك كثيرون وهم يتشبثون بوعاء فضي أو بشيء ثمين آخر ويضمونـه إلى صدورهـم. كما أن عشرة من البؤسـاء المساكين غرقوا بسبـب جشعهم، فقد كانـوا يرمون بأنفسهم مـن الضفة نحو السيل

حتى لا يفوتهم التقاط قدح ذهبي، أو يرون بأعينهم اختفاء عباءة من الفرو. فقد كانت قطع من الأثاث والنفائس وممتلكات من كل نوع تنجرف فوق قطع الجليد. ومن بين المشاهد الأخرى كان مشهد قطة ترضع صغارها، أو منضدة أعدت بسخاء من أجل عشاء عشرين شخصاً، أو زوجين في فراشهما مع عدد استثنائي من أواني الطبخ.

لم يكن في وسع أورلندو الدائخ والذاهل أن يفعل شيء لبعض الوقت سوى أن يراقب السباق الرهيب للمياه وهي تندفع مارة به. وأخيراً، وقد بدا أنه بدأ يسترد وعيه، فقد ضرب الحصان بمهمازيه وعدا به بقوة على امتداد ضفة النهر في اتجاه البحر. التف من حول منعطف للنهر ووقف مقابل ذلك المكان الذي كانت فيه سفن السفراء مجمدة دون حراك، فعدّها جميعاً: الإسبانية والنمساوية والتركية. كلها ما تزال تطفو، رغم أن الفرنسية قد أفلتت من حبال إرسائها واخترقت التركية جانبها فتركت ثقباً كبيراً فيه وراحت تمتلئ بالماء بسرعة. ولكن السفينة الروسية لم تكن لتُرى في أي مكان. لبرهة فكر أورلندو أنها لا بدّ غرقت، ولكنه حين نهض في ركابه وظلل عينيه بيده، وكان لهما بصر صقر، استطاع أن يتبين شكل سفينة عند الأفق. كان النسران الأسودان على علمهما يخفقان من أعلى الصاري. كانت سفينة السفارة الموسكوفية تشرع في الإبحار.

رمى بنفسه من فوق حصانه، وكاد أن يسبح عبر الطوفان من شدة غضبه. هاهو واقف والماء يغمر ركبتيه، وقد راح يقذف تلك المرأة الخائنة بكل الشتائم التي كانت منذ الأبد القدر المكتوب على جنسها. الخائنة، المتقلّبة، المتبدّلة: هكذا راح يسميها، والشيطانة والزانية والخداعة. ولكن الماء المدوّم أخذ كلماته ورمى عند قدميه بإبريق محطم وبعض القش.

الفصل الثاني

يواجه كاتب السيرة الآن صعوبة ربما يكون من الأفضل أن يعترف بهـا لا أن يموهها. حتى هـذه المرحلة من سرد قصة حياة أورلندو، فإن وثائـق خصوصيـة وتاريخية قد جعلت من الممكـن تلبية أول واجب لكاتـب السيرة، أي أن يسير دون التفـات إلى اليمين أو اليسار متقفياً آثار الحقيقة، غير آبه بالأزهـار، ولا عابئ بالظلّ، قدماً قدماً وبمنهجية حتـى نسقط فجأة في القبر ونكتب عبارة «انتهى» على الشاهدة التي فـوق رؤوسنـا. ولكننا نصـل الآن إلى حادثة تعترضـ طريقنا مباشرة لذا لا مجـال لتجاهلها. ومع ذلك فهي مظلمـة وغامضة وغير موثّقة؛ وبالتـالي فلا تفسير لها. قد تكتب المجلدات في شرحها؛ فهناك أنظمة دينية بكاملهـا تأسست على مغزاها. أما واجبنا البسيط فهو أن نروي الحقائق بقدر ما هي معروفة، وأن نترك القارئ يفسرها كما يريد.

في صيف ذلك الشتاء الكارثي الذي شهد الجليد والطوفان ومقتل الآلاف الكثيرة، والإحباط الكامل لآمال أورلندو: فقد نُفي من البلاط وكان في خزي كبير أمام أقوى نبلاء ذلك العصر. لقد شعر آل دزموند الأيرلنديون بالسخـط وكانوا على حق في ذلك. كان قد سبق للملك وعانى من مشاكل مع الأيرلنديين فلم يكن مستعداً لقبول المزيد منها. في ذلك الصيف انسحب أورلندو إلى قصره في الريف وعاش هناك في عزلة تامة. في صباح أحـد أيام حزيران (يونيو)- كان يوم السبت في

الثامن عشر من ذلك الشهر– لم يستيقظ في الموعد المعتاد، وحين ذهب وصيفه ليراه، وجده مستغرقاً في النوم. و لم يكن ممكناً إيقاظه. كان في حالة أشبه بالغشيــة، دون تنفس ملحوظ؛ ورغم أنهم جعلوا الكلاب تنبح تحت نافذته، ودُقــت الصنوج والطبول والمقارع بشكل دائم في غرفتــه، ووضعت شجيرة وزّال تحت وسادته وضمادات الخردل على قدميــه، فهو لم يستيقظ و لم يتناول الطعام أو يبد أي علامة على وجود حيــاة فيه مدة سبعة أيام كاملــة. في اليوم السابع أفاق في الموعد المعتاد (الثامنة إلا الربع بالضبط) وطــرد تلك المجموعة من النساء الناحبات بمــواء أشبه بمــواء السنور وعرّافي القريــة من غرفتــه؛ وكان ذلك أمراً طبيعياً بما فيه الكفاية. ولكن ما كان غريباً هو أنه لم يبد أي معرفة بتلك الغشيــة، بل ارتدى ملابسه وأرسل يطلــب حصانه وكأنه استيقظ من نــوم ليلة واحدة. ولكــن كان هناك شك في أن تغيــيراً ما قد طرأ على حجــرات دماغه، فرغــم أنه كان عاقلاً تماماً وبــدا أكثر رزانة ورصانة عما قبــل، إلا أنه بدا وكأنه لا يتذكر حياته السابقة بشكل كامل. كان يصغي حين يتحدث الناس عــن الجليد العظيم أو التزلج أو الكرنفال، ولكنه لم يبد أي إشارة، باستثناء تمرير يده على جبينه كأنما ليمحو لطخة ما، على أنه شاهدها بنفسه. وحين كانت تُذكر أحداث الأشهر الستة الماضيــة، ما كان يبدو كثــير التألم بقدر ما يبدو محــيّراً، وكأنما تقلقه أو تشوّشــه ذكريات ماض بعيد أو يحاول أن يتذكر حكايات سمعها من شخصــ آخر. وقد لوحظ أنه إذا ذكرت روسيــا أو الأميرة أو السفن، كان يصــاب بحالة مــن الكآبة القلقــة فينهض ويتطلع مــن النافذة أو ينادي أحد كلابــه أو يتناول سكيناً وينحت قطعــة من خشب الأرز. ولكــن الأطباء كانــوا في حينه أكثر حكمة مما هم عليــه الآن. فبعد أن وصفــوا له الراحة وممارسة الرياضة، الجوع والقوت، العِشرة والعزلة، وأن يتمــدد في الفراش طوال اليوم ويمتطي حصانــه لأربعين ميلاً بين

الغـداء والعشاء؛ وأن يتنـاول المسكّنات ومثبطـات الغضب المعتادة، علـى أنواعها، وحسب ما يروق لخيالهم، مـع الحليب الساخن وريق السمنـدل لدى الاستيقاظ وجرعات من صفراء الطاووس حين يأوي إلى الفراش؛ بعـد ذلك كله تركه الأطباء في حالـه وكان رأيهم أنه نام أسبوعاً كاملاً.

ولكـن لو كان ذلك نومـاً، وما هي طبيعته، فنحـن لا نستطيع إلا بالـكاد أن نحجم عـن السؤال: هل مثـل هذا النوم إجـراء علاجي: أهـو غشية يتم فيها محـو أكثر الذكريات مرارة والتـي تبدو وكأنها قد تفسـد على المرء حياته إلى نهايتها، وذلك بريشة داكنة تزيل قساوتها، وتموّهها، حتى أبشـع ما فيها وأحقره، بطبقة لامعة ومتوهجة؟ هل لا بـد من وضع الغضب مـن الموت على جلبة الحياة بـين الحين والآخر لئلاّ يمزقنا تمزيقاً؟ هل نحن مجبولون على أن نأخذ الموت على جرعات صغـيرة يومية وإلا ما كنـا سنستطيع الاستمرار بمسألـة العيش؟ ثم ما هـي تلك القوى الغريبة التي تتغلغل في أكـثر أساليبنا سرية وتغيّر أثمن ممتلكاتنـا دون أن نرغـب في ذلك؟ هل مات أورلنـدو، الذي أنهكته شـدة معاناته، لمـدة أسبوع ثم عـاد إلى الحياة مجدداً؟ ولـو كان الأمر كذلك، فما هـي طبيعة الموت وما هي طبيعة الحيـاة؟ فبعد أن انتظرنا أكـثر من نصف ساعة للردّ علـى هذه الأسئلة، و لم يصل أي ردّ عليها، فلنعد لنكمل الحكاية.

والآن هاهـو أورلنـدو يستسلـم أمام حيـاة من العزلـة الشديدة. فالخـزي الذي أصابـه في البلاط الملكي وحزنه الصـارخ كانا السبب فيها جزئياً، ولكنه حـين لم يبذل أي جهد للدفاع عن نفسه ونادراً ما دعا أحداً لزيارته (رغم وجود الكثير من الأصدقاء الراغبين في ذلك)، بـدا وكأن وحدتـه في دارة آبائه العظيمة كانـت تلائم مزاجه. كانت

العزلة خيـاره. لم يكن أحد يعرف بالضبط كيـف يقضي أوقاته. كان الخدم، ولديه منهم حاشية كاملة، رغم أن معظم عملهم كان يتمثل في نفضـ الغبار عن الغرف الفارغة وتمليس الأغطية على أسرّة لا ينام فيها أحد، يراقبون في عتمة المساء، وقد جلسوا لتناول الكعك والجعة، نوراً يمـرّ على امتداد الأروقة ويعبر قاعات الولائم ويصعد الأدراج ويدخل غـرف النوم. كانوا يعرفـون أن سيدهـم كان يطوف في المنزل وحيداً. لم يجـرؤ أحد على اللحاق به، فالمنزل كان مسكوناً بعدد كبير متنوع من الأشباح، وكان ممكناً بسبب رحابته واتساعه أن يجعل أي شخص يضيـع فيـه فإمـا أن يسقط في درج مخفـي أو يفتح باباً لـو عصفت به الريح لانغلق إلى الأبد. وكان الدليل على ذلك حوادث عديدة انتهت باكتشاف هيـاكل عظمية لأشخاص وحيوانات في أوضاع تدل على ألم كبـير. ثم أن النـور كان يُفقد تماماً، وتقول السيـدة غريمسديتش، مدبـرة المنـزل، للسيد داپر، القسيس، إنها تأمـل ألاّ يكون مكروه قد حلّ بـ «سعادة اللورد». وكان السيد داپر يرتئـي أن «سعادته» راكع علـى ركبتيـه دون شك بـين قبور أسلافـه في الكنيسـة الصغيرة التي كانـت في «بيليارد تايبل كورت» علـى مسافة نصف ميل من الناحية الجنوبية. إن ضميره مثقل بالخطايا كما كان يعتقد السيد داپر. وكانت السيـدة غريمسديتش ترد عليه، وبحدة بالأحرى، أن معظمنا كذلك. كمـا كان كل مـن السيـدة ستيوكلي والسيـدة فيلد والمربيـة العجوز كارپنـتر يرفعـن أصواتهن في مديـح «سعادتـه». وكان سائسو الخيل والـوكلاء يقسمـون على أنه لأمـر مؤسف جداً مشاهـدة رجل نبيل مرهـف إلى هذا الحـد يتجول في أرجـاء المنزل بحـزن بينما كان من المفروضـ أن يمارس صيد الثعالـب أو يطارد الأيائل. وحتى خادمات الغسيـل الصغيرات وخادمات جلي الأطباق اللواتي تكون اسماؤهن «جودي» أو «فايث»، واللواتـي كن يمررن الأقعاب والكعك، رحن

يشهـدن على شهامـة «سعادته». فلم يسبق أن وجـد جنتلمان ألطف أو أكـثر كرماً بمنح تلك القطع الفضيـة الصغيرة التي يُشترى بها عقدة شريط أو وردة توضع على الشعر. وحتى «الزنجية» التي كان يسمونها «غريسـ روبينسون» كوسيلة لجعلها امـرأة مسيحية، فهمت ما كانوا يتداولونـه ووافقت علـى أن «سعادته» كان جنتلمانـاً وسيماً ولطيفاً ومحبباً وبالطريقة الوحيدة التي استطاعت بها التعبير عن ذلك، أي بأن كشفت عن أسنانها كلها مرة واحدة في ابتسامة عريضة. وباختصار، فإن جميـع خدمه وخادماته كانوا يحترمونه أشد الاحترام وقد راحوا يشتمـون «الأميرة الأجنبية» (ولكنهم أسموهـا اسماً أكثر فظاظة من هذا) والتي سببت له هذه المشكلة.

ولكـن رغم أن الجُبن أو حُبّ الجعة الساخنـة قد جعلا السيد داپر يتخيل «سعادته» آمناً بين القبور، لذا فهو ليس في حاجة إلى أن يجري البحـث عنه، إلا أن السيد داپر قد يكون على حق. كان أورلندو الآن يستمتـع على نحو غريب بأفكار المـوت والفساد. فبعد أن يجول في الأروقة وقاعـات الرقص والشمعة في يده، وهـو يحدق إلى الصورة إثـر الأخرى وكأنه يبحث عن شبـه شخص ما لم يستطع إيجاده، كان يمتطي مقعـد الأسرة الطويـل ويجلس لساعات وهـو يراقب الأعلام وهي تخفـق ونور القمر وهـو يرتعش على وطـواط أو على «فراشة العـث» ليكونا رفيقاً له. وحتى هذا لم يكن كافيـاً له، إذ كان عليه أن يهبـط إلى السرداب حيث يرقد أسلافـه في تابوت مكوم فوق تابوت لعشرة أجيال بحالها. لم يكن السرداب يعرف الزوار إلا نادراً، وكانت الجـرذان قد تجرأت علـى التوابيـت المصنوعة من الرصاص، والآن هاهـي عظمة فخذ تعلق بعباءته وهو يمرّ أو كان يسحق جمجمة «سير ماليـز» قديمة وهـي تتدحرج تحت قدميه. كانـت مقبرة مخيفة حفرت

عميقاً تحت أساسات الدارة، وكأن أول لورد في الأسرة الذي وصل من فرنسا مع «ويليام الفاتح» (١) قد رغب في أن يوضح كيف أن الأبهة كلها تُبنى على فساد، وكيف أن الهيكل العظمي يكمن تحت اللحم، وكيف أننا نحن الذين نرقص ونغنّي من فوق يجب أن نرقد في الأسفل، وكيف أن المخمل القرمزي يتحول إلى تراب، وكيف أن الخاتم (وهنا هاهو أورلندو يلتقط شيئاً مستديراً من الذهب يخلو من حجره الكريم وقد تدحرج نحو إحدى الزوايا) يفقد ياقوتته والعين التي كانت شديدة اللمعان ما عادت تلمع أبداً. كان أورلندو يقول: »لا شيء يبقى من جميع هؤلاء الأمراء»، وهو يطلق العنان لمبالغة ما في مراتبهم ممكن غفرانها، «باستثناء أصبع واحدة» وبعدها يمسك بيده يدَ هيكل عظمي ويثني براجمها في هذا الاتجاه أو ذاك. كان يسأل: يد من كانت يا ترى؟ هل هي اليمنى أو اليسرى؟ يد رجل أم امرأة، يد عجوز أم يد شاب؟ هل حثّت حصان الحرب أو استعملت الإبرة؟ هل قطفت الورود أو أمسكت بالفولاذ المقسى؟ هل ... وهنا إما أن قدرته على الإبداع أحبطته أو زودته بأمثلة كثيرة، وهذا هو الأصح، عما يمكن لليد أن تفعله فأحجم عن الاستمرار، كما كان من عادته أن يفعل؛ في التأليف الذي هو استئصال، فوضع اليد مع العظام الأخرى، مفكراً بأنه كان هناك كاتب يسمى «توماس براون»، وهو «دكتور من نورويتش» كانت كتاباته عن مثل هذه المواضيع قد خلبت لبّه إلى حدّ مدهش.

وهكذا، كان يأخذ مصباحه ويذهب ليرتب العظام في أمكنتها، فعلى الرغم من أنه رومانسي النزعة، إلا أنه كان منهجياً إلى حد فريد ولا يكره أي شيء كما يكره كرة من الخيطان على الأرض، ناهيك عن جمجمة لأحد أسلافه؛ ويعود بعد ذلك إلى التجوال المزاجي العجيب

عـبر الأروقة، يبحث عن شيء مـا بين الصور، وهو مـا يُقاطع أحياناً بنوبة حقيقية من البـكاء، لدى مشاهدته لمشهد ثلجي هولندي رسمه فنـان مجهول. ثم بدا له أن الحياة لا تستحـق أن تُعاش بعد الآن. ناسياً عظام أسلافه وكيف أن الحياة مبنية على قبر، كان يقف هناك والنحيب يهـزّ أوصاله، وذلـك كله يعـود إلى رغبته في امرأة ترتـدي السروال الروسـي ولها عينان مائلتان وفـم ناتئ وعقد من اللؤلؤ حول جيدها. لقـد رحلتْ. هجرتْهُ. لن يراهـا ثانية قط. وهكذا راح يبكي. وهكذا وجـد طريقه عائداً إلى غرفته. وحـين رأت السيدة غريمسديتش النور في النافـذة، أبعدت القَعْب عن فمها وحمدت الـرب لأن «سعادته» أصبح آمناً في غرفته مجدداً، فقد كانت تظن طوال هذا الوقت أنه اغتيل غدراً.

والآن سحـب أورلنـدو كرسيه نحـو المنضدة وفتـح كتاب السير توماس براون وراح يدرس الفصاحة الرهيفـة لأطول وأكثر تأملات هذا العالم تراكباً والمكتوبة على نحو مدهش.

وعلى الرغم من أن هذه ليست بالمسائل التي يستطيع كاتب السيرة أن يتوسع فيها على نحو مفيد، إلاّ أنه أصبح جلياً بما فيه الكفاية لأولئك الذيـن أدّوا دور القـارئ ما هـي كامل حدود ومحيـط الشخص الحيّ مـن تجميع الماعات مجـردة أُسقطت هنا وهناك، ويمكنـه لهؤلاء القراء أن يسمعـوا مـن همساتنا صوتاً حيّاً؛ وأن يـروا حين لا نقول شيئاً في الغالب، كيف كان يبدو هو بالضبط؛ كما يعرفون دون كلمة ترشدهم مـا كان يفكر فيه بالضبط؛ وأننا لمثل هـؤلاء القراء نقوم بفعل الكتابة: فمـن الواضح إذن لمثل هذا القارئ أن أورلنـدو كان مركباً على نحو غريـب من كثير مـن الأمزجة: السوداوية والكسـل والغضب وحب العزلـة، ناهيك عن كل التـواءات المزاج وأبعـاده الدقيقة التي ذكرت

في الصفحــة الأولى، وذلك حين ضرب بسيفه رأس زنجي ميت فقطعه وعلّقه بفروسية بعيداً عن متناول يده مجدداً، ثم اتجه نحو مقعد النافذة وهو يحمل كتاباً. جاء حبــه لمطالعة الكتب مبكراً في حياته. وكطفل كان يُعثر عليه في منتصف الليل وهو ما يزال يقرأ في صفحة ما. حرموه من شمعته، لذا ربّى اليراعات المتوهجة ليقرأ ليلاً على ضوئها. حرموه مــن اليرقــات وكاد يحرق المنزل حين أشعل نــاراً. وللإيجاز نقول إن تــرك الروائي لتمليس الحريــر المجعد وكل تضمينــات ذلك، إنه كان رجــلاً نبيلاً مبتلى بحــب الأدب. كثير من الأشخاصــ من معاصريه، والكثير مــن أنداده، نجوا من هذه العدوى، وكانــوا بالتالي أحراراً في أن يمارســوا الجري أو ركوب الخيــل أو ممارسة الحب حسب ما يروق لهــم ذلك. ولكن البعضــ أصيب بعــدوى جرثومة قبــل إنها تتكاثر بغبار طلع زهــرة البَرْوَق وتنطلق من اليونان وإيطاليا، ولها طبيعة مميتة تجعــل اليد ترتجف وهي ترتفع لتضرب، وتغشي العينين وهما تطاردان الفريســة، وتجعل اللسان يتلعثم وهو يعبّر عــن الحب. وكانت الطبيعة المميتــة لهذا الداء هي التي ستستبدل شبحاً بالواقع، حتى أن أورلندو، الذي منحه الحظ السعيد كل هدية ممكنة– الطعام والبياضات والمنازل والخدم مــن الذكور والسجاجيد والأسرة وبوفرة– ما كان عليه سوى أن يفتــح كتاباً حتى يتحــول هذا التراكم الواســع إلى سديم. الآكرات التســع من الحجارة التي كانت تشكل دارته قد اختفت، واختفى مائة وخمســون خادماً منزلياً، واختفى ثمانون حصان ركوب. كان الأمر سيستغرق زمنــاً طويلاً لعدّ السجاجيد والأرائــك والزينات والأواني الصينية والأطباق والأباريق الزجاجية والصحون والقدور والمنقولات الأخرى المصنوعة غالباً من الذهب المطروق، وكلها تبخرت كضباب بحــري رقيق تحت الأبخــرة السامة. وهكذا جرى مــا جرى، وكان أورلندو يجلس وحيداً يقرأ، كرجل عار.

كان المرض يستولي عليه بسرعة الآن في عزلته. كان يقرأ لمدة ست ساعات في الليل، وحين كانوا يأتون إليه لتلقي الأوامر عن ذبح الأبقار أو حصاد القمح ، كان يزيح كتابه جانباً ويبدو كمن لم يفهم ما قيل له. وكان هـذا أمراً سيئاً بما فيه الكفاية وقد عصر قلب «هول» الصقّار من «جايلز»، والوصيف والسيدة غريمسديتش ومدبرة المنزل والسيد دابر والقسيس. كانوا يقولون إن جنتلماناً مرهفاً كهذا ليس في حاجة إلى الكتب. فلندعه يترك الكتب للمشلولين والمحتضرين. ولكن الأسوأ كان سيأتي لاحقاً. فإن داء المطالعة ما أن يستولي على النظام حتى يضعفه فيقع فريسة سهلة لذلك البلاء الآخر الذي يسكن في الدواة ويتقيّح في الريشة. هاهو ذلك المسكين يتعلق بالكتابة. وبينما يكون هذا أمراً سيئاً بما فيه الكفاية لرجل فقير لا يملك سوى كرسيّ ومنضدة تحت سقف راشح – فليس لديه إذن الكثير ليخسره على أي حال– فإن مصيبة الرجل الغني الذي يملك دوراً وقطعاناً وخادمات وحميراً وبياضات، ويؤلف الكتب رغم ذلك، لهي مصيبة يُرثى لها إلى أقصى حد. إن نكهة هذا كله تخرج منه؛ فهو ملغّز بقضبان من الحديد الحار وتنهش فيه الهوام. كان مستعداً لمنح كل قرش يمتلكه (إلى هذا الحد تبلغ خباثة هذه الجرثومة) ليكتب كتاباً صغيراً واحداً ويكتسب الشهرة. ومع ذلك، فكل الذهب الذي في بلاد البيرو لن يشتري له كنز السطر المكتوب برشاقة ومهارة. وهكذا يقع فريسة المرض والعلل ويرهق دماغه ويلتفت بوجهه إلى الجدار. ولا يهمه في أي وضعية سيجدونه. لقد مرّ عبر بوابات «الموت» وعرف نيران «الجحيم».

ولحسن الحظ، كان أورلندو ذا بنية قوية، ولم يحطمه المرض (لأسباب سنوردها عما قريب) كما حطم الكثير من أنداده. ولكنه ابتلي به بعمق كما تظهر لنا ذلك العاقبة. فهو، بعد أن يقرأ لمدة ساعة

أو نحوهــا في كتاب السير توماس بــراون- يكشف نباح الأيل ونداء الحارســ الليلي أن الوقت هو جوف الليــل البهيم وأن الجميع نائمون بأمــان- يعــبر الغرفة ويخــرج مفتاحاً فضيــاً من جيبه ويفتــح أبواب خزانة مطعّمة ضخمة وضعــت في زاوية الغرفة. وفيها كان خمسون درجاً من خشــب الأرز، وعلى كل واحد منها ورقة مكتوبة بخط يد أورلندو. توقف، وكأنه يتردد : أياً منها سيفتح الآن؟ كان مكتوباً على أحدهــا «موت أجاكس» والثانية «مولد بيراموس» والثالثة «إيفيجينيا في أَوليســ» والرابعــة «مــوت هيپوليتوســ» والخامســة «ميلياغــر» والسادســة «عودة أوديسيوس». وفي الواقع لم يكن هناك درج واحد يخلــو من اسم شخصية أسطوريــة في أزمة من أزمات حياتها. في كل درج كانــت وثيقــة ذات حجــم كبير مكتــوب عليهــا بكاملها بخط يــد أورلندو. وكانــت الحقيقة هــي أن أورلندو كان مبتلــى على هذا النحو منذ سنــين. لم يسبق أن استعطى صبي التفاح كما كان أورلندو يستعطي الورق؛ ولا استعصى الحلويات كما كان هو يستعطي الحبر. كان ينســل مبتعداً عن الحديث والألعاب فيختبئ خلف الستارة أو في الحفــرة الخاصة بالقساوســة أو في الخزانة خلف غرفة نــوم أمه والتي كانت تحوي حفرة كبيرة في الأرضية وتفوح منها إلى حد كريه روائح روث طائر الزرزور؛ ممسكاً بدواة في يد وبقلم بالأخرى وعلى ركبته لفــة ورق. وهكذا كتــب قبل أن يبلغ الخامســة والعشرين حوالي سبع وأربعين مسرحية وسجلاً تاريخياً وروايات رومانسية وقصائد. كانت بعض كتاباتــه نثراً وبعضها الآخــر شعراً. بعضهــا بالفرنسية وأخرى بالايطالية. وكلها رومانسية، وكلها مطولات. وقد طبع إحداها لدى «جــون بول» من «دار فــذررز أند كورونت» مقابــل كنيسة صليب القديســ بولصــ في تشيپسايد ؛ وعلــى الرغم مــن أن منظرها أدخل الســرور الشديد إلى قلبه، إلا أنه لم يجرؤ قط على أن يريها حتى لأمه،

لأن التأليف، ناهيك عن النشر، كما عرف عنهما دائماً، كانا عاراً لا يمكن تفسيره لو قام به رجل نبيل.

والآن على أي حال، في هجيع الليل، هاهو وحيد واختار من هذا المخزن من الوثائق وثيقة سميكة سماها «زينوفيلا، تراجيديا»، أو وضع لها عنواناً آخر مشابهاً؛ ووثيقة أخرى رقيقة سميت ببساطة «شجرة السنديان» (كان هذا العنوان الوحيد المؤلفة كلماته من مقطع واحد بين تلك الوثائق). ثم قرّب الدواة منه وأمسك بالريشة وقام بحركات أخرى يمارسها عادة هؤلاء المدمنون على هذه النقيصة حين يشرعون بطقوسهم. ولكنه توقف.

بما أن هذه الوقفة كانت ذات مغزى شديد الأهمية في سيرته، وهي تفوق بالفعل كثيراً من الأفعال التي تذلّ الرجال فتجعلهم يستسلمون وتجعل الأنهار تجري دماء، لذلك يتوجب علينا أن نسأل لَمَ توقف. وللإجابة، بعد التأمل الواجب، نقول إنه لسبب مثل هذا. فالطبيعة التي مررت كثيراً من الحيل الغريبة علينا، فصنعتنا على نحو غير متساوٍ من الطين والألماس، من قوس قزح وغرانيت، وحَشَتْها في صندوق، وغالباً على نحو شديد التنافر، فهاهو الشاعر الذي له وجه جزّار والجزار الذي له وجه شاعر. فالطبيعة التي تلتذّ بالتشوش والغموض، حتى أننا حتى تاريخه (الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٢٧) لا نعرف السبب الذي يدعونا إلى الصعود إلى الطابق العلوي، أو لماذا نهبط مجدداً، فحركاتنا اليومية جداً هي أشبه بمرور سفينة في بحر مجهول، والبحارة على الصاري الرئيسي يسألون وهم يشيرون بمناظيرهم نحو الأفق: هل هناك أرض أم لا؟ ونحن نجيب لو كنا أنبياء بـ «نعم». ولو كنا كاذبين لقلنا: «لا». فالطبيعة، المسؤولة عن أشياء كثيرة إضافة إلى الطول غير العملي لهذه الجملة،

قـد عقـدت مهمتها علـى نحو إضـافي وزادت مـن تشوشنا حين لم تزودنـا فحسـب بخليط كامل مـن الفضلات ضمنهسـا- قطعة من بنطـال شرطي ملتصقة بخمار الملكـة ألكسندرا- بل نجحت في جعل التشكيلـة كلها تُخـاط معاً بخيط واحد. والذاكـرة هي الخيّاطة وهي قُلَّـب في دورها هذا. تقحم الخياطة إبرتها وتخرجها ثم تصعد وتنزل بهـا، هنا وهنـاك. لا نعرف ما سيأتي بالتالي، أو مـا سيأتي بعد ذلك. وهكذا، فإن الحركة الطبيعيـة في هذه الدنيا، مثل الجلوس إلى منضدة وجـرّ الدواة باتجاهي، قد تهيج ألف جـزء عرضي وغير متصل، لامع حيناً ومعتـم أخرى، معلق ومتذبذب ومنحـدر ومتباه، شأن الملابس الداخليـة لأسـرة من أربعة عشر نفـراً على حبل في مهـب ريح. بدلاً عـن أن يكون شيئاً منفـرداً ومباشراً وخادعاً لا يحتاج أي رجل إلى أن يشعر بالخجل منـه، تبدأ أكثر أعمالنا شيوعاً بتصفيق ورفرفة للأجنحة وصعود وهبوط للأنوار. وهكذا جرى أن أورلندو وهو يغمس ريشته في الـدواة، شاهـد الوجه الساخر لتلـك «الأميرة» المفقـودة، وسأل نفسـه مليون سؤال على الفور وكانت أشبه بأسهم غُمست في صفراء المـرارة. أين كانت؟ ولماذا هجرته؟ هل كان السفير عمها أم عشيقها؟ هـل خططوا؟ هل أُجبرت على ذلك؟ هل كانت متزوجة؟ هل ماتت؟ ... كل هذه الأسئلة حقنت السمّ فيه وكأنما لتجعل ألمه ينتقل إلى مكان آخر، فغمس ريشته عميقاً في الدواة حتى أن الحبر تناثر فوق المنضدة، وهـذا الفعل يفسر كيف يمكن للمـرء أن يستبدل على الفور وجهاً من نـوع مختلف تماماً بوجه الأميرة (ولا يوجد على الأرجح تفسير ممكن لذلـك... فالذاكـرة غير قابلـة للتفسير). ولكن وجه مـن كان ذاك؟ هكـذا سأل نفسه. وكان عليه أن ينتظر، ربما لنصف دقيقة، وهو ينظر إلى الصـورة الجديدة التي تموضعت فوق الصورة القديمة، كما تشاهد الشريحـة المتحركة للمصبـاح السحري عبر الشريحـة التالية، وذلك

قبـل أن يقول لنفسه: »هذا هو وجـه الرجل البدين رث الملابس الذي كان جالســاً في غرفة تويتشيت قبل سنــوات كثيرة حين كانت الملكة «بِس» (إليزابيث) العجـوز تأتي إلى هنا لتناول الغـداء.» ثم استأنف أورلنــدو وهو يرى تلـك المزق الملونة الصغيرة، فقــال: «لقد شاهدته وكان جالســاً إلى المنضدة، حيث اختلست النظـر وأنا في طريقي إلى الطابـق السفلي، وكانــت له عينان في منتهى الغرابـة. فليكنْ من شاء مــن أن يكون! «ولكن من كان ذلك الرجل بحـق الشيطان؟» هكذا تســاءل أورلندو، فقد كانت الذاكرة تضيـف إلى الجبين والعينين أولاً تغضنــاً خشناً ومبقعــاً بالشحم، ثم صــدرة بنية اللــون وأخيراً جزمة سميكــة شأن تلك الجزمات التي يرتديها المواطنون في تشيپسايد. قال أورلندو: «ليس نبيلاً، ليس واحداً منا.» (وما كان ليقول هذا بصوت عال فقــد كان جنتلماناً دمثاً جداً. ولكن هذا يكشف كم يؤثر المحتد النبيــل على الذهن وبالتــالي كم هو صعب على رجــل نبيل أن يكون كاتبــاً). «كان شاعراً علــى ما أظن». وبموجب جميــع القوانين، فإن الذاكــرة، بعــد أن أقلقته بما فيه الكفاية، لا بـدّ أن تكون الآن قد محت هــذا الأمر كله تمامــاً، أو استدعت شيئاً ما شديــد الحماقة والغرابة... ككلــب يطارد قطة أو امرأة مسنة تنظف أنفها مستخدمة منديلاً قطنياً أحمر اللون؛ حتى أن أورلندو من يأسه بمجاراة تقلبات الذاكرة قرر أن يضـرب الورق بريشته بجدّ. (فنحن نستطيع، لو قررنا ذلك، أن نطرد تلك المرأة الفاجـرة، الذاكرة، وكل خرقها الباليــة وحيواناتها قصيرة الذيــل، من المنـزل.) ولكن أورلنــدو توقف. ما زالــت الذاكرة تضع أمامــه صورة الرجل رث الملابــس ذي العينين الكبيرتين اللامعتين. ما زال ينظـر ومــا زال متوقفاً. هذه الوقفات هــي دمارنا. عندها يدخل القلعة التحريض على الفتنة وهاهي قواتنا في حالة تمرد. كان قد توقف سابقــاً، وكان الحب قد اقتحمه بكل صخبه الرهيب وناياته وصنوجه

ورؤوسه ذات الخصل المدماة المنزوعة من الأكتاف. من الحب عانى عذاب الملعونين. والآن، توقف من جديد، ومن الصدع الذي صُنع على هذا النحو، خرج «الطموح» والنساء الفاجرات و»الشعر» والساحرة و»الرغبة في الشهرة» والمومس. لقد توحد هؤلاء جميعاً وجعلوا من قلبه مسرحاً للرقص. هاهو واقف باستقامة في عزلة غرفته، فراح يعاهد نفسه على أن يكون الشاعر الأول بين بني جنسه وأن يجلب لاسمه مجداً خالداً. قال (وهو يسرد أسماء ومغامرات أسلافه) إن السير بوريس قد بارز وقتل الوثني والسير غاوين والتركي؛ أما السير مايْلز فبارز وقتل البولندي والسير أندرو والفرنجي؛ وأما السير ريتشارد فبارز وقتل النمساوي؛ كما بارز وقتل السير جوردان الفرنسي؛ وبارز وقتل السير هربرت الإسباني. ولكن ماذا تبقى من كل ذلك القتل والحملات، وكل ذلك الشرب وممارسة الجنس، وذلك الإنفاق والصيد وركوب المطايا؟ جمجمة، أصبع؟ بينما، هكذا قال وهو يعود إلى صفحة كتاب السير توماس براون الذي كان مفتوحاً على المنضدة... وهنا توقف مجدداً... ومثل رقية سحرية تبرز من كل أجزاء الغرفة، من ريح الليل ونور القمر، راح يتدفق اللحن المقدس لتلك الكلمات التي سنتركها حيث هي مدفونة، ليست ميتة إنما محنّطة بالأحرى، شديدة الطزاجة من حيث لونها، وتنفسها شديد الانتظام، لئلا تخرس هذه الصفحة... وأورلندو يقارن ذلك الإنجاز بإنجازات أسلافه، فيصرخ بأنهم وأفعالهم مجرد تراب ورماد، ولكن هذا الرجل وكلماته من الخالدين.

سرعان مّا أدرك على أي حال أن المعارك التي شنّها السير وولتر والبقية منهم ضد الفرسان المسلحين للفوز بمملكة لم تكن صعبة ولو بمقدار نصف صعوبة هذه المعركة التي قرر شنّها الآن على اللغة

الإنكليزيـة لنيـل الخلـود. إن أي شخصـ على معرفة زهيـدة.بمشاق التأليـف لن يكون في حاجة إلى أن تروى له الحكاية بتفاصيلها: كيف كتـب وبدت الكتابة جيدة؛ وكيف قرأ وبدت له سيئة؛ وكيف صحّح ومـزق؛ كيف قصّ؛ وكيف أقحم؛ وكيـف كان في حالة من النشوة؛ وكيـف كان في حالة يأس؛ كيف عرف ليالي جيدة وصباحات سيئة؛ وكيـف انتزع الأفكار وكيف فقدها؛ كيـف رأى كتابه منبسطاً أمامه وكيـف اختفى؛ وكيف مثّل أدوار شخصياته وهو يأكل؛ وكيف تكلم بلسانهم وهو يتمشى؛ وكيـف بكى حيناً؛ وكيف ضحك حيناً آخر: وكيف تذبذب بين هذا الأسلوب وذاك؛ فحيناً يفضل البطولي والرنان وحينـاً البسيط والسهـل؛ حيناً وديـان «المعبد»، وحينـاً آخر حقول «كنـت» أو «كورنـوول»؛ ولم يستطع أن يقرر مـا إذا كان هو أقدس العباقرة أو أعظم الحمقى في العالم.

لقـد قرر في سبيل الإجابـة على هذا السؤال الأخـير وبعد شهور كثـيرة من الجهد المحموم، أن يكسر عزلته التـي امتدت لسنوات وأن يتواصـل مع العالم الخارجي. كان لديه صديق في لندن، اسمه «جايلز إيشـام أوف نورفولـك»، الذي رغم كونه من محتـد نبيل، إلا أنه على معرفـة بكتّاب ويستطيع دون شك أن يوفر لـه فرصة الاتصال بعضو من تلـك الأخويـة المباركة بل والمقدسـة بالفعـل. فأورلندو في تلك الحالة التي كان فيها الآن كان يعتبر شخصاً ألف كتاباً ونشره مطبوعاً، كصاحـب مجد يبـزّ كل أمجاد المحتد والطبقة الاجتماعيـة. بالنسبة إلى مخيلتـه، بدا له وكأنه حتـى أجساد أولئك الأشخاصـ المفعمين بتلك الأفـكار الإلهية لا بد أن تكون قد تغيرت وأحيطت بهالة من الجلال. لا بـد أن لهـم هالات بدلاً عـن الشَعر وبخور بدلاً عـن الأنفاس ولا بـد أن الورود تنمـو بين شفاههم... ولكن هـذا لم يكن حقيقياً سواء

طُبّق عليه أو على السيد داير. لم يستطع التفكير بسعادة أكبر من أن يُسمح له بالجلوس خلف ستارة ويصغي إليهم وهم يتحدثون. وحتى تخيّل ذلك الحوار الجريء والمتنوع جعل ذكرى ما اعتاد هو وأصدقائه من حاشية الملك التحدث عنه – كلب أو حصان أو امرأة أو لعبة ورق– تبدو فظة إلى أبعد حدّ. تذكر بفخر أنه كان يسمى دائماً بالعالم، وكان موضع سخرية لحبّه للعزلة والكتب. لم يكن ميالاً إلى استخدَام العبارات الجميلة. كان يقف ساكناً تماماً ويتورد خداه خجلاً ويمشي مشية جندي طويل ضخم الجثة في غرف جلوس السيدات. وقد سقط مرتين عن جواده من مجرد ذهوله. وقد حطم مروحة الليدي وينتشيلسي في إحدى المرات وهو يلقي قصيدة. وبينما راح يتذكر بتوق هذه الأمثلة وغيرها من انعدام ملاءمته مع الحياة الاجتماعية، فإن أملاً يفوق الوصف راح يتملكه بأن كل تمرد شبابه وخرقه وتورده خجلاً ومسيراته الطويلة وحِبه للوطن قد أثبتت أن ينتمي إلى السلالة المقدسة وليس النبيلة بالأحرى– فهو بحكم مولده كاتب وليس أرستقراطياً على الأصح. وللمرة الأولى منذ ليلة الطوفان العظيم شعر بالسعادة.

وقد فوض الآن السيد إيشام أوف نورفولك بتسليم السيد نيكولاس غرين صاحب نزل «كليفوردز إن» وثيقة تعبر عن إعجاب أورلندو بأعماله (فقد كان السيد غرين كاتباً فائق الشهرة في ذلك الحين) ورغبته في التعرف إليه؛ وكان لا يجرؤ إلا بالكاد على طلب ذلك، إذ لم يكن لديه ما يقدمه لقاء ذلك. ولكن لو أن السيد نيكولاس غرين سيتنازل ويزوره، سيتم إرسال عربة تجرها أربعة جياد لتنتظر عند ناصية شارع «فتر لاين» في أي ساعة يشاء السيد غرين، وسوف تحضره بأمان إلى منزل أورلندو. وقد يملأ المرء بقية الجمل التي تلت

ذلك بما يشاء. وتصوروا مدى سرور أورلندو حين لم يتأخر السيد غرين في التبليغ عن موافقته على تلبية دعوة اللورد النبيل؛ وركب في العربة ووصل إلى البهو في جنوبي البناء الرئيسي في تمام الساعة السابعة من يوم الاثنين الواقع في الحادي والعشرين من نيسان (أبريل).

كان الكثير من الملوك والملكات والسفراء قد استُقبلوا هناك، كما وقف قضاة هناك في فرو القاقم خاصتهم. لقد وصلت إلى هذا المكان أجمل سيدات البلاد وأقوى المحاربين. كانت الرايات التي عُلقت هناك قد عرفت ميادين معارك «فلودن» و»أغينكورت». كما كانت معروضة هناك شعارات النبالة الملوّنة بأسودها وفهودها وتويجاتها. وكانت هناك الموائد الطويلة حيث الأطباق الذهبية والفضية، وكذلك المستوقدات الواسعة المصنوعة من الرخام الايطالي حيث كانت تحرق فيها كل ليلة شجرة سنديان كاملة بأوراقها المليون وأعشاش طيور الغداف والنمنم حتى تصبح رماداً. هاهو نيكولاس غرين الشاعر يقف هناك الآن في ملابسه الخالية من الأناقة بقبعة مهدلة وصدرة سوداء، وهو يحمل حقيبة صغيرة بيد واحدة.

كان أمراً محتوماً أن يشعر أورلندو بخيبة أمل خفيفة حين أسرع لاستقباله. كان الشاعر متوسط الطول، نحيل القدّ مع احديداب إلى حد ما، وحين تعثر بكلب الدرواس الضخم أثناء دخوله عضه الكلب. وزيادة على ذلك، فرغم كل معرفته بالبشر، هاهو أورلندو يحتار في أي صنف يضعه. كان فيه شيء ما لا ينتمي إلى الخدم أو حاملي الدروع أو النبلاء. كانت الرأس رائعة بجبهتها المستديرة وأنفها الأشبه بمنقار، ولكن الذقن كانت متراجعة. العينان لامعتان ولكن الشفتين مهدلتان ومريّلتان. كان تعبير الوجه ككل هو المثير للقلق على أي حال. لم يكن فيه أي من ذلك الهدوء الجليل الذي يجعل وجوه النبلاء

باعثـاً للسرور حين يُنظر إليه؛ كما لم يكن يحمل أياً من الخنوع المبجل المعهود في وجوه الخـدم المنزليين جيدي التدريب. كان وجهاً مغضناً ومجعـداً ومتكتلاً. ورغم أنه كان شاعراً، فقد بـدا أنه كان معتاداً على تلقـي التوبيخ وليس المديح؛ على الشجار وليس الهديل؛ على التدافع بالمناكـب وليس الركوب؛ علـى الكفاح وليس الراحـة؛ على الكره وليس الحب. وقد كان هذا أيضاً جلياً من سرعة حركاته وبشيء ناريّ ومرتـاب في نظرته. صُـدم أورلندو نوعاً ما. ولكنهمـا مضيا لتناول العشاء معاً.

والآن، هاهـو أورلندو الذي يسلّم جدلاً بمثـل هذه الأمور، يشعر للمـرة الأولى بخجل غير قابل للتعليل من عـدد الخدم وروعة المائدة. وما هو أغرب من ذلك، كما فكر بفخر في نفسه – فقد كانت الفكرة بغيضة عموماً– بأم جدته «مول» التي كانت تحلب البقرات. كان على وشك أن يلمّح إلى هذه المرأة الوضيعة حين سبقه الشاعر قائلاً إنه لأمر غريب أن يكون لقب «غرين» شائعاً إلى ذلك الحد، رغم أن هذه الأسرة وصلـت إلى بريطانيا مع «ويليام الفاتح» وكانـت من أسمى العائلات النبيلـة في فرنسا. لسوء الحظ، شاءت المقادير أن تفقرهم و لم تترك لهم سـوى لقبهم الـذي أطلق على القصبـة الملكية المسمـاة «غرينيتش». وقـد دام الحديث من هذا النوع عـن القلاع الضائعة وشعارات النبالة وأولاد العـم الذين كانوا بارونات في الشمـال والتزاوج مع أسر نبيلة في الغـرب، وكيـف كان بعض أفـراد أسـرة Greene يتهجون اللقب بإضافـة e في النهاية، وآخرون دون هذه الـ e أي Green، حتى وضع لحم الغـزال على المائدة. ثم وجد أورلنـدو المناسبة ليحكي عن الجدة "مـول" وبقراتها، وهكذا فقد خفّف عـن قلبه بعض ما كان يحمله من أثقال قبـل أن يقدم لحم الطيور. ولكن لم يتمكن إلا مع تقديم نبيذ

"مالمـزي" بسخـاء أن جرؤ أورلندو على ذكر مـا هو أهم في رأيه من لقـب "غرين" أو البقـرات، أي الموضوع المقدس لديـه وهو الشعر. في أول ذكـر للشعر التمعت عينا الشاعر وتوقدت فيهما النار؛ فتخلى عن مظاهر الجنتلمان المهـذب ودق بكأسه على المائدة وانطلق يروي أطول القصص وأعقدها وأكثرها انفعالاً ومرارة مما لم يسبق لأورلندو أن سمعهـا، باستثناء مـا سمعه من شفتي المرأة التـي نكثت بعهدها له عـن مسرحية من تأليفه؛ شاعر آخر، وناقـد آخر. أما عن طبيعة الشعر نفسه، فلم يستنتج أورلندو سوى أنه أصعب على البيع من النثر، ورغم أن الأبيـات أقصر إلا أنها تتطلب وقتاً أطول في الكتابة. وهكذا مضى الحديث نحـو تشعبات لامتناهية، حتى تجرأ أورلندو فأشار إلى أنه هو نفسه قد تهور إلى درجة الكتابة والتأليف... ولكن الشاعر قفز آنذاك من كرسيه. قال إن فأرة صاءت في الكسوة الخشبية للجدار. والحقيقة هـي- كما فسّر هو- أن أعصابـه كانت في حالة تجعل حتى من صأي فـأرة سبباً لتوترها خلال أسبوعين كاملين. لا شك أن المنزل كان مليئاً بالهـوام، ولكن أورلندو لم يكن يسمع أصواتها. ثم قصّ الشاعر على أورلندو الحكاية الكاملة لصحته خلال السنين العشر الفائتة أو نحوه. كانـت صحته في حالة سيئـة حتى ليتعجب المرء أنه مـا زال على قيد الحياة. لقد أُصيب بالشلل والنقرس والبرداء والاستسقاء وثلاثة أنواع مـن الحمى بالتتابـع؛ وزد على ذلك قلبـاً متضخماً وطحـالاً متورماً وكبـداً مريضـة. ولكن فوق كل ذلـك هناك إحساسـات في عموده الفقري تتحدى الوصف. كان هناك عقدة في الفقرة الثالثة من الأعلى تحرقه كما النار، وأخـرى في الثانية من الأسفل كانت باردة كالجليد. كان يستيقظ أحياناً بدماغ كالرصاص، وفي أحيان أخرى وكأن ألف شمعـة منارة والناس تلقي بألعاب ناريـة في جوفه. قال إنه كان يشعر بورقـة شجرة ورد تخزه عبر فرشته، وإنـه كان يعرف سبيله في أرجاء

لندن من ملمس الحصى على الطرقات. كان بالإجمال آلة متقنة الصنع ومصممة على نحو غريب جداً (رفع يده كأنما دون وعي منه وبالفعل كانت ذات أروع شكل ممكن تخيله) حتى أنه مذهول في التفكير بأنه لم يبعِ سوى خمسمائة نسخة من قصيدته، ولكن كان هذا بالطبع عائداً في معظمه إلى مؤامرة حيكت ضده. كل ما استطاع قوله، كما استنتج أخيراً وهو يضرب المائدة بقبضته، إن فن الشعر قد مات في إنكلترا.

ولكن كيف يمكن هذا وهناك شكسبير ومارلو وبن جونسون وبراون ودون، وكلهم ما زالوا ينظمون الشعر أو انتهوا للتو من نظمه؟ لم يستطع أورلندو التفكير وهو يدير أسماء أبطاله المفضلين في ذهنه.

ضحك غرين بتهكم. أقرّ بأن شكسبير قد كتب بعض المشاهد التي كانت جيدة بما فيه الكفاية، ولكنه اقتبسها في الأغلب عن مارلو. كان مارلو واعداً، ولكن ما قولك بشاب مات قبل أن يبلغ الثلاثين؟ أما ما يخص براون، فقد كان يؤيد كتابة الشعر في النثر، وسرعان ما ملّ الناس من مثل هذا الخداع. أما "دون" فكان غشاشاً يلفّ افتقاره للمغزى بكلمات صعبة. انخدع به السذّج، ولكن الأسلوب سيكون باطل الطراز بعد اثني عشر شهراً من ذلك. أما بن جونسون... كان بن جونسون صديقه وهو لا يذمّ صديقاً قط.

كلا، هكذا استنتج في النهاية، فعصر الأدب العظيم قد ولّى؛ إذ أن عصر الأدب العظيم كان أيام الإغريق. العصر الإليزابيثي أقل شأناً من كل النواحي بالمقارنة مع الإغريقي. في مثل تلك العصور يتعلق الناس بطموح مقدس يمكنه أن يسميه بـ «La Gloire» "المجد" (ولكنه

لفظها "لا غلور" بدلاً عن "لا غلوار" حتى أن أورلندو لم يفهم معناها في البداية). الآن جميع الكتاب الشبان يتلقون رواتبهم من بائعي الكتب، لذا فهم يصبّون أي قمامة صالحة للبيع. كان شكسبير المذنب الرئيسي في هذا المضمار وهاهو قد سبق له وراح يدفع الغرامة الآن. قال إن عصرهم يتميز بمبالغات ثمينة وتجارب جامحة... ما كان الإغريق سيحتملونها ولو لبرهة واحدة. ورغم أنه يؤلمه أن يقول ذلك، فهو يحب الأدب كما يحب حياته، إلا أنه قادر على ألا يرى أي خير في الحاضر وليس لديه أي أمل في المستقبل. وهنا صبّ لنفسه كأس نبيذ آخر.

صُدم أورلندو بهذه الأفكار، ولكنه لم يستطع سوى أن يلاحظ أن الناقد نفسه لم يبدُ مكتئباً على الإطلاق. بل العكس هو الصحيح، فكلما زاد في استنكار عصره، كلما أصبح أكثر رضا عن نفسه. قال إنه كان قادراً على تذكر ليلة في حانة "كوك تافرن" في شارع "فليت" حضر فيها "كيت [كريستوفر] مارلو مع آخرين. كان "كيت" ثملاً وكان يثمل بسهولة، وفي مزاج يجعله يتلقط بأمور سخيفة. كان قادراً على مشاهدته الآن، وهو يلوح بكأسه مهدداً رفاقه وهو يحزق قائلاً: "إطعن أحشائي يا بيل (يعني بذلك ويليم شكسبير، لأن بيل هو تدليل اسم ويليم) فهناك موجة عظيمة قادمة وأنت على قمتها"؛ وكان يعني بذلك- كما فسر غرين- أنهم كانوا مشرفين على عصر عظيم للأدب الإنكليزي، وأن شكسبير سيكون شاعراً ذا أهمية. ولحسن حظه، قُتل بعد ليلتين في شجار مخمور، وهكذا لم يعش ليرى مدى صدق نبوءته. قال غرين: "يا للأحمق المسكين! كيف خطر له أن يقول مثل هذه الأمور! عصر عظيم بالفعل... العصر الإليزابيثي العظيم!"

تابع يقول وهو يستقر بارتياح في كرسيه ويفرك كأس النبيذ بين

أصابعه: "لذا يا لوردي العزيز، علينـا أن نتفاءل ونتعلق بالماضي ونجلّ أولئـك الكتاب – ما تزال قلة منهم موجودة بيننا– الذين يتخذون من الأدب القديم مثالاً لهم، ليس لأجل المال، بل لأجل الغلور» (كان يمكن لأورلنـدو أن يتمنى له لكنـة فرنسية أفضل). قال غرين: «لا غلور هو الحافز للعقول النبيلة. لو كان لديّ راتب تقاعدي من ثلاثمائة جنيه في السنة يُدفع كل ثلاثة أشهـر، لعشت من أجل الغلور وحده. سأمكث في فراشي كل صباح وأنا أطالع شيشرون. كنت سأقلد أسلوبه حتى ما كنـت لتستطيع أن تميز الفرق بيننا. هذا مـا أسميه الكتابة الراقية. هذا مـا أسميه بالغلور. ولكن من الضروري أن يكون لديّ راتب تقاعدي حتى أفعل ذلك.

آنئـذ كان أورلنـدو قـد فقـد كل الأمـل في مناقشـة أعمالـه هو مـع الشاعـر، ولكن هذا مـا كان مهماً حـين تطرق الحـوار إلى سيَر وشخصيات شكسبير وبن جونسون والبقية الباقية من الكتاب، وكان غرين قد عرفهم جميعاً عن قرب ولديه آلاف النوادر يرويها عنهم وهي من النـوع المسلّي جداً. لم يسبق لأورلندو أن ضحك على هذا النحو من قبل. أولئك كانوا آلهتـه إذاً! نصفهم من السكيرين وجميعهم من المغرمين. كان معظمهم يتشاجرون مع زوجاتهم و لم يتورع أي منهم عـن الكـذب أو التآمر بأحقر وسيلة ممكنة. كانـت أشعارهم تُخربش على أقفيـة فواتير الغسيـل مرفوعة على رؤوس شياطـين المطابع عند باب الشـارع. هكذا كُتبت «هملت» وأرسلـت إلى المطبعة، وهكذا حـال «الملك لـير» و»عطيل». قال غرين إنـه لا عجب أن تحمل تلك المسرحيـات تلك الأخطاء. أما بقية الوقت فكانت تُنفق في احتفالات مخمـورة ومـآدب في الحانات وحدائق الجعة حيث تقـال أمور يجب أن تعتـبر على أنها من الظـرف، ويتم القيام بأمور تبخس من قدر أكثر

أعضـاء البـلاط الملكي مرحاً إذا ما قورنت بهـا. تحدث غرين عن كل هـذه الأمور بروح أوصلت أورلنـدو إلى أقصى حد من المتعة. كانت لديـه المقدرة على المحاكاة التي تحيي الموتى وكان قادراً على قول أرق الأشياء عن الكتب شريطة أن تكون قد ألفت قبل ثلاثمائة سنة.

وهكـذا مـرّ الوقت وشعـر أورلندو نحـو ضيفه بمزيـج من المودة والاحتقار، من الإعجـاب والرثاء، وكذلك بشيء من الغموض حتى لا يمكـن منحـه أي اسم، ولكن فيـه شيء من الخوف ومـن الافتنان. تكلـم دون توقـف عن نفسه ولكـن صحبته كانت جيـدة إلى درجة تجعـل المرء يصغـي إلى قصة البرداء التـي ألمت به إلى الأبـد. كما كان شديـد الظرف وشديد الوقاحة. ثم كان يتكلم بتهور كامل وهو يذكر اسمـي «الله» و«المرأة». كما كان صاحب خدع كثيرة ولديه معارف غريبة في رأسـه. كان قادراً على صنع السلَطة بثلاثمائة طريقة مختلفة، ويعرف كل ما يمكن معرفته عن الخمور ويعزف على نصف دزينة من الآلات الموسيقيـة؛ كما كان أول شخص، وربمـا آخر شخص يعرف كيـف يحمّص الجبن في الفرن الإيطـالي الضخم. كما دُهش أورلندو مـن أنه لم يكـن يميز نبتة إبرة الراعـي من القرنفـل، ولا السنديانة من شجرة البتـولا، ولا كلب الدرواس من كلب الصيـد السلوقي، ولا الخروف مـن النعجة، ولا القمـح من الشعـير، ولا الأرض المحروثة مـن الأرض المراح. وكان جاهلاً بـدورة المحاصيل ويظن أن البرتقال ينمـو تحت الأرض والكرنب على الشجر. كما كان يفضل أي مشهد مدينـي على مشهد طبيعـي. كل هذا والمزيد منه أثـار دهشة أورلندو الـذي لم يسبق له أن قابـل شخصاً من هذا النوع مـن قبل. لقد جعل حتـى الخادمات اللواتي يحتقرنه يضحكـن في أكمامهن على نكاته، أما الخدم الذين كرهوه فكانوا يتلبثون في المكان ليصغوا إلى حكاياته.

وبالفعل لم يسبق للمنزل أن كان مترعاً بالحيوية في وجوده، مما منح الكثير من الأمور ليفكر أورلندو بها وجعلته يقارن هذا الأسلوب في الحياة مع الأسلوب القديم. تذكر نوع الحديث الذي كان يُدار حول فالج ملك إسبانيا أو جماع الكلبة. فكّر كيف أن اليوم قد مرّ بين الإسطبلات وغرفة الملابس. تذكر كيف كان اللوردات يشخرون وهم يحتسون الخمر ويبغضون أي شخص يوقظهم. فكّر كم كانوا نشيطين وشجعاناً في الأبدان وكم هم كسولون وجبناء في الأذهان. وإذ أقلقته هذه الأفكار ولأنه غير قادر على تحقيق التوازن المطلوب، فقد وصل إلى نتيجة مفادها أنه أدخل إلى منزله روحاً وبائية من القلق لن تجعله يعرف النوم العميق ثانية.

في تلك اللحظة نفسها توصل «نيك غرين» إلى عكس هذا الاستنتاج بالضبط. كان مستلقياً في فراشه فوق أطرى الوسائد بين أنعم الشراشف وهو يتطلع من نافذته ذات المشربية وفيها تربة من الخث لم تعرف منذ ثلاثة قرون لا نبتة الهندباء ولا عشبة الحمّاض؛ ففكر أنه إن لم يستطع النجاة بطريقة ما فسوف يختنق حياً. نهض وسمع الحمام وهو يهدل، وبينما راح يرتدي ملابسه سمع ماء النوافير وهو يسقط، ففكر بأنه إن لم يستطع سماع العربات الواطئة وهي تجأر فوق حصى شارع فليت فلن يكتب سطراً آخر قط. لو طال هذا أكثر، كما فكر، وهو يسمع الخادم يصلح النار وينشر الأطباق الفضية على المائدة، فسوف أنام (وهنا تثاءب تثاؤبة هائلة) وأموت في نومي.

وهكذا سعى إلى أورلندو في غرفته وشرح له أنه لم يتمكن من النوم ولو لبرهة طوال الليل بسبب الصمت. (بالفعل كانت الدارة محاطة بحديقة محيطها خمسة عشر ميلاً ومن حولها جدار بارتفاع عشرة أقدام.) قال إن الصمت هو من أكثر الأمور التي تضغط على أعصابه،

وإنه سينهي زيارته في ذلـك الصباح بالصباح بالذات بعد نيل موافقة أورلنــدو. شعر أورلنــدو ببعض الراحة لهذا القــرار، ولكن مع بعض الــتردد في تركه يرحل. ستبدو دارته مملة جــداً، كما فكر، دونه. عند الفــراق (فهو لم يسبق له بعد أن أحب ذكــر الموضوع) بلغ به الطيش حــداً أن أعطــى الشاعــر مسرحيته عن «موت هرقــل» وطلب منه أن يعطيه رأيه فيها. أخذها الشاعر وهمهم بشيء ما عن الغلور وشيشرون ولكــن أورلندو قاطعه بأن وعده بدفــع راتب تقاعدي له فصلياً. وهنا قفز غرين، مع تعابير كثيرة عن المودة، إلى العربة ورحل.

لم يبــد الرواق العظيــم واسعاً ورائعاً وفارغــاً إلى هذا الحد من قبل بينما سارت العربة في طريقها. عرف أورلندو أنه لن يجرؤ مرة أخرى علــى صنع الجبن المحمّص في الموقد الايطالي مــرة أخرى. ولن يتمتع بالظــرف الكافي لإلقاء النكات عن اللوحات الإيطالية؛ ولن تكون له المهــارة الكافية لمــزج البنتش كما يتوجب أن يُمــزج. ستضيع منه ألف نــادرة جيدة ونزوة غريبة. ومع ذلك فيــا لها من راحة أن يتخلص من ضجة ذلك الصوت كثــير التشكي، ويا لها من نعمة أن يكون وحيداً مرة أخرى، حتى أنه لم يستطع مغالبة التفكير، وهو يفك وثاق الكلب الدرواس الذي كان مربوطاً به منذ ستــة أسابيع، في أنه لن يرى ذلك الشاعر دون أن يعضه.

أنزل «نيــك غرين» عند زاوية زقاق «فليــت لاين» في عصر ذلك اليــوم، فوجد الأمور تسير كما تركهــا بالضبط. كانت السيدة غرين، على وجــه الخصوص، في حالة مخاض في إحدى الغرف، وتوم فلتشر يحتســي شــراب الجِن في غرفة أخــرى. وكانت الكتــب مبعثرة فوق الأرضيــة كلها. الغذاء جاهز فــوق منضدة التزيين حيث كان الأطفال يصنعــون دمــى من الطين. ولكــن غرين شعر أن هذا هــو جو الكتابة

الملائم؛ هنـا يستطيع الكتابة وقد قام بالكتابـة. كان الموضوع جاهزاً لديه. زيارة إلى رجل نبيل في الريف : كانت قصيدته الجديدة ستحمل عنواناً كهذا. أمسك غرين بالقلم الذي كان ابنه الصغير يدغدغ به أذني القطـة وغمسه في كاس البيضة الذي كان دواته، وأنجز بسرعة قصيدة هجائيـة جريئة جـداً على الفور. وقد كتبها بحيـث لا يمكن لأحد أن يشك في أن اللورد الشاب الذي تم (تحميصه) أو هجاؤه هو أورلندو. كانـت أشد أقواله وأفعاله خصوصية وحماساته وحماقاته وحتى لون شعره وأسلوبه الأجنبي في تدوير حرف الراء بلسانه مذكورة بالضبط. ولو كان هناك أي شك في الأمر، فإن غرين ثبّت المسألة بأن قدّم دون أن أي إخفاء تقريباً مقاطع من التراجيديا الأرستقراطية «موت هرقل»، والتي وجدها، كما توقع، كثيرة الإطناب والتنميق.

هـذه الكراسـة، التي طبعت عـدة طبعات على الفـور، وسددت نفقات وضع السيـدة غرين لطفلها العاشر، سرعان ما أُرسلت من قبل أصدقـاء يهتمون بمسائل كهـذه إلى أورلندو نفسه. بعد أن قرأها، وقد فعل ذلـك بهدوء قاتل، مـن البداية حتى النهايـة، رن الجرس للخادم وسلمـه الوثيقة برأس ملقاط وأمـره أن أن يرميهـا في القلب الأقذر لأوسخ كومة روث في الضيعـة. ثم، حين كان الرجل يلتفت ليغادر، أوقفه. قال: »خذ أسرع حصان في الإسطبل وامض بأسرع ما يمكن إلى هارويتش ثم اركب سفينة متجهـة إلى النرويج. اشتر لي من وجارات الملـك الخاصة أفضل كلاب لصيـد الأيائل من الأرومة الملكية، ذكوراً وإناثـاً. عدْ بها إلى هنا دون تأخير، فقد يئست من البشر.» وقد همهم بالكلمات الأخيرة بصوت هامس وهو يلتفت إلى كتبه.

انحنـى الخادم الذي كان مدرباً تماماً على تأدية واجباته، واختفى. وقـد أدى مهمته على أكمل وجه فعاد بعد ثلاثة أسابيع بالضبط، وهو

يقود في يده سيراً ربطت به أفضل كلاب صيد الأيائل، وقد وضعت أنثى من بينها في تلك الليلة بطناً من ثمانية جراء جميلة تحت مائدة العشاء. وقد طلب أورلندو إحضارها إلى غرفة نومه.

قال: «لأني يئست من البشر».

وعلى الرغم من ذلك كله فقد راح يدفع الراتب التقاعدي فصلياً.

وهكذا في سن الثلاثين أو نحوه، لم يكن هذا النبيل الشاب قد مرّ بكل تجربة يمكن للحياة أن تقدمها فحسب، بل وعرف تفاهة ذلك كله. الحب والطموح، النساء والشعراء، كل هذا عبثي بالتساوي. الأدب عبارة عن فارْس. ففي الليلة التي تلت تلك التي قرأ فيها «زيارة غرين إلى رجل نبيل في الريف»، أحرق في نار كبيرة سبعة وخمسين عملاً شعرياً ولم يستبق سوى «شجرة السنديان» التي كانت حلمه الصبياني وقصيرة جداً. بقي فيه شيئان فحسب يمكنه أن ثق بهما: الكلاب والطبيعة: كلب صيد الأيائل وشجرة الورد. لقد تقلص العالم بكل تنوعه والحياة بكل تعقيدها إلى هذين الشيئين. أضحت الكلاب والشجرة العالم كله. لذلك بعد أن شعر بالتحرر من جبل ضخم من الوهم، وأصبح مجرداً تماماً نتيجة لذلك، فقد نادى على كلابه وراح يتمشى في الحديقة الكبيرة.

طالت عزلته وكتابته ومطالعاته حتى أنه نسي بعض الشيء نواحي اللطف في الطبيعة التي تكون عظيمة في حزيران (يونيو). حين وصل إلى تلك الرابية العالية التي يمكن منها في الأيام الصافية مشاهدة نصف إنكلترا وشريحة من ويلز وسكوتلاندا، رمى بنفسه تحت سنديانته الأثيرة وشعر أنه قد يتدبر ما تبقى له من السنوات في قناعة مقبولة لو دعت الحاجة إلى ألا يخاطب رجلاً آخر أو امرأة أخرى طالما هو على

قيـد الحياة؛ وألا تطور كلابه القدرة على النطق؛ ولو لم تتح له الفرصة لمقابلة شاعر أو أميرة مرة أخرى؛ فسوف يعيش ما تبقى له من سنوات في رضا مقبول.

راح يأتي إلى هنا إذاً، يوماً بعد يوم وأسبوعاً في إثر أسبوع، وشهراً وراء شهـر، وسنـة في إثر أخرى. رأى شجر الـدراق يتحول لونه إلى الذهبـي ونبـات السرخس الصغير وهو يتفتـح، والهلال وهو يتحول إلى بدر؛ رأى ... ولكن ربما يستطيع القارئ تخيّل المقطع الذي سيلي وكيف أن كل شجرة ونبتة في ذلك المكان ستوصف على أنها خضراء أولاً ثم ذهبية؛ وكيف أن القمر سيبزغ والشمس تغرب؛ وكيف سيتبع الربيـع الشتـاء والخريف الصيـف؛ وكيف سيلي الليـل النهار والنهار الليـل؛ وكيف ستكون هنـاك عاصفة أولاً ثـم الطقس الجميل؛ كيف ستبقـى الأشياء كما هي لمائتـين أو ثلاثمائة سنة قادمـة أو نحو ذلك؛ باستثنـاء القليل مـن الغبار وبعض بيوت العنكبـوت التي يمكن لامرأة عجـوز أن تمسحها خلال نصف ساعة. إنهـا نتيجة لا يمكن للمرء أن يغالـب الشعور بأنه تم التوصل إليهـا على نحو أسرع بالعبارة البسيطة القائلة «لقد مرّ الزمن» (هنا الكمية بالضبط يمكن أن يشار إليها ضمن قوسين) و لم يحدث أي شيء إطلاقاً.

ولكن الزمـن، لسوء الحظ، وعلى الرغم مـن أنه يجعل الحيوانات والخضار تزهر وتذوي بدقة مذهلة، ليس لديه هذا التأثير البسيط على ذهن الإنسان. فذهن الإنسان زيادة على ذلك يؤثر بغرابة مكافئة على جسم الزمن. فالساعة الواحدة، ما أن تقطن في العنصر العجيب للروح البشرية، قد تمتـدّ إلى خمسين أو مائة ضعف من طولها حسب الجهاز الذي نسميه «الساعة». ومن ناحية أخرى، يمكن للساعة أن تُمثّل بدقة علـى «ساعة» الذهن بثانية واحدة. هذا التناقض الاستثنائي بين الزمن

الذي هو على «الساعة» والزمن الذي في الذهن أمر ليس معروفاً كما يجب أن يُعرف، ويستحق بحثاً أوفى من قبل كاتب السيرة. ولكن على كاتب السيرة، الذي تكون اهتماماته، كما قلنا سابقاً، محدودة جداً، أن يقصر نفسه على بيان بسيط واحد: حين يصل رجل إلى سن الثلاثين، كما هي حال أورلندو الآن، يحين وقت يصبح فيه التفكير طويلاً إلى حد مفرط، والفعل قصيراً إلى حد مفرط. وهكذا كان أورلندو يعطي أوامره ويدير شؤون أعمال أملاكه الواسعة في برهة؛ ولكنه يكون بعد ذلك مباشرة وحيداً فوق الرابية تحت السنديانة، وتبدأ الثواني تستدير وتمتلئ حتى تبدو وكأنها لن تسقط أبداً. ولكنها كانت تملأ نفسها زيادة على ذلك بأغرب تشكيلة من الأشياء. فهو لم يجد نفسه فحسب مواجهاً بمشاكل حيرت أحكم الناس، من مثل: ما هو الحب؟ ما هي الصداقة؟ ما هي الحقيقة؟ ولكنه راح يفكر فيها مباشرة، وكذلك ماضيه كله الذي بدا له ذا طول وتنوع مفرطين، واندفع ينغمس في الثانية الساقطة وضخّم حجمها اثنتي عشرة مرة عن حجمها الطبيعي وملأها بكل البقايا التي في الكون.

في مثل هذا النمط من التفكير (أو سمّه ما شئت) أنفق شهوراً وسنوات من حياته. ولن نبالغ لو قلنا إنه كان يخرج بعد الفطور رجلاً في الثلاثين ويعود إلى بيته لتناول وجبة الغداء في سن الخامسة والخمسين على الأقل. كانت بضعة أسابيع تضيف قرناً إلى سنه، وأسابيع أخرى لا تضيف أكثر من ثلاث ثوان. بالإجمال، كانت مهمة تقدير طول حياة الإنسان (لا نتطاول فنتطرق إلى سن الحيوانات) أمراً خارجاً عن نطاق قدرتنا، فنحن نقول مباشرة إنها بطول عصور، كما نُذكّر بأنها أقصر من سقوط ورقة ورد على الأرض. بين القوتين اللتين تتناوبان (وما هو أكثر إرباكاً وفي اللحظة نفسها) على السيطرة على

غبائنا التعيس- القصَر والديمومة- فقد كان أورلندو أحياناً تحت تأثير الآلهة ذات الأَقدام الفيليّة، ثم الذبابة التي لها جناحي بعوضة. بدت الحياة له ذات طول مذهل. وعلى الرغم من ذلك، كانت تمضي كومضة. ولكن حتى حين كانت تمتدّ إلى أطول مدى وكانت اللحظات تتضخم جداً ويبدأ بالتساؤل وحيداً في صحارى الخلود الوسيع، لم يكن هناك من وقت لتمسيد وفك رموز تلك الرقوق المخطوطة كافة والتي لفتها بإحكام في قلبه ودماغه ثلاثون سنة من العيش بين الرجال والنساء. وقبل زمن طويل من توقفه عن التفكر في الحُبّ (كانت السندانة قد طرحت أوراقها ورمت بها إلى الأرض اثنتي عشرة مرة خلال هذه العملية) كان الطموح سيدفعها خارج الحقل، لتحل محله الصداقة أو الأدب. وبما أن المسألة الأولى لم تجد حلاً - فما هو الحُب- فإنها كانت تعود إليه عند أقل تحريض أو دون تحريض، وتطرد إلى الهامش الكتب أو الاستعارات أو ما الذي يعيش الإنسان من أجله، وهناك سيكون عليها أن تنتظر حتى ترى فرصة العودة بسرعة إلى الحقل مجدداً. وما جعل العملية أطول حتى كان أنها مزينة بالرسوم الكثيفة، ليس بالصور فحسب، كصورة الملكة إليزابيث العجوز تلك الموضوعة على مقعدها المغطى بنسيج حريري مقصب وقد حملت في يدها علبة النشوق خاصتها، وهناك سيف ذو مقبض ذهبي إلى جانبها؛ ولكن بالروائح العطرة- فقد كانت تعطر نفسها بقوة... وبالأصوات. كانت الأيائل تنبح في منتزه ريتشموند في ذلك اليوم الشتائي. وهكذا، فإن فكرته عن الحب ستغطى بقشرة كهرمانية من الثلج والشتاء، بنيران الحطب المتقد والنساء الروسيات والسيوف الذهبية ونباح الأيائل؛ بالملك جيمس العجوز واللعاب يسيل من فمه والألعاب النارية وأكياس الكنوز في عنابر سفن إليزابيث المبحرة. ما أن يحاول أن يزيح أي شيء من مكانه في ذاكرته، كان يجده مثقلاً

بمادة أخرى مثلما يحدث لقطعة من الزجاج بعد سنة من بقائها في قاع البحر إذ تلتصق بها العظام واليعاسيب وقطع النقود وغدائر شعر النساء الغارقات.

كان يصيح وهو يقول: »مجاز آخر وحق جوبيترا« (وهذا يكشف عن الطريقة غير المباشرة التي كان ذهنه يعمل بها ويفسر لم كانت السنديانة تزهر وتذبل مراراً قبل أن يصل إلى أي نتيجة تتعلق بالحب). كان يسأل نفسه: «وما الفائدة من ذلك؟ ولماذا لا نقول ببساطة وبكلمات كثيرة ...» ثم يحاول أن يفكر لنصف ساعة- أو هل كانت تلك سنتين ونصف سنة؟ - كيف نعبر ببساطة وبكلمات كثيرة عما هو الحب. جادل قائلاً: »شكل كهذا غير صادق بجلاء فلا توجد يعاسيب تستطيع العيش في قاع البحر إلا تحت شروط استثنائية جداً. ولو كان الأدب ليس عريس وشريك فراش الحقيقة، فما هو؟ اللعنة عليها جميعاً! هكذا صاح، ثم استأنف قائلاً: « لم نقول شريك فراش حين سبق وقلنا عريساً؟ لم لا يقول المرء ببساطة ما يعنيه ويتركه في حاله؟»

ثم حاول أن يقول إن العشب أخضر والسماء زرقاء وذلك ليسترضي الروح الصارمة للشعر التي رغم بعدها الكبير عنه لم يستطع مغالبة تبجيلها. قال: »السماء زرقاء والعشب أخضر.» رفع بصره فرأى أن الأمر على العكس من ذلك إذ كانت السماء أشبه بخُمُر رمتها ألف امرأة مسلمة من على شعورهن؛ وكان العشب يتموج بسرعة ويعتم لونه شأن سرب من الفتيات الهاربات من عناق آلهة الساطير المشعرانية من قلب غابات مسحورة. قال: (فقد كان قد اكتسب عادة التكلم بصوت مرتفع) «أقسم أني لا أرى ذلك أكثر صحة من غيره. كلاهما مزيفان تماماً.» وهنا شعر باليأس من التمكن من حلّ مسألة ما

هو الشعر وما هي الحقيقة، ووقع في حالة اكتئاب عميق.

وهنا قد ننتفع بتوقف في مناجاته لنفسه للتأمل في كم كان أمراً غريباً مشاهدة أورلندو مستلقياً هناك مستنداً إلى مرفقه في يوم من أيام حزيران (يونيو) وأن نفكر في أن هذا الشخص الرقيق المحتفظ بكل قدراته والمتمتع بجسد صحيح، والشاهد على ذلك وجنتاه وأعضاؤه- شخص لم يسبق أن فكر مرتين قبل ترؤس هجوم أو الدخول في مبارزة – أن يكون خاضعاً إلى هذا الحد لكسل التفكير وأن يصبح شديد الحساسية بسبب ذلك، حتى أنه حين نصل إلى موضوع الشعر أو كفاءته في هذا المجال، فقد كان شديد الخجل شأن فتاة صغيرة خلف باب كوخ أمها. في اعتقادنا أن سخرية غرين من المأساة التي ألّفها أورلندو قد آذته بقدر ما ألحقت به الأذى سخرية الأميرة من حبه. ولكن لنعد إلى سيرتنا...

تابع أورلندو التفكير. ظل ينظر إلى العشب والسماء ويحاول أن يتأمل في مسألة ما سيقوله شاعر حقيقي نُشرت قصائده في لندن عن هذه القصائد. في هذه الأثناء كانت الذاكرة (التي سبق ووصفنا عاداتها) تبقي راسخة أمام عينيه صورة وجه نيكولاس غرين، وكأن ذلك الرجل المتهكم الثرثار، الخائن كما برهن على ذلك بنفسه، هو إله الشعر بشخصه، وأن على أورلندو أن يقدم له آيات الإجلال. لذا، عرض عليه أورلندو في ذلك الصباح الصيفي عدداً متنوعاً من الجمل، بعضها جمل بسيطة وأخرى بارزة، ولكن نيك غرين ظل يهزّ برأسه ويسخر ويهمهم بأشياء عن «الغلور» وشيشرون وموت الشعر في زماننا. وأخيراً، نهض أورلندو واقفاً على قدميه (كان الفصل شتاء وشديد البرودة) فأقسم قسماً مهماً من أهم ما أقسم به خلال حياته، فقد ألزمه بعبودية صارمة. قال: »فلأُمحق لو أني كتبتُ كلمة واحدة بعد

الآن أو حاولــت ذلك لأرضي نيــك غرين أو آلهة الشعر. سأكتب من الآن فصاعــداً، سواء كانت كتابتــي سيئة أو جيدة أو لامبالية، لأرضي نفســي.» وهنا حــرك يديه وكأنه يمزق كومة من الــورق ثم يرميها في وجــه ذلك الرجل المتهكم الثرثار. عنــد ذاك، وكما يجفل جرو حين تنحني أنت لترميه بحجر، أبعدت الذاكرة صورة نيك غرين عن مرمى النظر، و لم تستبدل به شيئاً آخر على الإطلاق.

ولكــن أورلندو تابع التفكــير على أي حال. كان لديــه بالفعل ما يفكر فيه. حين مزق المخطوطة فقد مزق في مزقة واحدة الوثيقة ذات الزينة الثقيلــة ، أو الوثيقة المزخرفة التي كان قد كتبها لصالحه في عزلة غرفتــه منصباً نفسه، كما يعين الملــك السفراء، الشاعر الأول في قومه والكاتــب الأول في عصره، ومانحاً روحه خلوداً أبدياً وواهباً جسده قــبراً بــين أشجار الغــار والرايات الغامضــة لإجلال الشعــب الدائم. ورغــم كل هذه البلاغة، فقد مزقها الآن ورمى بها في سلة المهملات. قال: »الشهــرة تشبه (وبما أن نيك غريــن لم يكن هناك ليوقفه فقد تابع الاحتفــال بصور سنختار منهــا واحدة أو اثنتين مــن أكثرها هدوءاً): «معطف مزركش يعيق حركة الأعضاء؛ سترة من الفضة تشكم القلب؛ ترس ملون يغطي فزّاعة طيــور»، إلخ، إلخ. كانت قوة عباراته تتجلى في أنــه بينما تعيق الشهرة وتخنق، فــإن خمول الذكر يلتف من حول الشخص كأنه غمامة. خمول الذكر مظلم وواسع وحرّ. يدع خمول الذكر الذهن يشق طريقه دون عوائق. تنهمر فوق خامل الذكر أمطار العتمة الرحيمــة. لا أحد يعرف أين يذهب ولا من أين يأتي. قد ينشد الحقيقة وينطق بها؛ هو وحده الحرّ؛ هو وحده الصادق؛ هو وحده من يشعر بالأمان. وهكذا انغمس في مزاج هادئ، تحت السنديانة، حيث بدت قساوة جذورها الظاهرة فوق الأرض مريحة وليس العكس.

وبينما هو غارق منذ مدة طويلة في أفكار عميقة حول قيمة الأمان، ومتعة أن كون المرء غفلاً من الاسم، ولكن أن يكون كموجة تعود إلى الجسد العميق للبحر. راح يفكر كيف أن خمول الذكر يخلص المرء من الضيق الذي يسببه الحسد والحقد؛ ويُجري في العروق المياه الحرة للكرم أسلوب كل الشعراء العظام، كما افترض (رغم أن معرفته باليونانية لم تكن كافية لدعمه)، فقد فكر في أن شكسبير قد كتب شيئاً كهذا لا بدّ وأن بناة الكنيسة قد بنوا على هذا النحو، دون ذكر للأسماء، ودون الحاجة إلى الشكر أو ذكر الأسماء، ولكن بمجرد عملهم في النهار وربما القليل من الجعة ليلاً. فكر وهو يمطّ أعضاءه تحت السنديانة: «يا لها من حياة مثيرة للإعجاب هذه الحياة ولماذا لا أتمتع بها في هذه اللحظة بالذات؟» اخترقته الفكرة كرصاصة. سقط الطموح كأنه فادن. تخلص من الحرقة التي سببها حبه المرفوض وغروره الذي عرف التأنيب، وجميع الوخزات والأشواك التي وخزه بها حوض أشواك الحياة حين كان طموحاً إلى الشهرة، ولكنه لم يعد قادراً على فرض نفسه على من هو غير آبه بالمجد، ففتح عينيه – اللتين كانتا مفتوحتين على وسعهما طوال الوقت ولكنهما لم تريا سوى الأفكار– ورأى دارته التي كانت قابعة في الوهدة تحته.

هاهي تقبع تحته تحت شمس الربيع الباكرة. بدت كبلدة أكبر منها كدارة، ولكنها دارة مشيدة، ليس في أرجاء المكان كله كما رغب هذا الرجل أو ذاك، بل بوعي من قبل مهندس معماري فريد بفكرة واحدة في رأسه. فناءات ومبان بلون رمادي وأحمر وخوخي، وكلها مرتبة بانتظام وتناسق. كان بعض الفناءات مستطيلاً وبعضها مربعاً. وكان في أحدها نافورة وفي الآخر تمثال. كان بعض الأبنية منخفضاً وبعضها مستدقاً. هنا ترى مصلّى وهناك برج جرس. وكانت مساحات فارغة

مغطـاة بالعشب شديد الخضرة تقع بين تلـك الأبنية وكذلك أجمات من شجر الأرز وأحواض الزهور البراقة. كان كل شيء مطوقاً بسلسلة من الجدران الضخمة، ولكنه مرتب بحيث يبدو أن كل جزء لديه مجال للتوسـع على نحو ملائم؛ بينما كان الدخـان من مداخن لا حصر لها يخـرج ملتفاً نحـو الهواء. فكر أورلنـدو في أن هذا المعمـار الفسيح الضخـم الذي يمكن أن يؤوي ألف شخص وربما ألفي حصان، قد بُني من قبـل عمال غفل من الأسماء. لقد عاشت هنـا ولقرون لا أستطيع عدّها الأجيـال المجهولة من الأسر الخاملة الذكـر نفسها. لم يترك أي من هؤلاء المسمين بريتشارد وجـون وآن وإليزابيث وراءه تذكاراً عن نفسه، ولكنهـم جميعاً إذ عملوا بمجارفهم وأبرهم وممارستهم للحب وإنجابهم للأطفال فقد تركوا هذه الدارة.

لم يسبق أن بدت الدارة أكثر نبلاً وإنسانية.

لماذا إذاً كان يرغب في السمو بنفسه إلى ما هو أعلى من مستواهم؟ فقـد بدا أمـراً عبثياً ووقحـاً إلى أقصى حد أن يحـاول أن يتفوق على ذلـك العمل الخلاق وجهد تلك الأيـدي الفانية. من الأفضل أن تبقى مجهـولاً وتترك خلفك قوساً أو سقيفة لـلأدوات أو سوراً تنضج خلفه ثمـار الـدراق على أن تحترق كشهاب ولا تترك حتـى الرماد. قال في نفسـه – وهو يشعـر بالإثارة، وبينمـا راح ينظر إلى الـدارة العظيمة علـى المرج الأخضر في الأسفـل، إن اللـوردات والسيدات النبيلات المجهولين الذين عاشوا هناك على أي حال لم ينسوا قط أن يتركوا شيئاً مـا لمن سيأتـي بعدهم؛ للسقف الذي سيرشح منه المـاء والشجرة التي ستسقـط. كانت هنـاك دائماً زاوية دافئة للراعـي العجوز في المطبخ، وطعام دائم للجائعين، وكانت أقداحهم مصقولة على الدوام حتى لو كان المرض قد أقعدهم في الفراش؛ وكانت نوافذهم مضاءة رغم أنهم

كانــوا يحتضرون. فعلى الرغم من أنهم كانــوا لوردات إلا أنهم كانوا قانعين بأن يكونوا مجهولين شأن صائدي الخُلد والبنّائين... هكذا راح يخاطبهــم دون أن يراهم بدفء يناقض تمامــاً رأي النقاد الذين أسموه بالبارد واللامبالي والكسول (والحقيقة صفة تكون على الجانب الآخر مــن الجدار من حيث نبحث عنها)... وهكذا فقد خاطب دارته وبني قومه بلغة شديدة التأثير. ولكن حين وصل إلى خاتمة الخطاب، وما هي البلاغــة التي تفتقر إلى الخاتمة؟ ... فقد تلعثم. كان يود أن ينهيه بكلام منمق يفيد بأنــه سيتبع خطاهم ويضيف حجراً جديداً إلى بنائهم. وبما أن البناء على أي حال يغطي تسعة آكرات من الأرض، فإن إضافة حتى حجر واحد بدا أمراً غر ضروري. هل يمكن للمرء أن يذكر الأثاث في خاتمــة الخطاب؟ هل يمكنه أن يذكر الكراسي والمناضد والأبسطة التي توضــع قرب أسرة الأشخاص؟ مهما يكن ما تحتاج خاتمة الخطاب إليه فمــا هو سوى ما يحتــاج المنزل إليه. ترك خطابــه دون أن ينهيه مؤقتاً وراح يمشــي هابطاً التل مجدداً، وقد قرر أنه من الآن فصاعداً سيكرس نفســه لتأثيث الدارة. وكان الخبر الذي وصل إلى السيدة غريمسديتش الطيبــة العجوز بأن عليهــا أن تحضر إليه على الفور قــد جعل الدموع تطفر من عينيهــا، وهي التي أصبحت مسنة إلى حد ما. وقد تجولا في الدارة معاً.

كان حامــل المناشف في غرفة نوم الملــك يفتقر إلى أحد قوائمه (قالت: »وكان ذاك هو الملك جامي [جيمس] يا سيدي اللورد»، وهي تشير إلى أن أياماً كثيرة مرت منذ أن نام ملك تحت سقفهم؛ ولكن أيام «البرلمــان» الكريهة قد ولّت ووجد الآن تــاج في إنكلترا مجدداً). و لم تكن هناك حوامــل للأباريق الكبيرة في المختلــى الصغير الذي يؤدي إلى غرفــة انتظار وصيف الدوقة. كان السيــد غرين قد ترك بقعة على

السجادة من تدخينه المقرف للغليون، ولكنها لم تستطع حتى بمساعدة من «جودي» أن تزيلها رغم كل الفرك الذي بذلتاه. وبالفعل فإن أورلندو بدأ يأخذ في الاعتبار مسألة تأثيث كل غرفة نوم من الغرف الثلاثمائة والخمس والستين التي تضمها الدارة بكراسيّ من خشب الورد وخزائن من خشب الأرز، ورأى أنها لن تكون مسألة سهلة. ولو تبقى بضعة آلاف من الجنيهات من ثروته، فهي لن تكفي سوى لتعليق بعض سجاد الجدران على القليل من الأروقة المعمدة ووضع كراسيّ جيدة ومن الخشب المنحوت في قاعة المآدب ومرايا من الفضة المتينة وكراسيّ من المعدن نفسه (وقد كان شغوفاً إلى حد الإفراط بهذا المعدن) في غرف النوم الملكية.

بدأ يعمل بحماسة، وهذا ما يمكن البرهنة عليه دون أدنى شك لو نظرنا إلى سجلاته. فلننظر إلى ما اشتراه في ذلك الحين مع النفقات المذكورة في الهامش، ولكننا سنحذف هذه.

إلى خمسين زوجاً من البطانيات الإسبانية، ومثل هذا العدد من الستائر التافتا القرمزية والبيضاء؛ وما يعادلها من الساتان الأبيض المطرز مع الحرير القرمزي والأبيض...

إلى سبعين كرسياً من الساتان الأصفر وستين مقعداً دون ظهر ملائمة مع أغطية لأذرعتها جميعاً...

إلى سبع وستين منضدة من خشب الجوز...

إلى سبع عشرة دزينة من الصناديق وكل واحد يحوي اثنتي عشرة في خمسة في اثنتي عشرة كأساً من كؤوس البندقية.

إلى مائة بساط وبساطين وكل واحد منها بطول ثلاثين ياردة...

إلى سبع وتسعين وسادة من البروكار الدمشقي القرمزي اللون مطرزة بخيوط الفضة ومساند للأقدام من القماش وكراسيّ ملائمة...

لخمسين غصن لكل دزينة من الأنوار على حدة...

لقد سبق وتركت اللائحة تأثيرها علينا. لقد بدأنا نتثاءب. ولكن لو توقفنا فالسبب هو أن الكاتالوغ مرهق وليس لأنه انتهى. هناك تسع وتسعون صفحة أخرى منه والمبلغ الإجمالي الذي أنفق وصل إلى آلاف كثيرة من الجنيهات... أي بالملايين من عملتنا الحالة. ولو كان ينفق يومه على هذا النمط، فإن اللورد أورلندو قد يكون آخذاً بالتأمل كم سيكلفه تسوية مليون تبة من صنع الخلد لو دُفع للعمال بنسان عن كل ساعة؛ ومن جديد، كم مائة باوند من المسامير بسعر خمسة بنسات ونصف البنس لكل مكيال ستكون مطلوبة لإصلاح السياج المحيط بالحديقة وطول محيطها خمسة عشرة ميلاً. وهكذا دواليك.

نقول إن الحكاية مرهقة، فالخزانة الواحدة تشبه الأخرى كثيراً، وتبة الخلد الواحدة لا تختلف كثيراً عن مليون من أمثالها. لقد تطلب منه الأمر القيّام ببعض الرحلات الممتعة وخوض بعض المغامرات. مثلاً، حين كلف مدينة كاملة من النساء الضريرات قرب «بروج» أن يخطن ستائر لسرير ذي ظلة فضية؛ وهناك حكاية مغامرته مع المغربي في البندقية والذي اشترى منه خزانته المطلية بالورنيش (ولكن تحت التهديد بالسيف) قد تستحق الذكر بين أيد أخرى. كما لم يفتقر العمل إلى التنوع؛ فهنا قد تأتي أشجار ضخمة تم جرها من «سَسكس» لتُنشر وتوضع على امتداد البهو كأرضية. ثم هاهو صندوق من فارس مليء بالصوف والنشارة، ومنه سيأخذ أخيراً طبقاً واحداً أو خاتماً واحداً

من التوباز.

أخـيرا، لم يتبق على أي حال متسع في الأروقة لمنضدة أخرى؛ ولا متسـع على المناضـد لأي خزانة نفائس أخـرى؛ ولا متسع في خزانة النفائسـ لأي مزهرية أخـرى؛ ولا متسع في المزهريـة لأي حفنة من خلطـة من أوراق الزهر. لم يعد هناك متســع لأي شيء في أي مكان. باختصـار، تم تأثيـث الـدارة. في الحديقة كانت زهـور اللبن الثلجية والزعفران والمكحلة الحدقية والمغنوليا والورد والليلك وزهرة النجمة والدهلية بكل أنواعها، وأشجـار الأجاص والتفاح والكرز والتوت، مــع كمية هائلة مــن شجيرات نــادرة ومزهرة، ومــن الأشجار دائمة الخضـرة والدائمة على مدار السنة، والتي تنمو بكثافة شديدة الواحدة فـوق جذور الأخرى حتى لم تعد هناك قطعة واحدة من الأرض دون إزهــار، ولا مرج دون ظل. وإضافـة إلى ذلك، كان قد استورد طيوراً بريـة ذات ريش بهيج ودبين من الملايو كانت فظاظة سلوكهما تخفي على ما كان يعتقده جازماً، قلبين يستحقان الثقة.

كان كل شــيء جاهـزاً الآن، وكان الوقــت مســاء وأضيئـت الشمعدانات الجدارية التي لا تحصى، كما أن النسيم الذي كان يحرك باستمـرار الستائر الزرقاء والخضراء جعل الأمـر يبدو وكأن الصيادين كانوا يمتطون جيادهم ويسيرون بها وكأن «دافني» تطير! حين التمعت الفضة وتوهج الورنيش وتوقد الحطب، وحين مدت الكراسي المنحوتة أذرعتها وسبحت الدلافين فوق الجدران مع الحوريات على ظهورها؛ حــين أضحى هذا والمزيد منه كاملاً وحسب ما يحب، مشى أورلندو عــبر الدارة تتبعه كلاب صد الأيائل خاصته وأحس بالرضا. لديه مادة كافية الآن، كما راح يفكر، لملء خاتمة الخطاب. ربما سيكون أمراً جيداً أن يبــدأ بكتابة الخطاب من البدايــة. ومع ذلك، وبينما راح يستعرض

الأروقـة شعر أنه ما يزال هناك شيء ناقص. الكراسي والمناضد مهما تكـن مطلية بالذهـب ومنقوشـة، والأرائك التي ترتـاح على مخالب الأسـود ولهـا أعناق بجع تنحنـي تحتها، والأسرّة وحتـى الأوثر منها بريشـ البجع ليست كافية بحـد ذاتها. الأشخاصـ الجالسون عليها والأشخاص المستلقون فيها يحسّنونها إلى حد مدهش. ووفقاً لذلك، بـدأ أورلنـدو الآن بسلسلة من الحفلات المسلية للنبـلاء والطبقة العليا في الجـوار. كانت غرف النوم الثلاثمائـة والخمس والستون مشغولة دفعـة واحدة ولمـدة شهـر. كان الضيـوف يتدافعـون بالمناكب على درجـات السلالم الاثنتين والخمسـين. كان ثلاثمائة خادم يتراكضون مـن حول حجرة المـؤن وأدوات المائدة. كانت الولائـم تقام كل ليلة تقريباً. وهكذا، خلال سنوات قليلة جداً، كان أورلندو قد أبلى مخمله وأنفـق نصف ثروته، ولكنه ربح احترام جيرانه له ونال عشرين منصباً في الريف وتلقى سنوياً اثني عشر كتاباً مهداة إلى السيد اللورد أورلندو بلغة مفرطة في المديح من قبل شعراء ممتنّين. فرغم أنه كان حريصاً على عـدم معاشرة الكتّاب في ذلك الحين، وأبقى نفسه بعيداً عن السيدات الأجنبيـات، إلا أنه كان كريماً إلى حد مفرط مع النساء والشعراء الذين أحبوه إلى درجة العبادة.

ولكـن حين تكون الوليمة في أوجها والضيوف في حالة من المرح والقصـف، كان يميل إلى الانعزال في غرفته وحيداً. وحين يغلق الباب هناك، ويتأكد من عزلته، كان يخرج دفتراً عتيقاً خيط بحرير سرق من علبـة خياطة أمه، وقد عنونه بخـط يده التلميذي المدوّر باسم «شجرة السنديـان، قصيـدة». وكان يكتب في هذا الدفتر حتـى تدق الساعة معلنـة منتصـف الليل وبعد ذلك بفترة طويلة. ولكـن بينما كان يخطّ بقلمـه أبياتاً عديـدة، فإن مجموع ما كان يكتبـه كان على الأغلب في

نهايــة العام أقل بالأحرى من بدايته؛ وبــدا وكأنه خلال عملية الكتابة تمحــي القصيدة تماماً. إذاً يعود الأمــر إلى مؤرخ الأدب ليلاحظ أنه قد غــيّر أسلوبه إلى حد مدهش. لقد كُبــح تنميقه في الأسلوب وضُبطت غزارته في الإنتاج. كان عصر النثر يجمّد تلك الينابيع الدافئة. والمنظر الطبيعــي نفسه في الخارج كان أقل احتشاداً بالغار: كما كانت الورود البريــة نفسها أقل شوكاً وتعقيداً. ربما أصبحــت الحواس أكسل بقليل وأصبــح العسل والقشدة أكــثر إغراء لحاسة الــذوق. كما أنه لا يمكن الشــك في أن الشوارع المجهزة بشكل أفضــل لتصريف مياه الأمطار والمنازل الأفضل إنارة كان لها تأثير على الأسلوب.

في أحــد الأيام كان يضيــف بيتاً أو بيتين بجهــد هائل إلى «شجرة السنديــان، قصيدة» حين مــرّ ظل بطرف عينه. سرعــان ما لاحظ أن ذلك لم يكن ظلاً، ولكنه شخص سيدة طويلة القامة ترتدي قبعة وعباءة ركوب الخيــل وهي تعبر المربع الذي تطل عليــه غرفته. كان هذا أكثر باحاتــه خصوصية وكانت السيدة غريبة عليه، لذا تعجب أورلندو من كيفية وصولها إلى هناك. بعد ثلاثة أيام ظهر له ذلك الشبح مجدداً، كما ظهــر مجدداً في ظهيرة يوم الأربعاء. في هذه المرة كان أورلندو مصمماً علــى اللحاق بها، كمــا لم يبد عليها أنها تخشــى اكتشاف وجودها، فقــد أبطأت من خطوها وهي تقترب منــه ونظرت إليه مواجهة. كان من شأن أي امرأة أخــرى أمسك بها وهي ضمن الأملاك الخصوصية للورد أن تشعر بالخوف، وأي امرأة أخرى بذلك الوجه وغطاء الرأس والمظهــر كانت سترمــي بوشاحها عبر كتفيها وتغطــي وجهها. فهذه السيــدة لم تكن تشبه سوى الأرنبة الوحشيــة؛ أرنبة مجفلة، إنما عنيدة؛ أرنبة طغى طيشها الهائل والأحمق على خجلها؛ أرنبة تجلس باستقامة وتحــدق في مطاردها بعينين واسعتين ناتئتــين. كانت أذناها منتصبتين

إنما ترتجفـان والأنف مستدقاً إنما يرتعش. ولكن هذه الأرنبة الوحشية كانـت بطول ستة أقدام وترتدي غطاء رأس عتيق الزي مما جعلها تبدو أكثر طولاً. وحين ووجهت على هذا النحو، حدقت في أورلندو على نحو يجمع الوجل والوقاحة على أقوى نحو ممكن.

طلبـت منـه أولاً مع انحناءة احـترام ملائمة إنمـا مضطربة نوعاً ما أن يغفـر لهـا تطفلها. ثم نهضت بكامل طولها مجـدداً وكان يزيد عن سـتة أقدام وبوصتين وتابعت كلامها مـع ضحكة عصبية تشبه قوقأة الدجـاج والكثـير من الضحـك والقهقهة حتى كاد يظـن أنها هاربة من مصـح للأمراض العقلية، قائلة إنهـا الأرشدوقة هارييت غريزيلدا لفينستر- آرهـورن وسكاند-أوب- بوم في إقليم رومانيا. قالت إنها ترغـب بشدة أن تتعرف عليه؛ وإنها اتخـذت سكناً لها فوق فرن في «بارك غيتسـ». لقد شاهدت لوحة له وهو يشبه أختاً لها توفيت منذ زمـن بعيد، وهنا قهقهت. كانت في زيـارة للبلاط الإنكليزي. الملكة ابنـة عمهـا أو عمتها أو خالهـا أو خالتها. الملك شخصـ طيب جداً ولكنـه نادراً مـا يأوي إلى فراشـه صاحياً. وهنـا ضحكت وقهقهت مجدداً. باختصار، لم يكن هنـاك مجال سوى لدعوتها للدخول وتقديم قدح من النبيذ لها.

في الداخل استعاد سلوكها التعجرف الطبيعي لأرشدوقة رومانية، ولو لم تكشف عن معرفة بالخمور نادرة لدى السيدات، ولو لم تتلفظ ببعضـ الملاحظات عن الأسلحة النارية وعادات الرياضيين في بلدها، والتـي كانت معقولة إلى حـدّ كاف، لكان الحديـث سيفقد عفويته. نهضـت علـى قدميها قفـزاً في نهايـة الأمـر، وأعلنت أنهـا ستزوره مـرة أخرى في اليوم التـالي؛ ثم انحنت انحناءتهـا المذهلة مرة أخرى وغـادرت. في اليوم التالي، ركب أورلنـدو حصانه وغادر المنزل. في

اليوم الذي تــلاه، أدار ظهره. في اليوم الثالث أسدل ستارته. في اليوم الرابـع هطل المطر و لم يكن قادراً على إبقــاء سيدة تحت المطر، كما لم يكــن كارهاً للصحبة آنذاك، فدعاها إلى الدخول وطلب رأيها فيما إذا كان درع ورثــه من أحد أسلافه هو من صنع «جاكوبي» أو «توب». كان يميــل إلى «تــوب». كان لهــا رأي آخر... ولا يهــم كثيراً ما هو. ولكن المهم في مجــرى حكايتنا أن الأرشدوقة هاريت، خلال شرحها لوجهــة نظرها وكانت تتعلــق بقطعة الربط، أخــذت القصبة الذهبية وثبتتها على ساق أورلندو.

لقد سبق وقلنا إنه كان يملك أجمل ساقين سبق أن انتصب بهما أي رجل نبيل.

ربما كانت الطريقة التــي ثبتت بها إبزيم الكاحل أو وضعيتها وهي منحنيــة أو عزلة أورلندو الطويلة أو التعاطف الطبيعي بين الجنسين، أو شــراب البورغنــدي أو نار المدفأة ... أي سبب مــن هذه الأسباب هو الملوم... فلا شك في وجود لوم على هذا الجانب أو الآخر، حين يقوم رجل نبيــل من مقام أورلندو وتربيته وهــو يستضيف سيدة في منزله، وهــي أكبر منه بسنوات كثيرة ولها وجه بطول باردة وعينان محدقتان، وترتــدي ملابســ مضحكة من عباءة وحجاب ركــوب رغم أن الجو دافئ... هناك لوم حقاً حين يضطر رجل نبيل كهذا إلى مغادرة الغرفة وقد غلبته بعنف عاطفة من نوع ما.

ولكــن أي نــوع مــن العواطف هــو هــذا؟ يمكننا أن نطــرح هذا السؤال. والجواب ذو وجهين شأن الحب نفسه. فالحب... هيا فلنترك الحب جانباً للحظة إذ كانت الحادثة قد جرت كما يلي:

حين انحنــت الأرشدوقة هاريــت غريزلدا لتثبــت الإبزيم، سمع

أورلنــدو فجأة وعلى نحو غــير قابل للتعليل ومن بعيــد جناحا «آلهة الحب» وهما يخفقان. كانــت الحركة البعيدة لذلك الريش قد أثارت فيه ألف ذكرى للمياه المندفعة، للجمال في الثلج والخيانة في الطوفان؛ واقترب الصوت أكثر. ثم تــوردت وجنتاه وارتجف جسده. وقد أثير كمــا لم يكــن يخطر في بالــه أن يحدث، وكان مستعــداً أن يرفع يديه ويترك طير الحسن يحط على كتفه، حين ... ويا للهول! هاهو صوت صريــر أشبــه بصوت الغربان فــوق الأشجار وقد بدأ يــتردد؛ بدا الجو معتمــاً بأجنحة سوداء خشنــة؛ نعبت الأصــوات، تساقطت قطع من القش والغصينات والريش؛ وحطــت على كتفيه أثقل وأقذر الطيور؛ أي النســر. وهكــذا اندفــع خارجاً مــن الغرفة وأرســل خادمه ليرافق الأرشدوقة هارييت إلى عربتها.

فآلهــة الحب، التي نعود إليهــا الآن، ذات وجهين، أحدهما أبيض والآخــر أسود. ولها جسدان، أحدهما أملس والآخر مشعراني. ولها يــدان وقدمان وذيلان واثنان بالفعل مــن كل عضو وكل واحد منهما هــو الضد للآخر؛ ولكنهما ملتصقــان بقوة بحيث لا يمكنك فصلهما الواحد عــن الآخر. في هذه الحالــة طارت آلهة الحــب نحو أورلندو ووجهــا الأبيض نحــوه وجسدها الأملس والجميــل باتجاهه. اقتربت منه أكثر فأكثر وهــي تسوق أمامها نسائم المتعة الخاصة. وفجأة (حين شاهــدت الأرشدوقة على وجه الافتراض) استدارت وأبرزت جانبها الآخر؛ فظهرت سوداء ومشعرانية ووحشية ؛ وكانت «آلهة الشهوة» أي النســر وليس «آلهة الحــب» أو «طير الفردوســ» هي التي حطت بقــذارة وعلى نحو مثير للاشمئزاز علــى كتفيه. لذلك فرّ هارباً؛ ومن ثم استدعى خادمه.

ولكــن المتطفلــة لم يكــن مــن السهــل التخلص منها. فلــم تكن

الأرشدوقـة مستمرة في استئجار منزل الفرّان فحسب، ولكن أشباحاً مـن أقذر الأنواع راحت تنتاب أورلنـدو نهاراً وليلاً. فقد بدا عبثاً أنه أثّث دارتـه بالفضة وعلـق الستائر المزركشة على الجـدران، ففي أي لحظة هاهي أنثى طير ملوثة بالروث تحط على منضدة الكتابة خاصته. هاهي هناك، تخفق بجناحيها بين الكراسي. رآها تتهادى دون رشاقة عـبر الأروقة. والآن، هاهي تجثم دون توازن فوق حاجز المدفأة. حين طاردها لتخرج عادت وراحت تنقر الزجاج حتى كسرته.

وهكذا أدرك أن منزله لم يعد قابلاً للسكن، وأنه لا بد من إجراءات لوضع نهايـة للأمر على الفور، ففعل ما قد يفعله أي شاب في مكانه. طلب من الملك تشارلز أن يرسله كسفير فوق العادة إلى القسطنطينية. كان الملـك يتمشـى في «وايتهول». كانـت «نيل غويـن» تستند إلى ذراعه. وكانت ترميـه بحبات البندق. تنهدت تلـك السيدة العاشقة وقالت في نفسها يا ألف أسى أن تغادر البلاد مثل هاتين الساقين.

علـى كل حال، كانت الأقـدار قاسية. لم تستطع سـوى أن ترمي بقبلة واحدة عبر كتفها قبل أن يبحر أورلندو.

الفصل الثالث

مــن سوء الحظ إلى حد كبير وممّا يؤسف له كثيراً أنه في هذه المرحلة مــن مجرى حياة أورلندو، وحــين راح يلعــب دوراً شديد الأهمية في الحيــاة العامة لبلده؛ لا تتوفر لدينا سوى أقــل المعلومات التي يمكن أن تساعدنــا علــى المضي قدماً. نعــرف أنه أدى واجباتــه على نحو مثير للإعجــاب... ويشهد على ذلــك «وسام باث» ونيلــه لقب الدوق. ونعــرف أنــه لعب دوراً مــا في بعض المباحثات الأكــثر دقة بين الملك تشارلــز والأتــراك... وتشهــد على ذلــك المعاهــدات المحفوظة في سرداب "مكتب السجلات". ولكــن الثورة التي اندلعت خلال فترة وجــوده في المنصب، والحريق الذي تلى ذلك، قد دمرا جميع الوثائق التي يمكن أن نستمد منها أي سجل موثوق؛ وأن ما نستطيع أن نقدمه ناقصــ مع الأســف. غالباً ما تكــون الوثيقة مسفوعة وقــد أصبحت بلــون بنّي غامق في وسط أهــم جملة. وبالضبط حين نفكر في كشف ســرّ حيّر المؤرخين لمائة سنة، يكون هنــاك ثقب في المخطوطة كبير إلى حــد تستطيــع معه أن تقحــم أصبعك فيــه. لقد بذلنــا أفضل جهودنا لاستخلاص موجز ضئيل من الأجزاء المحترقة التي تبقت؛ ولكن غالباً ما كان من الضرورة التخمين والحدس وحتى استخدام المخيلة.

كان يوم أورلندو يمرّ على ما يبدو وفق هذا المنوال. كان ينهض من فراشه حوالي الساعة السابعــة ويلف نفسه بعباءة تركية طويلة ويشعل

سيجاراً ثـم يستند بمرفقيه على حاجز النافـذة. هكذا كان يقف وهو يحـدق إلى المدينـة التي تحتـه في حالة افتنـان واضحـة. في مثل هذه الساعـة يكون الضباب سميـكاً إلى حدّ أن قبب "سانتا صوفيا" وبقية القبـب تبدو وكأنهـا عائمة. ثم ينـزاح الضباب تدريجيـاً ليكشفها. سترى القبب وكأنها راسخة بقوة. سيكون هناك النهر وجسر الغالاتا؛ وكذلـك الحجاج ذوي الطرابيش الخضـراء دون عيون أو أنوف وهم يتسولـون الحسنات. هناك الكلاب المنبـوذة تلتقط فضلات الذبائح. وهنـاك النساء المحجبات. هناك الحمير التي لا تعد ولا تحصى ورجال على جياد يحملون أعمدة طويلة. سرعان ما سوف تكون المدينة كلها قـد استيقظت مـع قرقعة السياط وقـرع الأجراس القرصية والآذان الـذي يدعـو إلى الصلاة وضرب البغـال بالسيـاط وقعقعة العجلات المثبتة بالنحاس؛ بينما الروائـح الحامضة من العجين المختمر والبخور والبهـارات ترتفع حتى إلى جبال "بيرا" نفسها وتبدو كروح السكان الصاخبين من ذوي البشرات المختلفة الألوان والهمجيين.

تأمـل وهـو يحدق إلى المنظـر الـذي راح يلتمع الآن تحـت أشعة الشمس، فقـال في نفسـه إنـه لا شيء يـوازي مقاطعتـي "ساري" و"كنـت" أو مدينتي لندن وتنبريدج ويلـز. إلى اليمين واليسار كانت ترتفـع بشموخ عار وصخـري الجبال الأسيوية غـير القابلة للسكن، التـي قد تتعلق بها القلعـة القاحلة لزعيم لصوص أو زعيمين. ولكن لم يكـن عليها منزل لقسيس أو كـوخ أو سنديانة أو دردارة أو شجرة بنفسـج أو لبلاب أو نسرين الكلاب. لم تكن هناك أسيجة لينمو عليها السرخس ولا حقول لترعى الخراف فيها. كانت البيوت بيضاء كقشرة البيضة وعاريـة مثلها. ويا للعجب أن يبتهج، هـو الذي كان إنكليزياً حتـى النخاع، من أعماق قلبه بهـذه البانوراما الوحشية، وأن يحدق

ويحدق إلى تلك الممرات والارتفاعات الشامخة وأن يخطط لرحلات إلى هناك وحيداً مشياً على الأقدام، إلى أماكن لم يسبق أن وطأتها سوى أقدام الراعي والماعز؛ وأن يشعر بعاطفة الحب للأزهار الزاهية المتفتحة في غير أوانها؛ وأن يعشق الكلاب المنبوذة الشعثاء أكثر مما أحب حتى كلاب صيد الأيائل خاصته في الوطن؛ وأن يتشمم الرائحة الحريفة الحادة للشارع بتوق بمنخريه. تساءل إن كان أحد أسلافه خلال فترة الحروب الصليبية، قد كان على علاقة مع فلاحة من الجركس، وفكر أن هذا ممكن الحدوث؛ ثم تخيل بعض السمرة في لون بشرته. ثم دخل إلى غرفته واتجه نحو الحمام.

بعد ساعة من الزمان، هاهو وقد تعطر على النحو الملائم، وجعّد شعره وتضمخ بالزيت، ليستقبل أمناء سره والموظفين الكبار الآخرين الذين يحملون، الواحد في إثر الآخر، صناديق حمراء اللون ما كانت تفتح إلا بواسطة مفتاحه الذهبي. في داخلها كانت وثائق شديدة الأهمية، لم يتبق منها الآن سوى نتف صغيرة، فهنا ترى زخرفة وهناك خاتم مثبت بشدة على قطعة من الحرير المحترق. لا نستطيع الحديث عن محتواها، ولكننا نستطيع أن نشهد بأن أورلندو كان مشغولاً، ساعة بشمعه وأختامه، وأخرى بشرائطه الملونة العديدة التي يجب أن تلصق على نحو متنوع، كتابته بأحرف كبيرة للمناصب والأسماء ورسم زخارف من حول الأحرف الكبيرة حتى يحين موعد الغداء: وجبة رائعة من ثلاثين صنفاً على الأقل.

بعد الغداء، يعلن الخدم أن عربته بجيادها الستة كانت عند الباب، فيمضي يسبقه أتباع في بزات أرجوانية يعدون على أقدامهم ويروّحون بمراوح كبيرة من ريش النعام فوق رؤوسهم، وذلك في طريقه لزيارة السفراء وأصحاب المقامات الرفيعة في الدولة. كانت

المراسم هي نفسها على الدوام. لدى وصوله إلى الباحة، كان الأتباع يضربون بمراوحهم على البوابة الرئيسية التي كانت تفتح على الفور كاشفة عن غرفة واسعة موثثة بفخامة. وهنا يجلس شخصان يكونان في العادة من الجنسين. ويتم تبادل الانحناءات العميقة وكلمات المجاملة. في الغرفة الأولى، يكون مسموحاً التحدث عن الطقس فقط. وبعد أن يقال إنه جميل أو ماطر، حار أو بارد، ينتقل السفير إلى الغرفة الثانية، حيث يقف شخصان أيضاً لتحيته. وهنا لا يكون مسموحاً إلا بمقارنة القسطنطينية كمكان الإقامة مع لندن. ويقول السفير طبعاً إنه يفضل القسطنطينية، بينما يقول مضيفوه طبعاً إنهم يفضلون لندن رغم أنهم لم يسبق أن رأوها. في الغرفة التالية لا بدّ من مناقشة صحة الملك تشارلز والسلطان بالتفصيل. وفي الغرفة التالية، يتم الحديث عن صحة السفير وصحة زوجة المضيف، ولكن على نحو أكثر إيجازاً. في الغرفة التالية يمتدح السفير أثاث مضيفه، بينما يمتدح المضيف ملابس السفير. في الغرفة التي تلي تقدم الحلويات والمضيف يرثي سوءها، بينما يطري السفير على جودتها. وتنتهي المراسم أخيراً بتدخين الأركيلة وشرب كاس من القهوة. ولكن رغم أن حركات التدخين والشرب تتم بحرص على الشكليات، لم يكن هناك تنباك في الأركيلة ولا قهوة في الكأس، فلو كان التدخين أو الشرب حقيقياً، لكان الجسد البشري قد هلك من التخمة. فما أن ينهي السفير إحدى هذه الزيارات، إلا وتكون أخرى على الطريق. والمراسم نفسها تتم بدقة ست أو سبع مرات عبر منازل الرسميين الكبار الآخرين، لذا كان غالباً ما يعود إلى بيته في وقت متأخر من الليل. ورغم أن أورلندو كان يقوم بهذه المهمات على نحو مثير للإعجاب و لم يكن ينكر أنها على الأرجح الجزء الأهم من واجبات الدبلوماسي، فقد كانت ترهقه دون شك، وغالباً ما كانت تسبب له الكآبة إلى حد أنه كان يفضل تناول

عشائه وحيداً مع كلابه. وكان يُسمع بالفعل وهو يتحدث إليها بلسانه الأم. ويقـال إنه كان يخرج أحياناً مـن بوابة داره في وقت متأخر من الليل، وقد تنكر إلى حد أن حراسه لم يميزوه. ثم يروح يختلط بالحشد من البشر على "جسر غالاتا"، أو يتمشى عبر الأسواق، أو يرمي جانباً حذاءه وينضم إلى المصلين في المساجد. في إحدى المرات، حين عُرف أنـه وقع فريسة الحمى، أكد رعاة كانـوا يجلبون ماعزهم إلى السوق، أنهـم قابلوا لورداً إنكليزياً فوق قمة الجبل وسمعوه يصلي لربه. وكان الظـن يميل إلى أن هذا هـو أورلندو نفسه، وكانت صلاته، دون شك، قصيـدة تتلى بصوت مرتفع، فقد كان معروفـاً أنه ما يزال يحمل معه باستمرار في صدر عباءته، مخطوطة جرت عليها تعديلات كثيرة. كان الخـدم وهم يصغـون عند الباب يسمعـون السفير وهو يرتـل شيئاً ما بصوت عجيب يعلو وينخفض حين يكون وحيداً.

علينا من خلال هذه النتف الصغيرة أن نبذل قصارى جهدنا لنصنع صورة لحياة أورلندو وشخصيته في ذاك الحين. وما تزال تتواجد حتى يومنا هـذا إشاعات وأساطير ونوادر من النـوع العجيب وغير الموثق عن حياة أورلندو في القسطنطينية. (فنحن لم نذكر سوى القليل منها) والتـي تبرهن علـى أنه امتلك، وهو في أوج شبابـه، القدرة على إثارة الخيال وعلى أن يثبت في العين ما يتبقى في الذاكرة طازجاً لفترة طويلة بعـد أن تُنسى كل مـا تستطيع كل تلـك الصفات الأقـدر على البقاء أن تحفظـه. القدرة من النـوع الغامض ومركّبة مـن الجَمال والحَسَب وموهبـة أكثر ندرة، يمكـن أن نسميها الفتنـة ونتجاهلها. كما كانت تقول "ساشا": "إن مليون شمعة كانت تتوقد فيه دون أن يجهد نفسه ليشعل ولو واحدة منها. كان يتحرك كأيل، دون حاجة إلى التفكير في ساقيـه. كان يتحدث بصوته العادي ولكن صداه كان كصوت جرس

فضي. ولذا تجمعت من حوله الإشاعات. أصبح معبوداً لنساء كثيرات ولبعض الرجال. لم يكن ضرورياً أن يتحدثوا إليه أو حتى أن يروه. كانوا يستحضرون أمامهم، خاصة حين يكون المشهد رومانسياً أو مع غروب الشمس، شكل جنتلمان نبيل في جوارب حريرية. كان لديه على الفقراء وغير المتعلمين السلطة نفسها التي لديه على الأغنياء. كان الرعاة والغجر وسائقو الحمير ما يزالون يغنون أغنيات عن اللورد الإنكليزي "الذي كان يرمي بزمرداته في البئر"؛ وكانوا يقصدون بذلك أورلندو الذي قام ذات مرة بنزع جواهره في لحظة غضب أو نشوة ورماها في نبع، فقام وصيف بإخراجها من هناك. ولكن هذه السلطة الرومانسية، كما كان معروفاً تماماً، غالباً ما كانت ترتبط في الأذهان بطبيعة ذات تحفظ مفرط. يبدو أورلندو وكأنه لم يصادق أحداً. وحسب ما نعرف فهو لم تكن له أي ارتباطات عاطفية. كانت سيدة نبيلة ذات مقام رفيع تقطع كل تلك المسافة من إنكلترا لتكون قريبة منه ولتزعجه بمجاملاتها، ولكنه استمر في القيام بمهماته بكل نشاط حتى أنه لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين ونصف العام كسفير في "القرن" إلا وعبّر الملك تشارلز عن نيته في ترفيعه إلى أعلى مكانة بين أنداده من النبلاء. قال الحسّاد إن ذلك كان تقديراً من "نيل غوين" (الملكة) لذكرى ساق. ولكن بما أنها شاهدته مرة واحدة فحسب، وكانت عندها مشغولة جداً في رمي سيدها الملكيّ بقشور الجوز، فمن المحتمل أن مزاياه هي التي أكسبته لقب الدوق وليس عقبيه.

وهنا علينا أن نتوقف، فقد وصلنا إلى مرحلة ذات أهمية كبرى في سيرته. فقد كان منحه لقب الدوقية مناسبة لحادثة شهيرة جداً وموضع جدال كبير علينا أن نصفها الآن، ونحن نشق طريقنا بين أوراق محترقة

وقطـع صغيرة مـن الشرائط بقدر مـا نستطيع. حـدث ذلك في نهاية الصـوم الكبير لشهـر رمضان حين وصل "وسام بـاث" وبراءة النبالة على متن فرقاطة يقودها السـير أدريان سكروب. وجعل أورلندو من هـذه المناسبة فرصة للكـرم والتسلية أروع مـن أي مناسبة عرفت من قبـل أو منذ ذلك الحين في القسطنطينيـة. كان الليل صافياً والضيوف حشد كبير من البشر ونوافذ السفارة مضاءة بقوة. ومن جديد نقول إن التفاصيـل غير متاحة، فقد أتت النار على كل السجلات ذات الصلة، ولم تـترك سوى بقايا مغيظة تترك أهـم الأمور غامضة. ومن مذكرات جون فنر بريغ، وهو ضابط بحري إنكليزي كان واحداً من الضيوف، نعـرف أن أشخاصـاً من جميـع الجنسيات قد "حشـروا كما سمك الرنكـة في برميل" في الباحـة: كان الحشد يضغط بعضـه بعضاً على نحو مزعـج حتى أن بريغ هذا سرعان ما تسلـق شجرة زنزريق حيث يمكنـه أن يراقب علـى نحو أفضل مجريات الحفـل. كانت الإشاعة قد انتشرت بين السكان المحليين (وهذا دليل إضافي على السلطة الغامضة لأورلندو على المخيلـة) أن معجزة من نوع ما كانت ستؤدى. يكتب بريـغ (ولكن مخطوطته مليئـة بالحروق والثقوب وبعضـ جملها غير قابلة للقراءة إطلاقـاً) قائلاً: "وهكذا حين بدأت الأسهم النارية تنطلق في الجـو سرى قلق كبير بيننا مخافة أن يحصل للضيوف المحليين...... مفعـم بنتائـج مزعجـة للجميـع ...... السيـدات الإنكليزيـات الحاضـرات، أعترف أن يـدي امتدت إلى سيفـي. ولحسن الحظ"، ثم يستأنـف بأسلوبه المسهب نوعاً مـا قائلاً: "هذه المخاوف بدت لبرهة غير مـبررة، وحين لاحظنا سلوك الضيـوف المحليين...... توصلت إلى نتيجة مفادها أن استعراض مهاراتنا هذا في فن صنع الأسهم النارية كان ذا قيمة كبيرة لو أنه ترك لديهم ذلك الانطباع فحسب...... أي تفـوق البريطانيين...... وبالفعـل، كان المشهد ذا عظمة لا توصف.

وجدت نفسي – بالتعاقب – أمدح اللورد لأنه سمح ...... وأتمنى لو أن أمـي العزيزة المسكينة...... وبأمر من السفير، فإن النوافذ الطويلة التـي هي من الميزات المهيبة للعمـارة الشرقية، فرغم أني جاهل نوعاً ما .... كانت قد فتحت علـى مصراعيها؛ واستطعنا أن نرى في الداخل لوحة حيـة أو عرضاً مسرحياً شاركت فيه سيـدات إنكليزيات ونبلاء إنكليز...... فقدموا عرضاً مسرحياً بالأقنعة من تأليف ...... كانت الكلمـات غير مسموعة، ولكن مشهد الكثير من مواطنينا ومواطناتنا يرتـدون أكثر الأزياء أناقـة وتميـزاً...... جعلني أتأثـر لدرجة البكاء ولست خجولاً من ذلك، رغم عدم قدرتي ...... كنت مصمماً على مراقبة سلوك الليدي ...... الذي كان من شأنه أن يجعل العيون كلها تتجه إليهـا وتحدق بها، وأن يسيء إلى سمعـة جنسها وبلدها، حين" ... لسوء الحظ انكسر غصن شجرة الزنزريق فسقط الملازم الأول بريغ علـى الأرض، ولم يتبـق في مذكراته سوى ذكر امتنانـه للرب (الذي يلعـب دوراً كبيراً في هذه المذكرات) وتفاصيـل الجروح التي أصيب بها.

لحسـن الحظ، فـإن الآنسة بنيلـوب هارتوب، ابنة الجـنرال الذي يحمـل الكنيـة نفسهـا، رأت المشهد مـن الداخل وتابعـت الحكاية برسالـة، مشوهة جداً هي أيضاً، والتـي وصلت في النهاية إلى صديقة لها في "تنبريدج ويلز". لم تكن الآنسة بنيلوب أقل سخاء في حماستها مـن الضابط الشجاع. تصيح عشر مـرات في صفحة واحدة: "فاتن! مدهشـ! ...... أمر يفوق الوصف تمامـاً! ...... طبق ذهبي...... ثُريـات...... زنـوج في بناطيل قصيرة مـن القماش المزغبر...... أهرامـات من الثلـج...... نوافـير من النبيـذ الدافـئ ...... الهلام المصنـوع ليمثل سفن جلالـة الملك...... بجع صنعـت لتمثل زهور

النيلوفـر....... طيـور في أقفاص ذهبية...... سـادة نبلاء في مخمل قرمـزي مشقوق...... تسريحات شعـر للسيدات بارتفاع ستة أقدام علـى الأقل...... علب موسيقية...... قال السيد برغرين إني بدوت جميلـة تماماً وأنا أكرر كلامها عليك يا أعز الناس، لأني أعرف ...... أوه... لكـم اشتقت إليكم جميعاً!...... إنه يفوق أي شيء شاهدناه في البانتيل...... محيطات من المشروبـات...... بعض السادة النبلاء يتغلبـون علـى ...... «الليـدي بيتي» كانـت فاتنـة...... «الليدي بونهام» المسكينة ارتكبت لسوء الحظ خطأ الجلوس دون وجود كرسي تحتها...... السادة النبلاء كانوا جميعاً يتحلون بالشهامة...... تمنيت ألـف مرة لك والعزيزة «بتسي»...... ولكن المشهد الحقيقي الطاغي على كل ما عداه، قبلة أنظار الجميع...... كما أقر الجميع، كان السفير نفسه. ويا لها من ساق! ويا له من وجه! وياله من سلوك أميري!!! لو أنـك ترينه فحسب وهـو يدخل الغرفة! ولو ترينـه وهو يخرج منها! وهناك شيء مشوق في التعبير مما يجعل المرء يشعر، ولا يعرف السبب علـى الإطلاق، في أنه قـد ذاق المعاناة ! يقولون إن سيدة من النبيلات هـي السبب في ذلك. يا لها من وحش متحجر القلب!!! كيف يمكن لواحـدة من جنسنا اللطيف الشهـير أن تتصرف بتلك الوقاحة!!! هو عـازب ونصف السيـدات في المكان كن مجنونات بحبـه...... ألف ألف قبلة لتوم وجيري وبيتر و«ميو» العزيزة جداً [ربما قطتها].»

ومن «الجريـدة الرسمية» لذلك الحين نعرف أنـه «في تمام الساعة الثانيـة عشرة ظهر السفير في وسـط الشرفة الوسطى التي علقت عليها سجاجيد ثمينة. كان ستة أتراك من الحرس الإمبراطوري، وكل بطول يزيد عن ستة أقدام، يحملون المشاعل إلى يمينه ويساره. انطلقت الأسهم الناريـة في الفضاء لدى ظهوره، كما ترددت صرخة عظيمة من الناس

فردّ عليها السفير بانحناءة عميقــة وبكلمات شكر قليلة باللغة التركية التــي كان بين واحد من إنجازاته إتقان التكلــم بها بطلاقة. بعد ذلك، تقــدم السير أدريــان سكروب، بالبزة الكاملة لأمــيرال بريطاني. ركع السفــير على ركبة واحدة ووضع الأميرال «طــوق وسام أوج النبالة» مــن حول عنقــه، ثم ثبّت النجمة على صــدره؛ وبعد ذلك، تقدم فرد آخر من السلك الدبلوماسي بأسلوب جليل ووضع على كتفي السفير الرداء الدوقي، وسلمه وسادة قرمزية هي التويج الدوقي.»

وأخــيراً، وبإيماءة ذات عظمة ورشاقــة استثنائيتين، تناول أورلندو وهو ينحني بعمق أولاً ثم وهو ينهض باعتزاز، الطوق الذهبي المضفور بشكل أوراق الفريز ووضعه، بإيماءة لن ينساها كل من رآها أبداً، على جبينــه. عندها بالضبط حــدث أول اضطراب. إمــا أن الناس توقعوا حــدوث معجــزة- البعض قال إنه جــرى التنبؤ بأن وابــلاً من العملة الذهبيــة سيسقــط من السمــاء- وهذا لم يحــدث، أو كانت تلك هي الإشــارة المختارة لبداية الهجوم. لا يبــدو أن هناك من يعرف، ولكن حين استقــر التويج على رأس أورلندو، صــدرت ضجة عالية. بدأت الأجراس تقرع. سمعت الأصــوات المبحوحة للأنبياء فوق صرخات النــاس. بدأ الأتراك بالاستلقاء على الأرض وهم يلمسونها بجباههم. انفتح باب بقــوة. اندفع السكان المحليون بقــوة نحو غرف المآدب. صرخت النساء. قامت سيدة نبيلة قيل إنها كانت تموت حباً بأورلندو، بالإمســاك بشمعــدان ورمت به على الأرض. لا يمكــن لأحد أن يتنبأ بمــا كان ممكناً حدوثه لولا وجود السير أدريــان سكروب وفصيل من البحــارة البريطانيين. ولكن الأميرال أمر بــأن بضرب الأبواق، فوقف مائة من البحارة على الفور في حالة استعداد. تم ضبط الفوضى وساد الهدوء على المشهد ولو مؤقتاً.

حتى هذا الحد نحن واثقون من الحقيقة وإنما ليس تماماً. فلم يعرف أحـد مـا جرى بالضبط في وقـت لاحق من تلك الليلـة. تبدو شهادة الحرس وآخرين كأنها تبرهن من ناحية أخرى، على أن السفارة كانت فارغـة مـن الضيوف وأغلقـت أبوابها ليـلاً بالطريقة المعتـادة أي في الساعـة الثانية صباحـاً. شوهد السفير وهو يمضـي نحو غرفته، وهو مـا يزال يرتدي إشارات رتبته وأنه أغلـق الباب. يقول البعض إنه أدار القفل من الداخل، و لم تكن تلـك عادته. ويقول آخرون إنهم سمعوا موسيقى من نوع ريفيّ، كتلك التي يعزفها الرعاة، في وقت متأخر من تلك الليلة في الباحة تحت نافذة السفير. امرأة تعمب غسالة لم تستطع النـوم بسبب ألم في أسنانها، قالت إنها شاهدت رجلاً يرتدي عباءة أو مبذلاً يخرج إلى الشرفة. ثم قالت إن امرأة، محجبة جداً إنما يبدو عليها بوضوح أنها تنتمـي إلى الطبقة الريفية، قد سُحبت بواسطة حبل دلاّه الرجـل لها من على الشرفـة. وقالت الغسالة إنهمـا تعانقا هناك بولع شديد شـأن عاشقين، ثم دخلا الغرفة معـاً، وأسدلا الستائر بحيث لم يعد ممكناً رؤية أي شيء.

في صبـاح اليوم التالي، وُجد الدوق، كمـا يجب أن ندعوه الآن، من قبـل أمناء سره غارقاً في نـوم عميق بين أغطيـة السرير التي كانت مشقلبة. كما كانت الغرفة في حالة من الفوضى، وتويجه قد تدحرج على أرضية الغرفـة، بينما تكومت عباءته ورباط جوربه على كرسي. كانـت الأوراق مبعثرة على المنضدة. لم يكـن هناك مدعاة للشك في البدايـة، حيث كانت متاعـب الليل عظيمة. ولكن حـين جاء العصر وهو ما يزال نائمـاً، استدعي أحد الأطباء. استخدمت علاجات سبق استخدامهـا في المرة الماضية، لصاقات وقرّاص ومقيئات، إلخ؛ ولكن دون نتيجة. استمر أورلندو في النوم. ثم فكر أمناء سره في أن واجبهم

كان في فحص الأوراق التي على المنضدة. الكثير منها كانت مخربشة بقصائد شعر تذكر فيها كثيراً شجرة سنديان. كما كانت هناك وثائق رسمية متنوعة وأخرى خصوصية تتعلق بإدارة أملاكه في إنكلترا. ولكنهم وجدوا أخيراً وثيقة ذات أهمية خطيرة جداً. لم تكن سوى عقد زواج أبرم ووقع وشوهد من قبل اللورد نفسه أورلندو، فارس وسام الساق،إلخ، إلخ، إلخ ؛ و»روزينا بيبيتا»، راقصة، الأب مجهول، ولكنها تشتهر بأنها غجرية، الأم مجهولة أيضاً، ولكنها اشتهرت ببيع الحديد المستعمل في السوق عند جسر غالاتا. تبادل أمناء السر النظرات في رعب. ولكن أورلندو تابع النوم. راحوا يراقبونه صباحاً ومساء، ولكن باستثناء أن تنفسه كان منتظماً ووجنتيه ما تزالان تكتسيان بلونهما الوردي الداكن المعتاد، لم تبدر عنه أي إشارة تدل على الحياة. فعلوا كل ما يمكن للعلم والإبداع فعله ليوقظوه، ولكنه تابع النوم.

في اليوم السابع من غشيته، (الخميس العاشر من أيار/مايو) أطلقت الطلقة الأولى في ذلك التمرد الرهيب والدموي الذي كشف الملازم الأول بريغ أول عوارضه. لقد ثار الأتراك على السلطان، فأحرقوا المدينة وأعدموا أو جلدوا كل أجنبي استطاعوا أن يجدوه. تمكن القليل من الإنكليز من الهرب، ولكن كما كان متوقعاً، فضّل السادة النبلاء في السفارة البريطانية الموت دفاعاً عن صناديقهم الحمراء، أو في الحالات القصوى ابتلاع مفاتيحهم على أن تقع بين أيدي الكفّار. اقتحم الغوغاء غرفة أورلندو، ولكن حين رأوه ممدداً في فراشه وميتاً حسب الظاهر، تركوه دون أن يلمسوه، ولكنهم سرقوا منه تويجه والزي الخاص بوسام رباط الساق.

ومن جديد خيم الغموض على السيرة، ونتمنى فعلاً لو كان غموضاً أعمق! نتمنى، ومن كل قلوبنا أن نصيح، أنه كان عميقاً حتى

أننا لا نرى أي شيء على الإطلاق عبر كثافته! هل سنمسك بالقلم هنا وأن نكتب «النهاية» لهذه السيرة. هل علينا أن نوفر على القارئ ما سيأتي وأن نقول له إن أورلندو قد مات وتم دفنه؟ ولكن هنا تصرخ، ويا للأسف، الحقيقة والإخلاص والأمانة، وهي الآلهة الصارمة التي ترقب وتحرس دواة كاتب السيرة، ستصرخ: »لا!». إنها تضع أبواقها الفضية على شفاهها وتصرخ في نفخة واحدة: الحقيقة! ومن جديد ستصرخ الحقيقة! ثم ستدوي بأبواقها في تناغم مرة ثالثة: الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة!

آنذاك فلتحمد السماء! فهي توفر لنا مجالاً للتنفس؛ فهاهي الأبواب تُفتح وكأن نفحة من أرق وأقدس نسيم قد جعلها تفتح، ودخلت ثلاثة شخصيات. أولاً جاءت «سيدة الطهارة» التي رُبط جبينها بشرائح من أكثر صوف الحملان بياضاً، والتي شعرها شلال من الثلج المنجرف، وتحمل في يدها الريشة البيضاء لأوزة عذراء. تبعتها، ولكن بخطوة أكثر جلالاً، «سيدة العفة» التي يظهر على جبينها مثل بُريج من نار تلتهب ولا تأكل تاج من الدلات الجليدية. عيناها نجمتان نقيتان وأصابعها، إن لمستك، فستجمدك حتى العظم. ومن خلفها أتت عن كثب، وهي تتخفى في ظل شقيقتيها الأكثر جلالاً، «سيدة الحشمة» وهي الأوهي والأجمل بين الثلاثة، والتي لا يظهر وجهها إلا كما يظهر وجه القمر الجديد حين يكون نحيلاً وله شكل المنجل ونصف مختبئ بين الغيوم. تحركت كل واحدة منهن نحو منتصف الغرفة حيث كان أورلندو ما يزال نائماً؛ وكانت «سيدة الطهارة» هي أول من نطق مع إيماءات فيها شيء من المناشدة ولكنها آمرة:

«أنا حارسة الخشف النائم، والثلج عزيز عليّ، وكذلك القمر البازغ والبحر الفضي. بأثوابي أغطي بيضات الدجاجة المبقعة وصدفة البحر

المخططـة بألوان داكنة. أغطي الرذيلة والفقر. يهبط وشاحي على كل مـا هـو واه أو سري أو مريب. لذلك، لا تنطـقْ ولا تكشفْ. إصفحْ، هيا إصفحْ!»

وهنا دوت الأبواق.

«ارحلي أيتها الطهارة!»

ثم نطقت «سيدة العفة»:

« أنـا التي تجمّـد لمستها وتحيل نظرتها الأحيـاء إلى حجارة. بقيت النجمـة في رقصتهـا والموجـة وهي تهبـط. أعلى جبـال الألب هي مسكني. وحين أمشي، يلتمـع البرق في شعري، وحيث أصب عيني فهما تقتلان. وبدلاً عن إيقاظ أورلندو سأجمده حتى العظم. إصفحْ، هيا إصفحْ!»

وهنا دوت الأبواق مجدداً.

«ارحلي أيتها العفة!»

ثم نطقت «سيدة الحشمة» بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

«أنا التـي يدعوها الناس بالتواضع. أنا عـذراء وسأبقى كذلك إلى الأبد. ليسـت لي الحقول المعطاءة ولا الكروم المثمـرة. أكره التكاثر، وحـين ينضج التفاح وتتناسـل القطعان، أعدو، أعـدو. أترك عباءتي تسقط. يغطي شعري عينيّ. لا أرى. إصفحْ، هيا إصفحْ!»

وهنا دوت الأبواق مجدداً.

«ارحلي أيتها الحشمة!»

وبإيماءات الحزن والتفجع تتحد أيدي الشقيقات الآن ويرقصن ببطء وهن يرمين بأوشحتهن ويغنين وهن مغادرات:

«الحقيقة لا تأتي من وكرك البغيض. اختبئي في مكان أعمق أيتها الحقيقة المخيفة. فأنت تعرضين بمباهاة تحت التحديقة الوحشية للشمس أشياء كان يجب أن تبقى مجهولة ومهملة. أنت تكشفين ما هو مخجل وتعرين الظلمة . اختبئي! اختبئي! اختبئي!»

وهنا يتظاهرن وكأنهن يغطين أورلندو بألبستهن. ما تزال الأبواق تدوّي معاً.

«الحقيقة ولا شيء إلا الحقيقة.»

عندئذ، تحاول الشقيقات أن يرمين بأوشحتهن فوق أفواه الأبواق حتى تكتمها، ولكن عبثاً لأن الأبواق كلها كانت تعزف معاً.

«ارحلن أيتها الشقيقات البغيضات!»

ينصرف انتباه الشقيقات فيعولن معاً، وهن ما يزلن يدرن ويلوحن بأوشحتهن صعوداً ونزولاً.

«لم يكن الأمر على هذه الحال دائماً! ولكن الرجال لم يعودوا يطيقوننا؛ والنساء يكرهننا. سنرحل. سنرحل. «أنا (تقول «الطهارة» هذا) سأذهب إلى مجثم الدجاج». «أنا (تقول «العفة» هذا) سأذهب إلى مرتفعات [سَريْ] التي لم تُغتصب بعد». (تقول «الحشمة») سأذهب إلى أي ركن دافئ أجد فيه اللبلاب والستائر العديدة.»

«هنــاك وليس هنا (يتكلمــن جميعاً معاً وهــن يتماسكن بالأيدي ويومئن بإيمــاءات الوداع واليأس نحو السرير حيــث ينام أورلندو) ما يــزال يقطــن في العش والحجــرات الخاصة بالسيــدات، في المكاتب والمحاكــم، أولئك الذين يحبوننا؛ أولئك الذيــن يوقروننا، عذراوات وسكان مدن؛ محامون وأطباء؛ أولئــك الذين يحظرون؛ أولئك الذين ينكرون؛ أولئك الذين يبجلــون دون أن يعرفوا السبب؛ أولئك الذين يمدحــون دون فهــم؛ الذين ما يزالــون فئة كثيرة العــدد من المحترمين (فلتحمــد السماء على ذلك)؛ من يفضلــون ألا يروا؛ ويرغبون في ألا يعرفوا؛ يحبون الظلام؛ أولئك ما يزالون يعبدوننا ولديهم مبرر لذلك؛ فقد منحناهم الثروة والرخاء والراحة والطمأنينة. نحن ذاهبات إليهم، ونترككم أنتم. هيا يا أخواتي! ليس هذا بالمكان المناسب لنا هنا.»

ينسحبن مسرعات وهن يلوحن بأغطيتهن من فوق رؤوسهن كأنما ليسترن شيئاً ما لا يجرؤن على النظر إليه، ويغلقن الباب من خلفهن.

هانحــن الآن وحدنا في الغرفة مع أورلندو النائم وعازفي الأبواق. يتراصف عازفو الأبواق جنباً إلى جنب ويطلقون نفخة قوية واحدة:

«الحقيقة!»

فيستيقظ أورلندو.

يتمطــط. ينهض. يقف باستقامة وهــو عار تمامــاً أمامنا، وبينما تعزف الأبواق «الحقيقة! الحقيقة! الحقيقة! ليس أمامنا من خيار سوى أن نعترف: لقد كان امرأة.

XXX

تلاشـى صوت الأبواق ووقف أورلنـدو عارياً تماماً. لم يسبق لأي كائـن بشري، منـذ بداية العالم، أن بـدا أكثر فتنة منـه. كان يوحّد في شخصـه قـوة الرجل ورشاقة المـرأة. وبينما كان واقفـاً هناك، تابعت الأبـواق الفضية عزفها وكأنها تتردد في ترك هذا المشهد الجميل الذي استخرجـه عزفها؛ كمـا أن «العفـة» و«الطهـارة» و«الحشمة» وقد ألهمهـن دون شـك «الفضول» ، رحن يتلصصن عنـد الباب ويرمين بـرداء أشبه بالمنشفـة على الجسد العـاري الذي أصبـح أقصر- لسوء الحظ- ببوصات عدة. حدق أورلندو إلى نفسه في مرآة طويلة دون أن يبدي أي علامة على القلق، وذهب إلى الحمام على وجه الافتراض.

قـد نستثمر هذه الوقفـة في حكايتنا لنذكر بعض التعليقات. لقد أصبـح أورلندو امـرأة... لا مجال لإنكار هـذا. ولكن من كل جانب آخـر بقي أورلندو بالضبـط كما كان عليه. ورغم أن التغيير في الجنس قـد غـيّر في مستقبلهمـا، إلا أنه لم يبـدل أي شـيء في شخصيتهما. بقـي وجهاهما، كما يبرهـن على ذلك لوحاتهمـا الشخصية، وجهاً واحـداً عملياً. ذاكرتـه- ولكن في المستقبل سنقـول «ذاكرتها» بدلاً عـن «ذاكرته» و«هـي» بدلاً عن «هو مـن أجل الملاءمـة- إذاً كانت ذاكرتهـا تتذكر كل شيء في حياتهـا السابقة دون أن تواجه أي عائق. ربمـا يكون هناك بعض الغموض وكأن القليل مـن النقاط الداكنة قد سقطت في بركة الذاكرة الصافية. بعض الأشياء أصبحت غائمة قليلاً. ولكـن كان هـذا كل ما في الأمر. بـدا التغيير وكأنه قـد أُنجز دون ألم وبشـكل تام وعلى نحو أن أورلندو نفسه لم يبد أي دهشة تجاه ذلك.

لقد بذل الكثير من الناس جهداً كبيراً، بعد أن أخذوا في الاعتبار أن مثل هذا التغيير في الجنس ضد الطبيعة، ليبرهنوا على (١) أن أورلندو كان دائماً امرأة، (٢) أن أورلندو رجل في هذه اللحظة. فلنترك الأمر لعلماء الأحياء وعلماء النفس. يكفينا أن نقول إن أورلندو كان رجلاً حتى سن الثلاثين؛ وحينها أصبح امرأة وبقي على هذه الحال منذ ذلك الحين.

ولكن لندع أقلاماً أخرى تعالج مسألة الجنس والجنسانية. نحن نترك مثل هذه المواضيع بأسرع ما نستطيع. كانت أورلندو الآن قد اغتسلت وارتدت تلك السترة والبنطال التركيين اللذين يصح ارتداؤهما من قبل الجنسين. وهاهي تضطر إلى دراسة وضعها الجديد. لا بدّ أن الفكرة الأولى التي ستخطر لكل قارئ تابع حكايتها بتعاطف أن وضعها خطر ومحرج إلى أقصى حدّ. هذه الشابة والنبيلة والجميلة قد استيقظت لتجد نفسها في وضع لا يمكننا أن نتصور ما هو أكثر منه دقة بالنسبة إلى سيدة نبيلة شابة لها مثل تلك المكانة الرفيعة. ما كان يجب علينا أن نلومها لو أنها قرعت الجرس وصرخت أو أغمي عليها. ولكن أورلندو لم تبدِ أي أمارات تدل على القلق أو التشوش. كانت جميع تصرفاتها متأنية إلى أقصى حد، وقد تبدو وكأنها تكشف عن علامات تدل على التعمد والتفكير المسبق. أولاً، تمعنت بحرص في الأوراق التي كانت على المنضدة، وأخذت تلك التي بدت منظومة شعراً وأخفتها في صدرها. بعد ذلك، نادت على كلبها السلوقي الذي لم يغادر فراشها طوال تلك الأيام، رغم أنه كان مجوعاً، فأطعمته ومشطته، ثم دست غدارتين في حزامها. ثم لفت من حول جسدها بضع سلاسل من الزمرد واللؤلؤ البراق مما كان جزءاً من خزانتها كسفيرة. بعد أن تم هذا كله، أطلت من النافذة وأطلقت صفيراً خفيفاً،

ثم هبطت الدرج المحطم والملطـخ بالدماء والذي تناثرت عليه سلال الأوراق المهملـة والمعاهدات والمراسلات والأختـام وشمع الأختام، إلخ... ثم دخلت باحة الدار. هناك، في ظل شجرة تين ضخمة، كان غجـري عجوز ينتظر وهو يمتطـي حماراً. كما كان معـه حمار آخر يقـوده من لجامه. ركبـت أورلندو الحمار ثم غـادرت سفيرة بريطانيا العظمـى لـدى بلاط سلطـان القسطنطينيـة على هـذا النحو: تمتطي حماراً ويرافقها كلب هزيل ويصحبها غجري.

مضيا علـى هذا النحو أيامـاً وليالي عدة ومرّا بمغامـرات متنوعة، بعضها كان فيها دور للرجال وأخرى للطبيعة، ولكن أورلندو تصرفت بشجاعة. خلال أسبوع وصلا إلى هضبة خارج «بروسة» التي كانت آنئـذ المخيـم الرئيسـي للقبيلة الغجرية التـي تحالفت أورلنـدو معها. غالباً ما كانت تنظـر إلى هذه الجبال من شرفتها في السفارة. وغالباً ما كانـت تتوق إلى أن تكون هناك. وأن يجد المرء نفسه حيث كان يتوق علـى الدوام، فهذا يغذي الفكر الميـال إلى التأمل. ولبعض الوقت فقد كانت أورلندو على أي حـال سعيدة جداً بهذا التغيير فحرصت على ألا تفسـده بالتفكير. إن متعة عـدم وجود وثائق للتوقيع والختم وعدم تنميق الوثائق والقيام بالزيارات كانت كافية. كان الغجر يسعون وراء الـكلأ، فما أن يتم رعيه، يتحركون مجـدداً. كانت تغتسل في الغدران هذا إن اغتسلت على الإطلاق. ليس هناك صناديق حمراء أو زرقاء أو خضراء تُقدم لها. لم يكن هناك ولا مفتاح، ناهيك عن مفتاح ذهبي في المخيم كله. أما يخص «الزيارة»، فلم تكن هذه الكلمة معروفة لديهم. كانت تحلب العنزات وتجمع الحطب، وتسرق بيضة دجاجة بين الحين والآخر، ولكنها كانت تضع دائماً قطعة نقود أو لؤلؤة مكانها. كانت ترعى القطيع، وتقطف العنب، كما كانت تدوس على العنب؛ كانت تملأ الـزق المصنوع من جلد الماعز وتشرب منـه. وحين كانت تتذكر

كيف أنها في مثل هذا الوقت من النهار كان عليها أن تقوم بحركات توحي بشرب القهوة والتدخين من فنجان فارغ وأركيلة تخلو من التنباك، كانت تضحك عالياً، وتقتطع لنفسها لقمة من الخبز وتشحذ نفخة من غليون رستم العجوز الذي كان محشواً بروث البقر.

كان هؤلاء الغجر، الذين كان جلياً قيامها باتصالات سرية معهم قبل الثورة، يعتبرونها كواحدة منهم (وكان هذا دائماً أعلى إطراء يمكن لشعب أن يقدمه لأي شخص). وقد كان شعرها الداكن وبشرتها السمراء يؤكدان الاعتقاد بأنها وُلدت غجرية ثم خُطفت من قبل دوق إنكليزي من شجرة جوز، وهي طفلة رضيعة بعد، وأُخذت إلى تلك البلاد الهمجية حيث يعيش الناس في منازل لأن الوهن والمرض لا يسمح لهم بالعيش في الهواء الطلق. وهكذا، ورغم أنها كانت أقل مقدرة منهم في كثير من الأمور، إلا أنهم كانوا راغبين في مساعدتها لتصبح أكثر شبهاً بهم. وهكذا علموها فنون صنع الجبن وحبك السلال، وعلوم السرقة وصنع الأشراك للطيور، وكانوا حتى يدرسون مسألة السماح لها بالزواج من واحد من رجالهم.

ولكن أورلندو كانت قد تعودت في إنكلترا على بعض العادات أو أصيبت ببعض الأمراض (مهما اخترت أن تسميها) التي لا يبدو أنه من الممكن التخلص منها. في إحدى الأمسيات حين كان الجميع جالسين من حول نار المخيم، والشمس الغاربة ترسل لهيبها فوق جبال ثيسالونيا، صاحت أورلندو:

«لكم هي شهية للأكل!»

(ليس لدى الغجر كلمة «جميل». هذا هو التعبير الأقرب إلى ذلك المعنى.)

قهقـه جميع الشبـان والشابات. السماء شهية لـلأكل بالفعل! أما كبـار السـن، الذين شاهدوا أجانـب أكثر مما قد شاهـده أولئك، فقد انتابتهـم الريبة. لقد لاحظوا أن أورلندو غالباً ما كانت تجلس ساعات بأكملها وهي لا تفعل شيئاً، باستثناء النظر هنا وهناك. كانوا يمرون بها فـوق قمة تـلّ ما وهي تحدق إلى الأمام سواء كانـت العنزات ترعى أو هـي شاردة. بدأوا يشكون بأن لها معتقـدات أخرى غير معتقداتهم، كمـا أن الرجال والنساء الأكبر سناً ظنوا أنها وقعت فريسة بين مخالب أخسّ وأقسى الآلهات، ألا وهي آلهة الطبيعة. ولم يكونوا بعيدين عن الصـواب. كان المرضـ الإنكليزي، أي عشق الطبيعـة، فطرياً لديها. وهنـا، حيث الطبيعة أرحـب وأقوى مما هي في إنكلـترا، فقد وقعت ضحيـة لهـا كما لم يسبق لها مـن قبل. هذا المرض شهـير جداً وغالباً مـا وصف حتى أنه لا حاجـة إلى وصفه مجـدداً، إلا باختصار شديد. كانـت هناك جبال وكانت هناك وديـان وكانت هناك غدران. كانت تتسلق الجبال وتجول في الوديان وتجلس على ضفاف الغدران. كانت تشبّـه التلال بالأسوار وصدور الحمامات وكواشح البقر. كما قارنت الزهور بالمينا والخث بالسجاد التركي المهترئ. كانت الأشجار عجائز شمطاوات هزيـلات والخراف صخوراً رماديـة. كل شيء في الواقع كان شيئاً آخر. وجدت بركة جبلية صغيرة على قمة الجبل وكادت أن ترمي بنفسها فيها بحثاً عن الحكمة التي ظنت أنها كامنة هناك. وحين شاهـدت من قمة الجبـل بعيداً إلى ما وراء بحر مرمـرة سهول اليونان وميزت (كانت عيناها مثيرتـين للإعجاب) جبل الأكروبوليس وعليه شريـط أبيضـ أو اثنان ظنت أنـه معبد البارثنون، تمـددت روحها مع محجري عينيها، وتضرعت أن يتاح لها أن تشارك في عظمة الجبال وأن تعرف صفاء السهول، إلخ، إلخ، كما يفعل جميع المؤمنين. ثم نظرت إلى الأسفل، فجعلتها زهور المكحّلة الحمراء والسوسن الأرجواني تبكي

بانتشاء من طيبة وجمال الطبيعة. رفعت عينيها مجدداً، فشاهدت النسر يحـوم وتخيلت جذله وأحست بـه. في طريق العودة إلى البيت حيّت كل نجمـة وكأنها كانت تشير لها وحدها. وأخيراً، حين رمت بنفسها علـى حصيرتها في خيمة الغجر، لم تستطـع مغالبة البكاء مجدداً. لكم هـي شهية لـلأكل! لكم هي شهية للأكل! (فالحقيقـة العجيبة أنه رغم تحلّي البشر بوسيلة للتواصل ينقصها الكمال، فهم لا يستطيعون سوى القول: « لكم هي شهية لـلأكل! » حين يعنون القول بأنها «جميلة!» كما أنهم مـن ناحية أخرى مستعدون لتحمـل السخرية وسوء الفهم على أن يبقوا أي تجربة ضمن أنفسهم.) ضحك الغجر جميعاً ممن هم في سن الشباب. ولكن «رستم الصادي»، الرجل العجوز الذي جلب أورلندو من القسطنطينية على حماره، جلس صامتاً. كان له أنف أشبه بسيف معقوف، أما وجنتاه فكانتا مغضنتين كأنما من الهطول الدهري للـبرَد الحديـد. كان أسمر البشرة وحـادّ العينين، وبينمـا جلس وهو يدخـن الأركيلة كان يراقب أورلندو بدقـة. كان لديه أعمق الظنّ بأن إلهها هو الطبيعة. في أحـد الأيام وجدها تبكي. وحين فسر ذلك بمـا معناه أن إلهها قد عاقبها، فقد قال لها إنه لم يصب بالدهشة. أراها أصابـع يده اليسرى التي أذواها الصقيع وقدمـه اليمنى التي حطمتها صخـرة سقطت فوقها. قال لها إن هـذا ما يفعله إلهها بالناس. وحين قالت: »ولكن جميل جداً» مستخدمـة الكلمة الإنكليزية، هزّ رأسه؛ وحـين كررتها ثـار غضبه. لقد عـرف أنها لا تؤمن بمـا يؤمن هو به، وكان ذلك كافياً لإغضابه هو الحكيم والعجوز.

أقلـق الخـلاف في الـرأي أورلندو التـي كانت سعيـدة تماماً حتى الآن. بـدأت تفكر في «الطبيعـة»: هل هي جميلة أم قاسية القلب؟ ثم سألـت نفسها ما كنه ذلك الجمال، أكان في الأشياء نفسها أو فيها هي

فحسب؟ وهكذا وصلت إلى طبيعة الواقع التي أوصلتها إلى الحقيقة التي قادتها بدورها إلى «الحب» و»الصداقة» و»الشعر» (كما في أيام جلوسها على التبة العالية في موطنها)؛ وهذه التأملات التي لم تكن قادرة على التعبير عنها ولو بكلمة واحدة، جعلها تتوق، كما لم يسبق لها ذلك، إلى حيازة قلم وحبر.

صاحت: »أوه، لو أني أستطيع الكتابة فحسب!» (فقد كان لديها ذلك الغرور القديم الخاص بأولئك الذين يكتبون ويؤلفون والذي يفيد بأن الكلمات المكتوبة تتم المشاركة بها). لم يكن لديها حبر إنما بعض القليل من الورق. ولكنها صنعت الحبر من ثمار التوت والنبيذ؛ ووجدت بعض الهوامش القليلة والفراغات في مخطوطة «شجرة السنديان»، فاستطاعت أن تكتب بنوع من الاختزال لتصف المشهد في قصيدة طويلة من الشعر المنثور وأن تواصل حواراً مع نفسها حول هذا «الجمال» و «الحقيقة» بإيجاز كاف. وقد أبقاها هذا سعيدة لساعات طويلة. ولكن الغجر بدؤوا يصابون بالريبة. أولاً، لقد لاحظوا أنها أصبحت أقل مهارة في حلب العنزات وصنع الجبن. ثانياً، غالباً ما راحت تتردد قبل أن تجيب على سؤال ما. ومرة استيقظ صبي غجري من نومه في رعب حين شعر أن عينيها كانتا تحدقان إليه.

أحياناً كانت القبيلة كلها تشعر بهذا الكبح، وهم الذين يعدون بعشرات من الرجال والنساء الراشدين. وكان ذلك ينبع من الإحساس الذي راح ينتباهم بأن كل ما كانوا يفعلونه كان ينهار متحولاً إلى رماد بين أيديهم (وكانت حواسهم شديدة الحدة وتتفوق كثيراً على مفردات لغتهم). فمثلاً ها هي امرأة عجوز تحبك سلة أو صبي يسلخ خروفاً، وهما يغنيان أو يدندنان بسرور في عملهما، فتدخل أورلندو إلى المخيم وترمي بنفسها قرب النار وتحدق إلى اللهب. لم تكن في

حاجـة إلى أن تنظر إليهما، ومع ذلك كانا يشعـران بأن هناك شخصاً مـا يمارس الشك: (نحــن نترجم هنا ترجمة تقريبية عـن لغة الغجر). هاهــو شخص لا يفعل الشيء لأجل هذا الشيء ولا ينظر لأجل النظر؛ هاهــو شخص لا يهمــه جلد الغنم ولا السلة، ولكنــه يرى (وهنا كانا يتطلعان من حولهما في أرجاء الخيمة) شيئاً آخر. ثم يبدأ شعور غامض إنما مزعج جــداً يفعل فعله في الصبي والمرأة العجوز. فهاهما يرتبكان ويجرحان أصابعهما. هاهو غضـــب عظيم يجتاحهما. إنهما يتمنيان لو تغادر أورلندو الخيمة وألا تقترب منهما مرة أخرى. ومع ذلك فقد كان مزاجها مرحاً وراغباً في التعاون، كما فكرا. إن واحدة من لآلئها كانت كافية لشراء أفضل قطيع من الماعز في بروسة.

بــدأت تشعر على نحو بطيء بوجود اختلاف ما بينها وبين الغجر ممــا جعلها تتردد أحيانــاً في الزواج من أحدهــم والاستقرار بينهم إلى الأبــد. في البداية حاولــت أن تفسر الأمر بالقول إنهــا من عرق قديم ومتمدن، بينما هؤلاء الغجر ليسوا أفضل بكثير من الهمج. في إحدى الليالي حــين كانوا يسألونها عــن إنكلترا لم تستطيــع سوى أن تصف ببعضـ الفخر الدارة التي ولدت فيها والتــي تحوي (٣٦٥) غرفة نوم وهي ما تزال ملكاً للعائلة منذ أربعمائة أو خمسمائة سنة. كان أسلافها يحملــون لقب «إيرل» أو حتــى «دوق» كما أضافت. وهنا لاحظت مجــدداً أن الغجر ارتبكوا، ومنهم من لم يغضب كما حدث سابقاً حين مدحت جمال الطبيعة. الآن هم دمثون، ولكنهم قلقون كما قد يفعل أشخاصــ ذوو تربية راقية حين يكشف أحد الغرباء عن أصله الوضيع أو فقره. لحق بها رستم وحده إلى خارج الخيمة وقال إنه لا حاجة بها إلى أن تكــترث لأن والدها كان دوقاً ويمتلــك كل ما وصفته من تلك الغــرف وذلك الأثاث. ما كان أحد منهم سينتقص منها بسبب ذلك.

عندهـا شعرت بخجـل لم تعرفه من قبل قط. لقـد كان جلياً أن رستم والغجر الآخرين كانوا يرون في سلالة تعود إلى أربعمائة أو خمسمائة عـام فحسـب أنها ليست موغلـة في القدم إطلاقـاً. فأسرهم تعود في أصولهـا إلى ألفـي عام علـى الأقل أو ثلاثـة آلاف عـام. فبالنسبة إلى الغجـري الذي بنى أسلافه الأهرامات قبـل ميلاد المسيح بقرون، فإن سلالة آل هاورد أو آل بلانتاجنت ليسوا أفضل ولا أسوأ من آل سميث أو جونز: فالجميع جديرون بالإهمال. وإضافة إلى ذلك، فحين يتمتع الفتـى الراعي بمثل هذه السلالة القديمة من الأسلاف فلا شيء يستحق الذكر أو هو مرغوب فيه إطلاقاً في الانتماء إلى مثل هذه السلالة القديمة: فالمتشـردون والشحاذون لهـم مثلها أيضاً. ثم، ورغـم أنه كان شديد الدماثة بحيث لا يتحدث بصراحة، فقد كان واضحاً أن الغجري كان يعتقد بأنه ليس هناك طموح أكثر ابتذالاً من امتلاك غرف نوم بالمئات (كانـا فوق قمة تل وهما يتبادلان الحديث؛ وكان الوقت ليلاً والجبال تعلو مـن حولهما) حين تكون الأرض كلها ملكاً لنا. إذا ما نظرنا إلى الأمر من وجهة الغجر، لم يكن الدوق سوى شخص استغلالي أو لص يسـرق الأرض والمال من الناس الذين لا يثمنون مثل هذه الأمور، ولا يستطيـع التفكير فيما هو أفضل من بناء ثلاثمائة وخمس وستين غرفة نـوم حين تكفي واحدة، بل أن عدم وجودها هو أفضل من وجودها. لم تستطـع أن تنكـر أن أسلافها راكموا الحقل بعـد الحقل والدار بعد الـدار والشرف بعـد الشرف، ولكن لم يكن أي منهـم قديساً أو بطلاً أو محسنـاً كبيراً للجنس البشـري. كما لم تستطع أن تفند الحجة القائلة بـأن أي شخـص يقوم بما قام به أسلافها قبل ثلاثمائـة أو أربعمائة عام أمـر يتوجب أن يُستنكر (ولكن رستم كان مهذباً جداً بحيث لا يؤكد علـى الأمر) وذلك من قبل أسرتها بالـذات وبأعلى صوت ممكن على أنه مدّع مبتذل ومغامر ومحدث نعمة.

سعت إلى الرد على مثل هذه الحجج بالأسلوب الشائع إنما الملتوي بأنها وجدت الحياة الغجرية نفسها فظة وهمجية. وهكذا حدث أن الكثير من الاستياء قد بدأ ينشأ بينهما. وبالفعل فإن هذه الخلافات في الرأي كافية لتتسبب في سفك الدماء والثورة. لقد نُهبت مدن لما هو أقل من ذلك وانتهى مليون شهيد إلى الموت حرقاً على أن يتزحزحوا بوصة واحدة عن أي من الآراء المطروحة للجدال. ليس هناك انفعال أقوى في صدور الناس من الرغبة بجعل الآخرين يؤمنون بما يؤمنون هم به. لا شيء يفسد سعادة المرء ويملأه بالغضب مثل الإحساس بأن غيره ينقص من قيمة أمر يراه هو سامياً إلى أقصى حد. حزب الأحرار القديم وحزب المحافظين، حزب الأحرار الجديد وحزب العمال: ما الذي يتعاركون من أجله سوى الهيبة والاعتبار؟ ليس حب الحقيقة بل الرغبة في التسيّد هو الذي يسبب الخلافات ويجعل الأبرشية تتمنى سقوط الأبرشية. كل واحد منهم يسعى إلى الاطمئنان والخنوع وليس بالأحرى إلى انتصار الحقيقة وتمجيد الفضيلة: ولكن هذه الفضائل تنتمي إلى المؤرخ ويجب أن تُترك له، بما أنها راكدة شأن الماء في خندق.

تنهدت أورلندو قائلة: «إن أربعمائة وست وسبعون غرفة نوم لا تعني شيئاً لهم.»

قال الغجر: «إنها تفضل غروب الشمس على قطيع من الماعز.»

ما الذي يتوجب فعله؟ لم تستطع أورلندو التفكير في ذلك. أن تهجر الغجر لتعود سفيرة مرة أخرى؟ بدا لها ذلك أمراً لا يحتمل. ولكن كان من المستحيل على حد سواء أن تبقى إلى الأبد حيث لا حبر ولا ورق للكتابة، لا تبجيل لآل تالبوت ولا احترام للعدد الكبير من غرف النوم. وهكذا راحت تفكر في صباح أحد الأيام على قمة

جبـل آثوس وهي ترعى عنزاتهـا. ثم أن الطبيعة، وكانت هي تثق بها، إمـا مارست عليها حيلة ما أو قامت بمعجزة: من جديد تختلف الآراء كثيراً بحيث يستحيل معرفة أي الأمرين هو الصحيح. كانت أورلندو تحـدق بحزن في الواقع إلى حافة الجبل شديـدة الانحدار أمامها. كان الفصـل هو منتصف الصيف، ولو كان علينا أن نقارن المشهد الطبيعي بأي شيء، سنقول إنـه يشبه عظمة يابسة أو هيكلاً عظمياً لخروف أو جمجمة هائلـة الضخامة نقرها ألف من النسـور حتى ابيضّت. كان الحر شديـداً وشجرة التين الصغيرة حيث كانت أورلندو جالسة تحتها لم تكن تظللها بل تطبع أشكالاً من ورق التين على برنسها.

وفجـأة ظهر ظل على جانـب الجبل المقابل لها رغـم عدم وجود شيء يمكنه أن يطرح ظلاً. تعمق الظل بسرعة وسرعان ما ظهرت فجوة خضـراء حيث كانت صخرة عارية من قبل. وحين راحت تنظر بدأت الفجـوة تتعمـق وتتسع وراح حيّـز أشبه بالحديقـة يتفتح على جانب الجبـل. في الداخل استطاعت أن ترى مرجاً متموجاً ومعشباً وأشجار سنديـان هنا وهناك؛ كما استطاعت أن تـرى طيور السمّن تتقافز بين الأغصـان. استطاعت أن نـرى الأيائل تخطو برقة مـن ظل إلى آخر، بـل واستطاعت حتى سماع طنين الحشرات والتنهدات والارتعاشات اللطيفـة لنهـار صيفـي في إنكلترا. بعـد أن حدقت في نشـوة لبعض الوقت، بدأ الثلج بالهطول، وسرعان ما بدأ المشهد الطبيعي كله يتستر ويتسـم بظلال بنفسجية بدلاً عن نور الشمس الأصفر. والآن راحت ترى عربات ثقيلة تسير على امتداد الطرقات محملة بجذوع الأشجار التي ستُأخذ، كما تعرف، لتقطع كحطب. ثم ظهرت سطوح وأبراج أجراس وأبراج وساحات موطنها. كان الثلج يهطل باضطراد وكانت قادرة الآن على سماع صوت زحفه وانزلاقه من على الأسطح ليسقط

علـى الأرضـ. كان الدخان يتصاعد من ألـف مدخنة. كان كل شيء واضحاً ودقيقاً جداً حتى أنها استطاعت أن ترى زاغاً ينقر الثلج بحثاً عـن الديدان. ثم بـدأت الظلال البنفسجية تصبـح داكنة وتنغلق على العربـات والمروج والدارة الكبـيرة نفسها. تم ابتلاع كل شيء. والآن لم يتبق سـوى الفجوة المعشبة وبدلاً عن المروج الخضراء لم يكن سوى الجبـل الملتهب الذي بـدا وكأن ألف نسر قد نقرته حتـى أصبح عارياً تمامـاً. عندهـا اندفعت تبكي بانفعـال فمشت عائـدة إلى مخيم الغجر وقالت لهم إن عليها أن تبحر إلى إنكلترا في اليوم التالي.

وقـد كان مـن حسن حظهـا أنها فعلـت ذلك، فقـد كان الشبان يخططون لقتلهـا. قالوا إن الشرف يتطلب ذلـك، فهي لم تكن تفكر كما يفكـرون. ولكنهم سيشعـرون بالأسى لو ذبحوهـا؛ لذا رحبوا بخـبر رحيلها. كانـت سفينة تجاريـة إنكليزية، لحسـن الحظ، جاهزة للإبحار في الميناء عائدة إلى إنكلترا. اقتطعت أورلندو لؤلؤة أخرى من قلادتهـا واشترت بها ليس بطاقة السفر فحسب بل وحصلت مقابلها علـى بعض النقـود أيضاً. كانت تـود تقديم هذه النقـود إلى الغجر، ولكنها كانت تعرف أنهم لا يأبهون بالمال، فاكتفت بمعانقتهم، وكان شعورها صادقاً.

الفصل الرابع

ببعض الجنيهـات التي تبقت من بيع اللؤلـؤة العاشرة من قلادتها، اشترت أورلندو لنفسها بمجموعة كاملة من الملابس كالتي كانت ترتديها النســاء في ذلك الحين، وقد كانت تجلس الآن بزي شابة إنكليزية نبيلة على سطح السفينة المسماة «السيدة العاشقة». وإنها لواقعة عجيبة إنما حقيقيـة أن أورلندو لم تكن حتى هـذه اللحظة قد أعارت جنسها أي اهتمام. ربما كانــت السراويل التركية التي بقيت ترتديها حتى الآن قد فعلــت فعلها فصرفــت أفكارها عن ذلك. كمــا أن النساء الغجريات، باستثنــاء تفصيل واحد هام أو اثنــين، لا يختلفن عن الرجال إلا قليلاً. وعلى أي حال، لم تميز صعوبــات وميزات وضعها الجديد مع إجفالة اعترتها حتــى شعرت بسلك التنورة من حــول ساقيها، وحين عرض القبطــان عليها بلطف كبير استخدام ظلة أقيمت من أجلها على سطح السفينة. ولكن تلك الدهشة لم تكن من النوع المتوقع.

لم يكــن السبــب فيها- بــكل بساطة – التفكــير في عفتها وكيف تحافـظ عليها فحسب. في الظروف العاديـة فإن شابة جميلة ووحيدة مــا كانت ستفكر في أي أمر آخــر. إن الصرح الكامل للسلطة الأنثوية مبنــي على حجر الأساس ذاك: العفة هي جوهرها وركيزتها الوسطى التــي تجعلهنّ يصبن بالجنون لحمايتهــا ويمتن حين تُسلبَ منهن. ولكن بالنسبــة إلى من كان رجلاً لثلاثين سنــة أو نحوها، وسفيراً أيضاً زيادة

علـى ذلك، رجلاً ضـم ملكة بين ذراعيه وسيدة نبيلة أو اثنتين أيضاً من مرتبة أدنى ، إن صدقت الرواية، ولو كان قد تزوج من «روزينا بيبيتا»، وهكذ دواليك، لما كان سيجفل كثيراً تجاه ذلك الشعور. كانت إجفالة أورلندو من نوع معقد جداً، وليس ممكناً تلخيصها في لحظة. لم يسبق لأحـد أن اتهمهـا بأنها من أصحاب الذكاء السريـع الذين يصلون إلى مغزى الأمـر في دقيقة. لقد استغرقها الأمر طول الرحلة البحرية كلها حتى فهمت معنى إجفالتها؛ وها نحن نتابعها حسب سرعة حركتها.

فكرت بعد أن تخلصت من إجفالتها، وهي تستلقي بكامل طولها تحـت الظلة: »يا إلهي، هـذا أسلوب حياة سار وكسـول بكل تأكيد. ولكـن»، وهنا رفست بساقيها وتابعـت التفكير: »وجود هذه التنانير من حول كاحلي بلاء في بلاء. ومع ذلك فإن القماش (من قملة الحرير المزهّـر) هـو الأجمل في هذا العـالم. لم يسبـق لي أن شاهدت بشرتي (وهنـا وضعـت يدها على ركبتهـا) تبدو متميزة كما هـي الآن. هل بإمـكاني يا ترى أن أقفز من على متن المركـب وأسبح بملابس كهذه؟ لا! لذلك عليّ أن ألجأ إلى حماية أحد البحارة. هل أعترض على ذلك؟ هل أفعل حقاً؟» هكذا تساءلت وهي تواجه هنا أول عقدة في الخصلة الناعمة لحجتها.

وصلت وجبة الغداء قبل أن تحل تلك العقدة، ثم أن القبطان نفسه- الكابـتن نيكولاس بنديكت بارتولوس- وهو قبطان بحري ذو سمعة تستحق الاحترام، وقد مارس الاحترام وهو يقدم إليها شريحة من لحم العجل المقدد.

سألها: »القليـل مـن الدهن يـا سيدتي؟ اسمحـي لي أن اقتطع لك أصغـر شريحة بحجم ظفـر أصبعك.» سرت رعشـة لذيذة في بدنها

لدى سماعها لهذه الكلمات. شدتِ الطيور واندفعت السيول. لقد ذكرها ذلك بالسرور الذي لا يوصف الذي انتابها حين شاهدت «ساشا» للمرة الأولى، قبل مئات السنين. عندها قامت بالمطاردة، والآن هاهي تهرب. أي النشوتين أعظم؟ نشوة الرجل أم المرأة؟ أو ليسا الشيء نفسه على الأرجح؟ كلا، فكرت، هذا أعظم لذة (أن تشكر القبطان مع الرفض)، أن ترفض وتراه يقطب حاجبيه. حسناً، ستأخذ لو رغب هو في ذلك، أصغر قصاصة في العالم. كان هذا هو ألذّ شيء، أي الاستسلام ومشاهدته وهو يبتسم. فكرت وهي تسترجع مكان اضطجاعها على متن المركب، وتستمر في النقاش مع نفسها: «لاشيء أبهج من المقاومة والاستسلام، من الاستسلام والمقاومة. لا شك أن هذا يقحم الروحِ في نشوة كما لا يمكن لأي شيء آخر أن يفعل. تابعت التفكير: »إذاً، لست متأكدة من أني لن أرمي بنفسي من فوق سطح المركب، لمجرد الاستمتاع بأن أنقذ من قبل بحار على أي حال.»

(لا بدّ أن نتذكر أنها كانت أشبه بطفل يدخل لأول مرة منتزهاً أو يمتلك خزانة دمى. لذا فإن حججها لن تصل إلى حجج النساء الناضجات اللواتي خبرن معنى الأنوثة طوال حياتهن.)

قالت: »ولكن ما الذي اعتدنا نحن معشر الشابات قوله في قمرة السفينة «ماري روز»عن امرأة رمت بنفسها في البحر من أجل متعة أن تُنقذ من قبل بحار ؟ كان لدينا نعت خاص بمثل هؤلاء النساء. آه! تذكرتها... (ولكن علينا ألا نذكر تلك الكلمة فقد كانت مهينة إلى أقصى حد، وتبدو غريبة إذ تخرج من شفتي سيدة نبيلة.) ثم صاحت: »يا إلهي! يا إلهي!» في ختام أفكارها وقالت لنفسها: »هل عليّ أن أبدأ إذاً باحترام آراء الجنس الآخر مهما كانت قبيحة في نظري؟

لو كنت أرتدي التنانير ولا أستطيع السباحة ولا بد أن ينقذني بحار، فيا إلهي! عليّ أن أكون كذلك!» هكذا صاحت. عندها حلت بها الكآبة. وبما أنها كانت صريحة بطبيعتها وتكره كل أنواع الغموض، فقد كان الكـذب يشعرها بالملل. بدا لها الكـذب كطريقة ملتوية في التصرف. ومع ذلك فقـد تأملت في قماش قملة الحرير المزهّر... في متعة أن يتم إنقاذها من قبل بحار... لو كان الحصول على هذين الأمرين لا يتم إلا بالطرق الملتوية، فلتكن طرقي ملتوية، هكذا افترضت. تذكرت كيف كانـت تصرّ وهي ما تـزال شاباً صغيراً على أن المـرأة يجب أن تكون مطيعة وعفيفة ومعطرة وترتدي ملابس جميلة جداً. فكرت: «والآن علـيّ أن أدفـع من شخصي ثمـن تلك الرغبـات، فالنسـاء لسن (إذا حكمت من خـلال تجربتي القصيرة كامـرأة) مطيعات ولا طاهرات ولا معطـرات ولا ألبستهـن الطبيعة أجمل الثياب. فهـن لا يستطعن الحصـول على هذه النعم التي بدونها لا يمكنهـن أن ينلن أي متعة من متع هذه الحياة، دون الخضـوع لأكثر الأنظمة إملالاً. فكرت: «هناك العناية بالشعر وتصفيفه، هذا لوحده سيستغرق مني ساعة في الصباح؛ وهناك النظر في المرآة، ساعة أخرى؛ وهناك استعمال البودرة؛ وهناك تغيير الملابس من الحرير إلى الدنتلا ومن الدنتلا إلى قملة الحرير؛ وهناك أن تكـون المرأة عفيفة سنة بعـد أخرى...» وهنا رفعت ساقها بحركة مفاجئـة وكشفـت عن بوصـة أو اثنتين من ربلة ساقهـا. أجفل بحار كان على صـاري السفينة، وصدف أن كان ينظر إلى الأسفل في تلك اللحظة، وكانـت إجفالته عنيفة إلى حد أن قدمه زلت ولم ينج بروحه إلا بشق الأنفس. فكرت أورلندو: «لو كانت رؤية كاحليّ تعني الموت لشخصـ شريف لديه دون شك زوجة وأسـرة يعيلهما، فعليّ من أجل الإنسانيـة جمعاء أن أبقيهما مستورين.» ومع ذلك فقد كانت ساقيها بـين أجمل كنوزها. وقـد راحت تفكر في هذا المـأزق الغريب الذي

وصلنـا إليه، حين يكون مـن الواجب ستر جمال المـرأة كله لئلا يقع بحـار من أعلى الصـاري. قالت وهي تدرك لأول مـرة ما الذي كان يجب أن تتعلمه في الصغـر أي المسؤوليات المقدسة للأنوثة: » فليحل الوباء بهم؟ »

فكرت: »وهـذه آخر سبة سأتمكن مـن التلفظ بها ما أن أطأ التراب الإنكليـزي. ولـن أتمكن قط من ضـرب رجل على رأسـه أو أن أقول لـه إنـه يكذب، أو أن أجـرد سيفي وأخترق جسده بـه، أو أن أجلس بين أنـدادي، أو أن ألبس تويجاً، أو أمشي في موكب، أو أحكم على رجل بالمـوت، أو أقـود جيشاً، أو أطفـر بحصاني عـبر وايتهول، أو أضع اثنتـين وسبعين ميدالية على صدري. كل مـا أستطيع فعله ما أن تطـأ قدماي التراب الإنكليـزي هو أن أصب الشـاي وأسأل أسيادي كيف يحبونه. «هل تريد سكراً؟ هل تريد القشدة؟» لفظت الكلمات بتصنـع فأصيبت بالهلـع إذ أدركت كيف أصبحت تنظـر إلى الجنس الآخـر، الرجولي، نظـرة دونية، وهـي التي كانت تفتخـر ذات مرة بالانتساب إليه. فكرت: »أن تقع من أعلى الصاري بسبب أنك رأيت ربلة ساقي امـرأة؛ وأن ترتدي زياً يشبه ما كان يرتديه «غاي فوكس» وتختـال في الشوارع، حتـى تثني امرأة عليـك؛ وأن تنكر حق المرأة في التعليـم حتى لا تهـزأ منك؛ وأن تكون عبـداً لأضعف امرأة، وأن تختال وكأنك من أسياد الخلق... فكرت: »يا للسماء! كيف يعاملوننا كالحمقاوات! وكـم نحن حمقاوات! » ويبدو هنا من خلال غموض عباراتها أنها كانت تنتقد كلا الجنسين على حد سواء وكأنها لا تنتمي إلى أي منهمـا. وبالفعل فقـد كانت في هذه اللحظـات تتردد بين أن تكون رجلاً أو تكـون امرأة. كانت تعرف أسرار كلا الجنسين ونقاط ضعفهما. كانت في وضع ذهني مربك ومدوّخ إلى أقصى حد. بدت

رفاهيـة الجهل بعيـدة جداً عنها. كانت ريشـة في مهب الريح. لذلك ليس علينـا أن نستغرب وهي تقارن الجنـس الواحد مع الآخر، وتجد كلاً منهمـا مليئاً بالعلـل البائسة ، أنها لم تعد واثقـة إلى أيهما تنتمي، وأنهـا ستصرخ بأنها ستعود إلى تركيا وتعود غجرية مرة أخرى وذلك حـين أنزلت المرساة مع رشاش هائـل في البحر. هبطت الأشرعة على مـتن السفينة، وأدركت (كانت غارقـة في أفكارها إلى حد أنه لم تكن تـرى أي شيء منذ أيام عديـدة) أن السفينة رست على شاطئ إيطاليا. أرسل القبطان فوراً يطلب شرف مرافقتها في الزورق الكبير.

حين عادت في الصباح التالي، تمددت بجسمها على أريكتها تحت الظلة ورتبت أغطيتها بأكثر ما تتطلبه الحشمة من حول ربلتي ساقيها.

فكرت وهي تنهي الجملة التي تركتها دون أن تنهيها في ذلك اليوم الآخر: «بما أننا جاهلات وبائسات بالمقارنة مع الجنس الآخر، وهـم قد تدرعوا بكل سلاح، بينما يحرمون علينا حتى معرفة الأبجدية» (ومن هـذه الكلمات الافتتاحية يتضح أن شيئـاً ما قد حدث خلال الليل مما جعلهـا تندفع لصالح الجنـس الأنثوي، فقد كانـت تتكلم كما تتكلم النسـاء أكـثر من طريقة الرجال في الكلام، ولكـن مع نوع من الرضا على أي حـال) «ومع ذلك لا يزالون يسقطون مـن أعلى الصاري». وهنا تثاءبت بشدة ثم غفت. حين استيقظت، كانت السفينة تبحر مع نسيـم لطيف وبقرب شديد من الشاطئ إلى حـد أن البلدة على حافة الجـرف بدت وكأن ما يمنعها من الانـزلاق إلى الماء هو تدخل صخرة عظيمة مـا أو الجذور الملتوية لشجرة زيتـون عتيقة. كان يصلها وهي فوق متن السفينـة أريج البرتقال المنبعث من مليون شجرة محملة بتلك الفاكهـة. كان عشرون من الدلافـين الزرقاء التي تلـوي ذيولها تقفز عاليـاً بين الحين والآخر في الهواء. مطت ذراعيها (الذراعان كما سبق

لها وعرفت ليس لها تلـك التأثيرات القاتلة شأن الساقين)، وحمدت السمـاء أنها لم تكن تطفر عبر شارع وايتهول على حصان حربي، ولا حتـى تحكم بالموت على شخص مـا. فكرت: »الأفضل هو أن يرتدي المـرء لبوس الفقر والجهـل وهما الزيـان الداكنان للجنـس الأنثوي؛ الأفضـل هو أن يهجر الحكم والنظام في هذا العالم للآخرين؛ الأفضل هـو التخلي عن الطمـوح الحربي وحـب السلطة وجميـع الرغبات الذكورية الأخـرى، وذلك ليتمتع بأكثر النشـوات المثيرة التي تعرفها روح البشـر، ألا وهي (وهنـا نطقت بصوت مرتفع كمـا هي عادتها عندما تكون مستثارة بعمق) التأمل والعزلة والحب.»

صرخت: »الحمـد لله أنني امـرأة!» وكادت ترتكب حماقة كبيرة، أن تكـون فخورة بجنسها- وليس هذا سوى أمر مسبب للأسى لدى النسـاء والرجـال على حد سـواء- وذلك حين توقفـت عند الكلمة الفريـدة التـي زحفـت إلى نهايـة جملتهـا الأخيرة رغـم كل جهدنا لوضعهـا في المكان المناسب: الحب. «الحـب» قالت أورلندو. وعلى الفور- وهكذا هو طيش الحب- تجسّد الحب في شكل بشري: هكذا هـو غروره. فبينمـا يكفي الأفكار الأخـرى أن تبقى مجردة، فلا شيء يرضي الحب سوى أن يكتسي باللحم والدم والوشاح المخرم والتنورة والجـوارب والسترة الطويلة. وبما أن كل من أحبـت أورلندو كنّ من النسـاء، فها هي تحب امرأة ما تـزال. ولو كان للوعي بأنها من الجنس نفسـه أي تأثير علـى الإطلاق، فقد سـرّع وعمّق تلـك المشاعر التي تحلـت بها عندما كانت رجلاً. فقد أصبحـت الآن آلاف التلميحات والألغـاز جليـة لها بعد أن كانـت مجهولة في ذلك الحـين. فالآن زال الغموضـ الذي يفصـل الجنسين، ولو كان هنـاك أي شيء فيما يقوله الشاعر عـن الحقيقة والجمال، فإن هذه العاطفـة المكتسبة في الجمال

تُفقد في الزيف. أخيراً، صرخت بأنها كانت باتت تعرف «ساشا» على حقيقتها، وفي حماستها لهذا الاكتشاف، وفي ملاحقتها لكل تلك الكنوز التي تكشفت لها الآن، فقد كانت في حالة من النشوة والافتتان إلى حد أنها أحست وكأن قنبلة قد انفجرت عند أذنها حين قال صوت رجل: »اسمحي لي يا سيدتي» وامتدت يد لتنهضها من جلستها؛ وأشارت أصابع رجل، وُشم رسم سفينة بثلاث صوار على الأصبع الوسطى منها، إلى الأفق.

قال القبطان: »جروف إنكلترا يا سيدتي». ورفع يده التي أشارت إلى السماء ليحيّي بها. أجفلت أورلندو مجدداً وعلى نحو أقوى من المرة السابقة.

صرخت: »يا يسوع المسيح!»

لحسن الحظ، فإن مشاهدتها لأرض وطنها بعد غياب طويل قد وفرت عذراً لإجفالتها وصرختها، وإلا لكان سيصعب عليها أن تشرح للقبطان بارتولوس سبب الانفعالات الغاضبة والمتصارعة التي كانت تغلي الآن فيها. كيف ستقول له إنها كانت دوقاً وسفيراً وهي التي ترتجف بينما تمسك بذراعه؟ كيف ستشرح له أنها الملفوفة الآن بطيّات من قملة الحرير قد أطارت برؤوس عن جذوعها وضاجعت نساء فاجرات بين أكياس مليئة بالكنوز في عنابر سفن القراصنة في ليال صيفية حين تتفتح زهور الزنبق، ويئز النحل على «وپينغ أولد ستيرز»؟ لم تكن تستطيع أن تفسر حتى لنفسها الإجفالة الهائلة التي بدرت عنها حين أشارت اليد المصممة للقبطان إلى جروف الجزر البريطانية.

همهمت: »أن أرفض وأن أستسلم، لكم هذا ممتع؛ أن أطارد

وأُخضـع، لكم هذا جليل؛ أن أعـي وأن أفكر، لكم هذا سام». لم تبد لهـا أي من هذه الكلمات التي أوردتها زوجاً زوجاً على أنهّا خاطئة، وعلـى أي حال عندما أصبحـت الجروف الكلسية أقـرب، أحست أنها جديـرة باللوم ومخزية وغير طاهرة؛ وهذا أمـر غريب بالنسبة إلى شخص لم يسبـق له قـط أن فكر في هـذه المسألـة. اقتربت الجروف أكـثر فأكثر، حتى أصبـح جامعو الأشنـان المتسلقـون حتى منتصف ارتفاع الجرف مرئيين للعين المجـردة. وبينما راحت تراقبهم شعرت أن «ساشـا» المضيعة، ساشـا الذكرى، وقد أثبتت للتـو حقيقتها على نحو مدهش جداً... تعدو صعوداً ونـزولاً في داخلها كشبح ساخر هـو في لحظة أخـرى سيحمل تنانيرهـا ويرفرف مختفياً عـن الأنظار. شعـرت أن «ساشا» كانت تمسح وتجزّ وتقـوم بكل الايماءات الفاجرة نحو الجروف وجامعـي الأشنان. وحين بدأ البحارة ينشدون «وداعاً وإلى اللقاء يا سيدات إسبانيا»، تردد صدى الكلمات في قلب أورلندو الحزيـن، وأحست أنه مهمـا عنى النزول إلى البر هنـاك الراحة وعنى الـثروة وعنى المنزلة الرفيعة والأبهـة (فهي ستتزوج دون شك من أمير نبيل وتحكم كزوجة له نصف يوركشر)، ومع ذلك فلو كان الأمر يعني الحياة التقليدية ويعني العبودية ويعني الخداع ويعني إنكار حبها وتقييد أعضائهـا وزمّ شفتيها ولجم لسانها، عندها فسـوف ستجعل السفينة تغير مسارها وتبحر من جديد إلى الغجر.

خـلال السريـان السريع لهذه الأفـكار، وعلى أي حـال، فإنه برز الآن كقبـة مـن الرخام الأبيض الصقيل شيء ما، سـواء كان حقيقياً أم خياليـاً ، وكان شديـد التأثير على مخيلتها المحمومة حتـى أنها تيقنت مـن أنـه كمن يـرى شخص ما سـرب مـن اليعاسيب الناريـة المدومة والمضيئة برضا واضح على الجرس الزجاجي الذي يستر نباتاً رقيقاً من

الخضـار. كان شكله، بمحض الصدفة المتأتية من الخيال، يذكرها بتلك الذكـرى القديمة والأكـثر إلحاحاً- الرجل ذو الجبـين الكبير في غرفة جلوسـ «تويتشيت»، الرجل الذي كان جالسـاً يكتب، أو بالأحرى يرنـو، ولكـن ليس إليها، فلم يبـد عليه قط أنها يراهـا واقفة هناك في كل ملابسها المبهرجة، رغم أنها كانت صبياً جميلاً، وهي لا تستطيع إنـكار ذلـك. وكما فكرت فيـه كانت الفكرة تنتشر مـن حولها كما القمـر المشرق على المياه المضطربة، لوح من الركـود الفضي. والآن امتـدت يدها إلى صدرهـا (كانت الأخرى ما تـزال في يد القبطان)، حيـث كانت صفحـات قصيدتها مخبـأة. كانت الارتبـاكات المتعلقة بالجنسـ، ما هو جنسها، ومـاذا يعني، قد همدت. لم تكن تفكر الآن إلا بمجـد الشعر والأبيات العظيمة التي نظمهـا مارلو وشكسبير وبن جونسون وميلتون بدأت تهـدر وتتذبذب، وكأن لسان جرس ذهبي راح يقرع علـى جرس ذهبي في برج الكاتدرائيـة الذي كان ذهنها. والحقيقـة هي أن صورة القبة الرخامية التي اكتشفتها عيناها لأول مرة علـى نحو واه جداً حتـى أنها أوحت بجبين شاعـر، وهكذا أطلقت سرباً من الأفكار غير ذات صلة، هذه الصورة لم تكن خيالاً، بل كانت واقعـاً. ومع تقدم السفينة عبر نهر التيمز تدفعها ريح مؤاتية، تراجعت الصـورة مـع كل تداعياتها أمام الحقيقة، وكشفـت عن نفسها عن لا شيء سوى مجرد قبة كاتدرائية برزت بين شبكة من الأبراج البيضاء.

قـال القبطـان بارتولوس: »كاتدرائيـة القديسـ بولسـ» و »برج لنـدن» و »مشفـى غرينيتش» الذي أنشئ في ذكـرى الملكة ماري من قبـل زوجها، جلالة الراحـل، الملك ويليام الثالث. ثـم «دير وكنيسة وستمينيسـتر» ودار البرلمـان. وبينما كان يتكلـم، كان كل واحد من هـذه الأبنية الشهيرة يبرز للناظر. كان صباح يوم جميل من أيام أيلول

(سبتمبر). كان عدد ضخم من المراكب يذرع النهر جيئة وذهاباً من ضفة إلى أخرى. نادراً ما ظهر مشهد أكثر مرحاً أو إثارة للاهتمام أمام ناظري مسافر عائد إلى وطنه. تعلقت أورلندو بمقدم المركب وهي مستغرقة في المشهد. لقد اعتادت عيناها لفترة طويلة مشاهدة الهمج والطبيعة بحيث لم يكن ممكناً لها ألاّ تُفتن بتلك الروائع المدينية. إذاً هذه هي كنيسة القديس بولص التي شيدها «السيد رِن» خلال غيابها. إلى القرب منها برزت مفاجأة من الشعر الذهبي من عمود... كان القبطان بارتولوس إلى جانبها ليقول لها إن ذلك كان «النصب»، فقد حلّ وباء وحدث حريق كبير خلال غيابها. لم تستطع أن تغالب دموعها مهما بذلت من جهد، وحين تذكرت أنه يليق بالمرأة البكاء، فقد تركتها تنهمر. فكرت: هنا حضرت الكرنفال العظيم. هنا، حيث تضرب الأمواج البر بخفة انتصب السرادق الملكي. وهنا قابلت «ساشا» لأول مرة. في هذه الأنحاء (نظرت إلى المياه المتلألئة) اعتاد المرء أن يرى امرأة زورق الخدمة المتجمدة وتفاحاتها على حضنها. لقد انقضت كل تلك الروعة وذلك الفساد. كما انقضت أيضاً الليلة المظلمة والمطر المنهمر بوحشية والأمواج العنيفة للطوفان. هنا، حيث كانت قطع الجليد الضخمة تتسابق وهي تدوّم مع طاقم من البائسين المروّعين وقد جثموا فوقها، نرى الآن سرباً من البجع تطفو، فخورة، متموجة ورائعة. كانت لندن نفسها قد تغيرت تماماً منذ أن رأتها لآخر مرة. تذكرت أن لندن كانت آنئذ مجرد تجمع لمنازل صغيرة سوداء تغزوها الخنافس. كانت رؤوس الثوار تكشّر فوق رماح عند «حاجز المعبد». كانت الأرصفة المرصوفة بالحصى تفوح منها روائح القمامة والقذارة. والآن، وبينما راحت السفينة تبحر عبر «وپينغ» لمحت شوارع عريضة ومنظمة. كانت عربات فخمة تجرها أطقم من الخيل جيدة التغذية تقف عند أبواب منازل كانت نوافذها المقوسة ومقارع

أبوابهـا الصقيلة تشهد على الثراء والنبـل المحتشم للقاطنين فيها. كما كانت سيدات نبيـلات في ملابس من الحرير المزهّر (كانت تتطلع من خلال منظار القبطان) وهن يتمشين فوق ممرات عالية خاصة بالمشاة. وكان مواطنون في معاطف مزركشـة يدسون السعوط في أنوفهم في زوايـا الشوارع تحت أعمدة النور. لمحت عـدداً متنوعاً من اللافتات المرسومـة تتأرجـح في النسيـم واستطاعـت أن تشكل فكـرة سريعة ممـا كتب عليهـا أن ما يباع ضمـن الحوانيت المعلقـة عليها هو الحرير والذهـب والأواني الفضية والقفازات والعطـور وألف مادة أخرى. و لم تستطـع أن تغالب النظـر، والسفينة تتجه نحـو مرساها عند جسر لنـدن، إلى واجهات المقاهي حيـث كانت الشرفـات تغص بمواطنين محتشمـي الملابس يجلسون براحة وقد وضعـت أمامهم أطباق صينية وإلى جانبهـم غلايـين فخارية، بينمـا كان أحدهم يقـرأ من جريدة، وكانـوا يُقاطعون مـراراً بضحـكات أو بتعليقات الآخريـن. سألت القبطان بارتولوس: «هل كانت هـذه حانات، وهل هؤلاء هم ظرفاء وشعـراء؟» فتلطف هذا وأجابها أنها لو التفتـت الآن برأسها قليلاً إلى اليسـار ونظـرت على امتداد الخـط الذي يرسمه أصبعـه- فقد كانوا يمـرون تحـت «شجرة الـكاكاو»- فسـترى السيد أديسـون يحتسي قهوتـه. أما السيـدان النبيلان الجالسـان «هناك يا سيدتـي إلى اليمين قليـلاً من عمود النـور، وأحدهمـا ذو حدبة والآخر مثلـك أو مثلي هما السيد درايدن والسيـد پوپ. (١) يالهما من شخصين حزينين.» وكان القبطـان يعني أنهما كانا «من أتباع البابـا» أو «كاثولييكيين». ثم أضـاف القبطان: »ولكنهما أديان على أي حال» وهو يهرع نحو مؤخر السفينة ليشرف على إجراءات الرسو.

كـررت أورلندو: »أديسـون، درايـدن، پوپ»، وكأن الكلمات

كانــت تعويذة. ولبرهة رأت الجبــال العالية فوق «بروسة» وفي البرهة التالية وضعت قدمها على شاطئ وطنها.

XXX

ولكن أورلندو كانــت ستعرف كم هي قليلة فائدة أكثر اهتياجات الإثارة عنفــاً أمام الوجه الحديد للقانون؛ وكــم هو أقسى من حجارة جســرِ لندن ومن شفتــي المدفع. ما أن عــادت إلى بيتها في بلاكفرايرز حتى أُبلغت من قبل سلسلــة من مراسلي «باو ستريت» ورسل آخرين وقوريــن من المحاكم أنها طرف في ثلاث قضايا رئيسية رفعت ضدها خلال غيابها، وكذلك في دعاوٍ ثانوية لا حصر لها ناجمة عنها وأخرى معتمدة عليها. والتهم الأساسيةَ ضدها كانت: ١) أنها متوفاة وبالتالي لا يمكنها حيــازة أي ملكية مهما كانت؛ و ٢) أنها كانت امرأة وخذا يعنــي الشيء نفســه؛ و٣) أنها كانت دوقاً إنكليزيــاً تزوج من راقصة اسمهــا «روزينا بيبيتا»؛ وأنه رزق منها بثلاثــة أبناء كانوا يعلنون الآن أن أباهم قد توفي ويطالبــون بأن يرثوا جميع أملاكه. كانت مثل هذه التهم الخطــيرة تتطلب بالطبع الوقت والمــال لضحدها. كانت جميع أملاكها قــد وضعت تحت تصرف مكتب قاضــي القضاة كما عُلقت جميع ألقابها خلال إجراءات المحاكمة المتعلقة بتلك القضايا. وهكذا حــدث، وهي في هذا الوضع الملتبــس: فهي غير واثقة من كونها حية أو ميتــة، رجلاً أم امرأة، دوقاً أو لا أحد؛ حدث أن مضت إلى ضيعتها الريفية حيث سمح لها القانون بالإقامة ريثما تنتهي إجراءات المحاكمة تحت اسم مستعار مذكر أو مؤنث حسب ما ستنتهي إليه الأمور.

كان مســاء لطيفــاً من أماســي شهر كانــون الأول (ديسمبر) حين وصلت والثلــج يهطل والظلال البنفسجية تنحــدر بقدر ما شاهدتها

تلـك المرة من أعلى الجبل وهي في «بروسة». كانـت الدارة الكبيرة أشبه ببلدة منها بمنزل، بنية وزرقاء، وردية وأرجوانية في الثلج وجميع المداخن تنفث دخانها بقوة وأنها تستوحي حياة من لدنها. لم تستطع أن تكتم صرخة وهي تراها هناك هادئة وهائلة الحجم، مضطجعة فوق المروج. ومع دخول الغربـة الصفراء الحديقة ووصلت وهي تتدحرج علـى امتداد الممر بين الأشجار، رفعت الأيائل الحمراء رؤوسها وكأنما كانـت تتوقع وصولهـا، ولوحظ أنه بدلاً عـن أن تبدي الجبن المعهود في جنسها، فقـد راحت تلاحق العربة وتوقفت في أنحاء الباحة حين توقفـت. البعض منها رفعت قرونها فجـأة، بينما راحت أخرى تحفر الأرض حين أنزلـت مرقاة العربة وترجلت أورلنـدو منها. ويقال إن إحدى الأيائل ركعت أمامها. وقبل أن يتاح لها أن تمد يدها إلى مقرعة الباب فُتح مصراعا البوابة الكبيرة وهناك مع الأنوار والمشاعل المرفوعة فوق الرؤوس تقدمت السيـدة غريمسديتش والسيـد داپر ومجموعة كاملـة من الخدم لتحيتهـا. ولكن الموكب المنتظم قوطـع أولاً من قبل «كانوت» كلب الأيائل الذي رمى بنفسه بكل حميّة على سيدته فكاد يوقعهـا أرضاً، ثم من قبل اهتيـاج السيدة غريمسديتـش التي انحنت باحـترام ولكن غلبتهـا العاطفة والانفعـال فراحت تلهـث قائلة: «يا سيـدي! يا سيدتـي! ياسيدتي! يا سيدي! حتى واستهـا أورلندو بقبلة وديـة على خديهـا. بعد ذلك، بـدأ السيد داپر يقرأ مـن رقّ جلدي، ولكـن الكلاب كانـت تنبح والصياديـن ينفخـون بأبواقهم، وذكور الأيائـل التي دخلـت إلى الباحة خـلال تلك الفوضـى، راحت تنبح للقمـر، فلم يستطع الاستمرار في القـراءة؛ فتفرق الجمع داخل الدارة بعدما احتشـدوا من حول سيدتهم، وهم يبرهنـون بكل الطرق على بهجتهم الكبيرة بعودتها.

لم يبـد أي شخص أدنى شك بـأن أورلندو لم تكن ذلك الأورلندو الـذي عرفوه. ولو كان هناك أي شـك في الذهن البشري فإن تصرف الأيائل والـكلاب كان كافيـاً لتبديد ذلك الشك، فتلـك المخلوقات البكمـاء، كما هو معروف تماماً، هي أفضل منا بكثير في حكمها على الهويـة والشخصية. وزيادة علـى ذلك، قالت السيـدة غريمسديتش وهي تشـرب الشاي من فنجان صيني في تلك الليلـة للسيد داپر، إنه لـو كان سيدها امـرأة الآن، فهي لم يسبق لهـا أن رأت من هي أجمل منها، ولا مجال للاختيار بـين الرجل والمرأة في أورلندو، فهما مثاليان كلاهما الواحد بقدر الآخر. كانا أشبه بحبتي دراق على غصن واحد. ثـم قالت السيـدة غريمسديتش وهي تتحدث بحميميـة الآن إنه كان لديها دائماً شكوكها (وهنا أومأت برأسها على نحو شديد الغموض) و لم يكـن ذلك مثيراً لدهشتها، (وهنا أومأت برأسها شأن العارفة بكل شـيء)، وإنه بالنسبة إليها مبعث راحة كبيرة: فالمناشف تحتاج إلى رتق والستائـر في بهـو القسيس قـد أكلها العث من حـول شراريبها، وإن الوقت قد حان لوجود ربة بيت بينهم.

«وبعض السـادة الصغار والسيدات الصغـيرات»، أضاف السيد داپر وهـو الذي يتميز بالقدرة على التطرق إلى مثل هذه الأمور بفضل منصبه الديني.

وهكـذا بينما كان الخدم العجائز يثرثرون في بهو الخدم، أمسكت أورلنـدو بشمعـة في يدها وراحت تتجـول عبر القاعـات والأروقة والباحات وغرف النوم. شاهدت الوجهين الداكنين لـ «اللورد القيّم» و»اللـورد الحاجب» وهمـا ينظران إليها من علٍ، بـين صور أسلافها الآخريـن. وهاهي تجلسـ الآن في هذا الكرسي، كرسـي الأمجاد، ثم تستريح تحت ظلة المسرة؛ إنها تراقب الستارة المزركشة وكيف تتأرجح.

ولاحظت رسم الصيادين على جيادهم و«دافني» وهي تطير. وهاهي تغسل يدها، كما اعتادت أن تفعل وهي طفلة بعد، في البركة الصفراء لنــور القمر الساقط عبر الفهد النذيــر في النافذة. انزلقت عبر الأرض المرصوفــة بالخشب للرواق، الذي كان الجانب الآخر منه من الخشب غير المصقول. هاهي تلمس هذا الحرير وذلك الساتان. هاهي تعجب بالدلافين المنحوتة وهي تسبــح، وتمشط شعرها بفرشاة الملك جيمس الفضيــة، وتدفن وجهها في معطر الجوّ الــذي صُنع حسب ما علمهم «ويليــام الفاتح» قبل مئات السنين ومن الــورود نفسها؛ وهاهي تنظر إلى الحديقــة وتتخيل نباتات الزعفران النائمة ونباتات الدهلية الغافية؛ تشاهد الحوريــات الرقيقات وهن يومض بيضاوات في الثلج وأسيجة الطقسوس العظيمــة، السميكة بقدر منزل، تبــدو سوداء من خلفها. كمــا شاهدت بيوت الدفيئة وأشجــار الزعرور الضخمة ... شاهدت هــذا كله، وكل مشهد وصوت، كمــا ندوّن ذلك ببساطة، فملأ قلبها بشهوة وبلســم الفرح، حتى أنها أنهكت أخــيراً، فدخلت إلى المعبد وغرقــت في الكنبة القديمة الحمراء اللون التي اعتاد أسلافها الاستماع إلى القداس منها. وهنــاك أشعلت سيجاراً (كانت هذه عادة اكتسبتها في الشرق) وفتحت كتاب الصلوات.

كان كتابــاً صغيراً مجلــداً بالمخمل ومخيطاً بالذهــب حملته «ماري ملكــة الأسكوتلنديين» وهــي على منصة الإعــدام، وكان يمكن لعين المؤمن أن ترى بقعــة بنية اللون يقال إنها نقطة من الدم الملكي. ولكن مــن يجرؤ على القول مــا هي الأفكار الورعة التــي كان هذا الكتاب يثــيره في أورلندو، وما هي الأحاسيس الشريرة التي كان يكبتها، وهو يــرى أنه بين جميع المناولات المقدسة كان هــذا الطقس مع الرب هو الأكثر غموضاً؟ يتردد الروائي والشاعر والمؤرخ جميعاً وأيديهم على ذلــك الباب؛ ولا حتى المؤمــن نفسه ينوّرنا ، فهو أكــثر استعداداً لأن

يموت بالمقارنة مع الأشخاص الآخرين، أو هل هو أكثر توقاً لمشاركة الآخرين في أملاكه؟ ألا يحتفظ بالكثير من الخادمات وجياد جر العربات مثل البقية؟ ومع ذلك، فهو يحمل مع كل هذا ديناً يقول هو إنه يعتبر الأملاك شيئاً تافهاً أو مجرد غرور والموت مرغوباً. في كتاب صلوات الملكة توجد مع بقعة الدم خصلة من الشعر وفتات فطيرة. وقد أضافت أورلندو الآن إلى هذه التذكارات رقاقة تبغ. وهكذا كانت تقوم هي بالقراءة والتدخين؛ فيثيرها الخليط الإنساني كله – الشَّعر والفطيرة وبقعة الدم والتبغ– إلى أن تصل إلى مزاج من التأمل يمنحها سيماء موقرة ملائمة للظروف، رغم عدم وجود، كما يقال، أي اتصال لها مع الرب. لا شيء يمكن أن يكون أكثر وقاحة، على أي حال، رغم أنه لا شيء أكثر بعداً عن الافتراض بأنه لا يوجد بين الآلهة سوى إله واحد، وبين الأديان سوى دين المتكلم. كان لأورلندو، على ما يبدو، دينها الخاص بها. وبكل الغيرة الدينية في هذا العالم، فقد راحت تتأمل الآن في خطاياها والعيوب التي زحفت إلى حالتها الروحية. إن حرف S هو الأفعى في جنة عدن الخاصة بالشاعر. ومهما فعلت كان ما يزال الكثير من تلك الزواحف الخاطئة في المقطع الشعري الأول من "شجرة السنديان". ولكن الـ S لا شيء في رأيها بالمقارنة مع نهايات الـ ing في الأفعال. اسم الفاعل في صيغة المضارع هو الشيطان نفسه، كما فكرت (الآن ونحن في المكان الملائم للإيمان بالشياطين). إن تجنب مثل هذه الإغواءات هو الواجب الأول للشاعر، كما استنتجت، فكما أن الأذن هي الحجرة المؤدية إلى الروح، يمكن للشعر أن يغشّ ويدمر على نحو أوثق من الشهوة أو البارود. فالشاعر إذاً هو صاحب المنصب الأعلى من الجميع، كما تابعت التفكير. إن كلماته تصل إلى حيث لا تستطيع كلمات غيره البلوغ. لقد فعلت أغنية ساذجة لشكسبير لأجل الفقراء والأشرار ما

عجـز عن فعله جميع الوعـاظ ومحبي الإنسانية في هذا العالم. لا يمكن بالتـالي لا للزمـان ولا لأي عبـادة أن يكونا عظيمين جـداً، مما يجعل وسيلـة نقل رسالتنا أقل تشويهاً. علينا أن نشكّل كلماتنا بحيث تكون أرقّ غشاء لأفكارنا. الأفكار مقدسة... إلخ. وهكذا فإنه من الواضح أنها عادت إلى تخوم دينها الخاص الذي زاده الزمن قوة خلال غيابها، وكان يكتسب بسرعة تعصب الإيمان.

فكرت وهي تحمـل شمعتها أخيراً: "أنا أصبح أكـبر سناً". هاأنذا أفقد بعض الأوهام." هكـذا قالت وهي تغلق كتـاب الملكة ماري. "ربما لأكتسب أوهاماً أخرى." ثم هبطت بين القبور التي رقدت فيها عظام أسلافها.

ولكـن حتى عظـام أسلافها: السـير مايلز والسير جرڤيـز والبقية منهم، كانت قد فقدت شيئاً من قدسيتها منذ أن لوّح "رستم السادي" بيـده في تلك الليلة في تلك الجبال الأسيوية. وعلى نحو ما فقد ملأت قلبها بالندم حقيقة أنه منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة مضت كانت هذه الهيـاكل العظمية رجـالاً يشقون طريقهم في هـذا العالم كأي محدث نعمـة معاصر، وأنهـم أفلحوا بامتـلاك المنازل والمناصـب، وربطات السـاق والنياشين، كما قد يفعل أي محـدث نعمة؛ بينما فضل الشعراء علـى الأرجـح، وأصحاب العقـول والنسب الرفيع، هـدوء الريف، ودفعـوا ثمن هذا الخيار عقوبـة الإملاق، فهاهـم الآن يبيعون كتبهم في شـارع الستراند أو يرعون الغنم في الحقـول. فكرت بالأهرامات المصريـة والعظام التي ترقد تحتها وهي تقف في سرداب المقبرة؛ وبدت التـلال الكبيرة والخالية فوق بحر مرمرة في تلك اللحظة مكاناً أجمل للسكن من هذه الدارة ذات الغرف الكثيرة التي لا يفتقر فيها أي سرير للحاف ولا أي طبق فضي إلى غطائه الفضي.

فكرت وهي تحمل شمعتها: "أنا أصبح أكبر سناً. هاأنذا أفقد بعض الأوهـام، ربما لأكتسب أوهاماً أخرى". وراحت تسير عبر الرواق الطويل نحو غرفة نومها. كانت تلك عملية مزعجة ومنهكة. ولكنها كانت مثيرة للاهتمام إلى حد مدهش، كما فكرت، وهي تمدّ ساقيها نحو نار الحطب (فلم يكن هناك أي بحّار الآن)، وراجعت، كما لو كان شارعاً من الصروح العظيمة، مسارها الشخصي على امتداد حياتها.

لكم أحبت الصوت حين كانت غلاماً وفكرت بأن وابل المقاطع الهائجة من الشفاه هو الأجمل بي كل الشِعر. ثم- كان هناك تأثير ساشا وتحررها من الوهم ربما- سقطت في هذه النوبة من الجنون الصاخب نقطة سوداء ما حولت نشوتها العاطفية إلى بلادة. وببطء، انفتح في داخلها شيء ما معقد ومتعدد الحجرات، من النوع الذي يتطلب من المرء أن يحمل مشعلاً حتى يتقصاه، نثراً وليس شعراً. ثم تذكرت كم قرأت بشغف كتاب ذلك الدكتور "براون" في نورويتش، وكان بين يديها في ذلك الحين. لقد شكلت هنا في العزلة بعد تعرفها على "غرين"، أو حاولت أن تشكّل، فالسماء وحدها تعرف أن هذه النماءات تستغرق عمراً في مجيئها، روحاً قادرة على المقاومة. قالت: "سأكتب ما أستمتع بكتابته". وهكذا خربشت ستة وعشرين مجلداً. ومع ذلك، فرغم كل أسفارها ومغامراتها وأفكارها العميقة ومسيرها في هذا الطريق أو ذاك، فقد كانت تمرّ بعملية التلفيق فحسب. والسماء وحدها من يعرف ما الذي سيجلبه المستقبل. كان التغيير متواصلاً وربما لن يتوقف أبداً. هاهي قلاع شامخة من الفكر، وعادات بدت صامدة كالصخر، تنهار مثل ظلال، لمجرد لمسة من عقل آخر، وتترك سماء عارية ونجوماً جديدة تلتمع فيها. مضت

الآن نحـو النافـذة، ورغم الـبرد لم تستطع مغالبة الرغبـة في فتحها. أطلـت منها بجسدها نحو هواء الليل الرطب. سمعت ثعلباً يعوي في الغابات وضوضاء طائر التدرج وهو ينتقل عبر الأغصان. كما سمعت صـوت الثلـج وهو يزحـف ويرتمي بتثاقـل من السطـح إلى الأرض. صاحت: "أقسـم بحياتي أن هذا المكان أفضـل بألف مرة من تركيا يا رستم"، وكأنها تخاطب ذلك الغجري. (وفي هذه القدرة الجديدة على الاحتمال فإن جدالاً مع شيخ غير حاضر أمامها ليعارضها والاستمرار في ذلـك، فإنهـا تكشف مجدداً عـن تطوراً في روحهـا). "لقد كنتَ علـى خطأ. هنا أفضل مـن تركيا. الشَعر والمعجنـات والتبغ... مهما تكـن تلك المجموعة من الأشياء التـي تكوّننا". (كانت تفكر بكتاب الملكة ماري). "يا له من سلسلة من الصور الغريبة هذا العقل ويا له من مكان لاجتماع المتناقضات! في لحظة ما نرثي لميلادنا وحالنا ونطمح إلى نشـوة زاهدة، وفي التاليـة تغلبنا رائحة ممرّ في حديقة قديمة ونبكي حين نسمع طيور السمان وهي تشدو." وبينما راحت تتحير كالعادة من كـثرة الأشياء التي تتطلب تفسيراً وتدمغ رسالتها دون أن تترك أي إشارة إلى معناها، رمت بسيجارها من النافذة وأوت إلى فراشها.

في صبـاح اليـوم التالي، وفي متابعة لهذه الأفـكار، أخرجت قلماً وورقة وبـدأت تعمل من جديد على "شجـرة السنديان". فاستعمال القلـم والحبر بوفرة بعد أن كانت مضطرة لاستخدام التوت وهوامش الصفحـات هو متعة لا يمكـن تصورها. وهكذا راحـت تخط عبارة في أعمـاق اليأس. والآن في أوج نشـوة الكتابة لاحظـت ظلاً يعتم الصفحة. وعلى عجل أخفت المخطوطة.

وبمـا أن نافذتهـا تطل على أكثر الباحات مركزيـة، وبما أنها كانت قـد أعطـت الأوامر بـألا يُسمح لأحـد بمقابلتهـا، وبما أنهـا لم تكن

تعـرف أحداً، وكانت هـي شخصية مجهولة قانونيـاً، فقد دهشت في البـدء من وجود الظـل، ثم شعرت بالسخط تجاهـه، ثم (حين رفعت بصرها وشاهدت من تسبّب به) طغى عليها المرح، فقد كان ذلك ظلاً مألوفاً، ظلاً عجائبياً، ظل شخصيـة عظيمة هي "الأرشدوقة هاريت غريزيلـدا أوف فينستر- آرهون أند سكانـد- أوب- بوم" من البلاد الرومانية. كانـت تتبختر عبر الباحة بملابس الركوب السوداء والعباءة العتيقة كما اعتادت سابقاً. لم تكن شعرة واحدة في رأسها قد تغيرت. كانت هذه إذاً المرأة التي جعلتها تهرب من إنكلترا! هذه هي وكر ذلك النسـر الداعر... هذه هي ذلك الطائر الفتاك أتت بشخصها! فهقهت أورلنـدو حـين فكـرت في أنهـا اضطـرت إلى الهروب حتـى تركيا لتتجنـب إغواءاتها (التـي أصبحت الآن شديـدة التفاهة). كان هناك شيء ما مثير للضحـك على نحو لا يمكن التعبير عنه في ذلك المشهد. كانـت الأرشدوقـة تشبه- كما كان في ظنّ أورلنـدو سابقاً- لا شيء أكثر من أرنب بري هائل الخلقة. كان لها العينان المحدقتان والوجنتان الغائرتان وغطاء الرأس الزيني لذلك الحيوان. توقفت، تماماً كما يقعي الأرنب منتصباً في حقـل القمح حين يظن أن لا أحد يراقبه، وراحت تحـدق إلى أورلندو التي بادلتها التحديق مـن نافذتها. وبعد أن تبادلتا التحديـق لبعض الوقـت، لم يكن هناك سوى الطلـب إليها أن تدخل إلى الـدارة؛ وسرعان ما كانت السيدتان تتبادلان كلمات الإطراء بينما راحت الأرشدوقة تنفض الثلج عن عباءتها.

قالـت أورلنـدو وهـي تمضـي نحـو الخزانـة لتصـب كأسـاً من النبيذ: "فليحـلّ الوبـاء بالنسـاء. إنهـن لا يتركن للمـرء الفرصة لينعم بالسـلام. لا توجد إطلاقاً جماعة من البشر أكثر نبشاً وفضولاً وتطفلاً منهـن. لقد غادرت إنكلـترا لأهرب من هذه التي تشبـه عمود الزينة

الطويل الذي ينصب في احتفالات شهر أيار (مايو)، والآن... " وهنا التفتت لتقدم للأرشدوقة طبقاً، ولكن يا للعجب: كان يقف أمامها بدلاً عنها رجل طويل القامة في ملابس سوداء. كانت كومة من الملابس مرمية على سياج المدفأة. وهاهي وحيدة مع رجل.

وبينما راحت تسترد فجأة وعيها بجنسها الذي نسيته تماماً، وبجنسه هو الذي كان بعيداً بما فيه الكفاية الآن ليكون مقلقاً بالدرجة نفسها، فقد أحست أورلندو أنها تفقد وعيها.

صرخت "يا للعجب" وهي تضع يدها على خصرها. "لكم أشعرتني بالخوف!"

صاحت الأرشدوقة وهي تركع على ركبة واحدة وتضغط في الوقت نفسه بقبلة مودة على شفتي أورلندو: "أيتها المخلوقة الكريمة، سامحيني على هذا الخداع الذي مارسته عليك."

راحت أورلندو ترتشف النبيذ بينما ركع الأرشدوق وقبّل يدها.

باختصار، راحا يمارسان دور الرجل والمرأة لعشر دقائق بحيوية كبيرة ثم راحا يتحدثان على نحو طبيعي. روت الأرشدوقة (ولكن لا بد من الآن فصاعداً من تسميتها بالأرشدوق) قصته: أنه كان رجلاً منذ الولادة، وأنه شاهد رسماً لأورلندو فوقع في غرامه على نحو يائس؛ وأنه راح يرتدي ملابس النساء حتى يصل إلى مبتغاه واتخذ مسكناً له في دكان "الفرّان"؛ وأنه شعر باليأس حين فرّ أورلندو إلى تركيا. ثم قال إنه سمع بالتغيير الذي حدث في جنس أورلندو فبادر إلى عرض خدماته. وهنا راح يتكلم بطريقته المزعجة بلفظ حرفي الهاء والتاء على نحو لا يُحتمل. قال الأرشدوق هاري إنها (أورلندو)

ستبقى بالنسبة إليه قرنفلة جنسها ولؤلؤته وكماله. كان من شأن هذه الصفات الثلاث (وتبدأ جميعها بحرف P باللغة الإنكليزية) أن تبدو أكثر إقناعاً لو لم تقطعها "هاءاته" و"تاءاته" الغريبة جداً. قالت أورلندو في نفسها وهي تنظر إلى الأرشدوق: كان هو على الجهة الأخرى من حاجز المدفأة، وراحت تنظر إليه من وجهة نظر امرأة الآن: "إن كان هذا هو الحب، فلا بدّ من وجود شيء مضحك جداً فيه."

سقط الأرشدوق على ركبتيه وأدلى بأكثر التصاريح الغزلية التهاباً بالعاطفة. قال إنه يملك ما يبلغ عشرين مليوناً من "الدوكات" في صندوق حديد في قلعته. وقال إنه يملك من الأراضي أكثر مما يملكه أي من نبلاء إنكلترا. الصيد فيها ممتاز. وهو قادر على أن يعدها بسلة مختلطة من طيور حجل الثلج والطيهوج لا يمكن لأي برية إنكليزية ولا حتى اسكوتلندية أن تضاهيها. صحيح أن طيور التدرج قد عانت من مرض الشُحاء في غيابه، وأن الإناث من الظباء قد أهملت صغارها، ولكن يمكن تدارك ذلك، وسيكون ذلك بمساعدتها حين سيقطنان معاً في رومانيا.

وبينما كان يتحدث، تشكلت دموع ضخمة في عينيه الجاحظتين وسالت هابطة في مجريين بلون الرمال على وجنتيه الطويلتين والنحيلتين.

كانت أورلندو تعرف من خبرتها كرجل أن الرجال يبكون مراراً بقدر ما تفعل النساء ودون سبب معقول أيضاً، ولكنها بدأت تدرك أن النساء يجب أن يصبن بالصدمة حين يعبر الرجال عن عاطفتهم في حضورهن، وبالتالي فقد صُدمت.

اعتذر الأرشدوق. ثم تمالك نفسه إلى حد كاف ليقول لها إنه

سيغادرها الآن ولكنه سيعود في اليوم التالي ليعرف ردّها على عرضه.

كان ذلك يوم ثلاثاء. أتى في يوم الأربعاء. ثم الخميس. أتى في يوم الجمعة كما أتى في يوم السبت. صحيح أن كل زيارة كانت تبدأ أو تستمر أو تنتهي باعتراف بالحب، ولكن بين هذا وذاك كان يسود الصمت. كانا يجلسان على جانبي المدفأة وكان الأرشدوق يوقع أدوات المدفأة فتقوم أورلندو بالتقاطها من جديد. ثم يروح الأرشدوق يذكر كيف اصطاد أيلاً في السويد، فتسأله أورلندو إن كان أيلاً كبيراً فيقول الأرشدوق إنه لم يكن كبيراً بحجم الرنة التي اصطادها في النرويج. تسأله أورلندو إن كان قد سبق له واصطاد نمراً فيقول الأرشدوق إنه اصطاد طائر القطرس ذات مرة. فتسأله أورلندو (وهي تخفي تثاؤبها) إن كان القطرس كبيراً بحجم الفيل، وكان الأرشدوق يقول شيئاً معقولاً جداً دون شك. ولكن أورلندو لم تسمعه فقد كانت تنظر إلى طاولة الكتابة وإلى خارج النافذة ونحو الباب. عندها كان الأرشدوق يقول: "أعبدك" في اللحظة نفسها التي كانت أورلندو تقول فيها: "انظر. لقد بدأ المطر يهطل." وعند ذاك كان الاثنان يصابان بالحرج الشديد فيتضرج وجهاهما ولا يعود أي منهما قادراً على التفكير فيما سيقوله تالياً. وبالفعل كانت أورلندو تشعر بيأس كامل من قدرتها على معرفة ما يجب أن تتحدث عنه؛ ولولا أنها فكرت في لعبة اسمها "فلاي لو"، التي تتم فيها خسارة مبالغ كبيرة من المال مع إنفاق القليل جداً من الروح، لافترضت أنها كانت ستضطر إلى الزواج منه. لم تكن تعرف وسيلة أخرى للتخلص منه. ولكنها بهذه الحيلة على أي حال، وكانت بسيطة جداً لا تتطلب سوى ثلاث قطع من السكر والكثير من الذباب، فقد تم التغلب على الحرج في الحوار والاضطرار إلى الزواج. والآن، كان الأرشدوق

يراهن على خمسمائة جنيه على من يحزر بأن الذبابة ستحط على هذه القطعة من السكر وليس تلك. وهكذا كانا ينفقان الصباح كله وهما يراقبان الذباب (الذي كان بالطبع كسولاً في هذا الفصل من العام، وغالباً ما كان ينفق ساعة أو نحوها وهو يدور من حول السقف) قبل أن يقع اختيار ذبابة كبيرة في النهاية وبعد طول انتظار على إحدى قطع السكر ويتم كسب جولة من المباراة. تبودلت مئات كثيرة من الجنيهات بين هذين الشخصين في هذه اللعبة التي كان الأرشدوق– المقامر بطبعه – يقسم بأنها لا تقل جودة عن سباق الخيل، وتعهد أن يمارسها إلى الأبد. سرعان ما بدأت أورلندو تشعر بالإرهاق.

سألت نفسها: "ما الفائدة من كوني امرأة في ريعان الشباب إن كان عليّ أن أنفق كل صباحاتي وأنا أراقب الذباب الكبير مع ارشدوق؟"

وهكذا بدأت تكره مرأى السكر، وأصبح الذباب يصيبها بالدوار. لا بدّ من وجود طريقة ما للخروج من المأزق، كما افترضت، ولكنها كانت ما تزال دون حذق جنسها، و لم تعد تستطيع أن تلكم رجلاً في رأسه فتوقعه أرضاً أو تخترق جسده بسيف، فلم تستطع سوى التفكير بالحيلة التالية: أمسكت بذبابة كبيرة وخنقتها بلطف (كانت نصف ميتة مسبقاً، وإلا فإن لطفها مع المخلوقات البكماء ما كان سيسمح لها بفعل ذلك) وألصقتها بنقطة من الصمغ العربي على قطعة سكر. وبينما كان الأرشدوق يحدق في السقف، أبدلت بقطعة السكر هذه وببراعة قطعة السكر التي كانت قد راهنت بمالها عليها، وصرخت: "لو لوا" معبرة عن كسبها لرهانها. كانت تظنّ أن الأرشدوق، مع كل معرفته بفنون الرياضة وسباق الخيل، سيكتشف الخدعة، لأن الغش في لعبة الـ "لو" هو من أشنع أصناف الجريمة؛ إذ نُفي رجال من المجتمع البشري إلى مجتمع القرود في المناطق المدارية إلى

الأبد، بسبب مثل هذا الغش. لقد ظنت أنه سيكون فيه من الرجولة ما يكفي ليتخلى عن صحبتها نهائياً. ولكنها أساءت الحكم على بساطة هـذا الرجل النبيل الودود. لم يكن حكَماً جيداً فيما يخص الذباب، فالذبابة الميتة بالنسبة إليه تبدو كالحية تماماً. مارست عليه تلك الحيلة عشرين مرة ودفع لها (١٧٫٢٥٠) جنيهاً (أي ما يعادل ٤٠٫٨٨٥ جنيهاً و ٦ شلنات و٨ بنسات بعملتنا الحالية)، وذلك قبل أن تمارس أورلندو عليه الغش بشكل فاضح إلى حدّ لم يعد ممكناً معه الاستمرار في خداعه. وحين أدرك الحقيقة أخيراً حصل مشهد مؤلم. نهض الأرشدوق بكامل طوله. أصبح لون وجهه قرمزياً. جرت الدموع على خديه واحدة إثر أخرى. لم يكن يأبه أنها كسبت ثروة بحالها منه، فلم يكن لديه اعتراض على ذلك، ولكن ما آلمه هو التفكير في قدرتها على فعل ما فعلته. إلا أن حقيقة أنها غشت في لعبة الـ "لو" كان نهاية الأمر. قال إنه من المستحيل أن يحب رجل امرأة تغشّ في اللعب. ثم انهار تماماً، وقال وهو يسترد أنفاسه قليلاً، إنه لحسن الحظ لم يكن هناك شهود. ثم قال إنها على أي حال مجرد امرأة. وباختصار، فقد كان يستعد نظراً لشهامة قلبه أن يسامحها وانحنى ليطلب مغفرتها على عنف لغته، حين اختصرت المسألة كلها، فأسقطت ضفدعة بين قميصه وبدنه وهو يحني رأسه الفخور.

وحتى لا نظلمها، لا بدّ من القول إنها كانت ستفضل استخدام السيف دون حدود. الضفادع أشياء باردة ولزجة يصعب على المرء إخفاؤها طوال صباح كامل. ولكن لو كانت السيوف محظورة، فعلى المرء أن يلجأ إلى الضفادع. وإضافة إلى ذلك، فإن الضفادع والضحك الذي تثيره قد تفعل أحياناً ما يعجز الفولاذ عن فعله. ضحكت أورلندو. تضرج وجه الأرشدوق. ضحكت مجدداً. تلفظ الأرشدوق بسبّة. ضحكت. أغلق الأرشدوق الباب بقوة من خلفه.

صاحت أورلندو وهي ما تزال تضحك: "الحمد للسماء!" سمعت صوت العجلات تسرع بجنون عبر الباحة. سمعتها تقعقع عبر الطريق. ثم خفت الصوت تدريجياً. والآن لم تعد تسمع شيئاً.

قالت أورلندو: "أنا وحدي" بصوت مرتفع فلم يكن هناك من يسمعها.

إن كان الصمت يصبح أعمق بعد الضجيج فهذا أمر ما يزال في حاجة إلى أن يبرهن العلم عليه. ولكن أن تكون الوحدة أكثر جلاء مباشرة بعد أن يُمارس الحب مع امرأة ما، لهو أمر تؤكده نساء كثيرات مع حلف اليمين. ومع تلاشي ضجيج عجلات عربة الأرشدوق، شعرت أورلندو بأن أرشدوقاً كان يبتعد عنها تدريجياً (و لم تأبه لذلك)، وثروة (و لم تأبه لذلك)، ولقباً (و لم تأبه لذلك)، وأماناً وظروف حياة زوجية (و لم تأبه لذلك)، ولكنها سمعت حياة تغادرها وعاشقاً أيضاً. همهمت: "حياة وعاشق"، ثم مضت نحو منضدة الكتابة وغمست ريشتها في الحبر وكتبت:

"حياة وعاشق"... وهو سطر لم يكن متفقاً مع وزن القصيدة ولا صلة له بما سبقه... كان شيئاً يتعلق بدهن الخراف بطلاء ما لحمايتها من جرب الماشية؟ قرأت ما كتبته واحمرت وجنتاها وكررت القراءة.

«حياة وعاشق». ثم وضعت ريشتها جانباً ومضت إلى غرفة نومها. وقفت أمام مرآتها ورتبت عقد اللؤلؤ من حول جيدها. ثم ولأن عقد اللؤلؤ لا يتميز فوق ثوب صباحي من القطن المزين بالزهور، فقد خلعته لترتدي ثوباً بلون الدراق. ثم ارتدت أخيراً ثوباً حريرياً خمري اللون. ربما كانت هناك حاجة إلى بعض البودرة ، ولو صُفف شعرها من حول جبينها، فقد يلائمها ذلك. ثم لبست في قدميها مشاية

مدببة الطرف ووضعت خاتماً من الزمرد في أصبعها. قالت: «الآن أنا مستعـدة» بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، وبعد أن أنارت الشمعدانين الفضيـين على جانبـي المرآة. ما الـذي لا تقوم امـرأة بإنارته لترى ما شاهدتـه أورلندو وهـو يشتعل في الثلج... فقـد كان في المرآة مروج ثلجيـة وكانت هي أشيـه بنار متقدة، بدغل يحـترق، كما كان توهج نور الشموع من حول رأسها كأوراق شجر فضية. أو كانت المرآة ماء أخضر وهي الحورية المغطاة باللآلئ، أو الهنّادة في كهف تغني لأولئك المجدّفين الذين كانوا يطلّون من جوانب زورقهم ثم يسقطون في الماء، يسقطـون ليعانقوها. كانت شديدة العتمـة وشديدة الوميض، شديدة القسـوة وشديدة الليونة، مغويـة إلى حد مدهش جـداً حتى أنه لأمر مؤسـف آلاف المرات ألا يكون هناك مـن يعبّر عن ذلك بلغة إنكليزية بسيطـة ويقـول بصراحة: »اللعنـة يا سيدتـي، أنت الجمـال مجسّداً«. كانت تلك هي الحقيقة. حتـى أورلندو (التي لم تكن مغرورة بنفسها إطلاقاً) كانت تعرف ذلك، فقد ابتسمت لاإرادياً تلك الابتسامة التي للنسـاء حين يكون جمالهن – الذي يبدو وكأنه لا يخصهن– يتشكل كقطرة تهوي أو نبع يفـور، ويواجههن فجأة في المرآة... كانت تلك هـي الابتسامة التـي ابتسمتها ثم أصغت لبرهـة و لم تعد تسمع سوى حفيـف الأوراق وشدو السنونو. تنهـدت قائلة: »حياة، عاشق«، ثم التفتت بسرعة كبيرة ونزعت اللآلـئ عن جيدها والحرير عن ظهرها، ووقفت نتصبة في السروال الحريـري الأسود الذي يرتديه عادة رجل نبيل عـادي، وقرعت الجرس. حين دخل الخادم أمرته أن يطلب عربة بستـة جياد تكون جاهزة على الفور. لقـد استدعيت إلى لندن في أمر مستعجـل. وخلال ساعة بعد رحيل الأرشـدوق، كانت قد انطلقت في طريقها.

وبينما هي في طريقها، فقد ننتهز نحن الفرصة، بما أن المنظر الطبيعي هو من النوع الإنكليزي البسيط الذي لا يحتاج إلى وصف، وذلك لنلفت انتباه القارئ أكثر على نحو خاص الآن إلى ملاحظة أو اثنتين كانتا قد فاتتانا هنا وهناك خلال مجرى الحكاية. مثلاً، لقد لوحظ أن أورلندو كانت تخفي مخطوطتها حين تُقاطع فجأة. وثانياً، أنها كانت تنظر مطولاً وعن قصد إلى المرآة. والآن، وبينما كانت في طريقها إلى لندن، فقد يلاحظ المرء دهشتها وكبتها للصرخة حين عدت الجياد على نحو أسرع مما تحب. تواضعها فيما يخص كتاباتها وغرورها فيما يخص شخصها ومخاوفها على سلامتها، كل هذا يشير إلى أن ما كان قد قيل قبل وقت قصير عن عدم حصول أي تغيير في أورلندو الرجل وأورلندو المرأة لهو أمر غير صحيح بتاتاً. كانت قد أصبحت أكثر غروراً بعض الشيء بشخصها، كما هو شأن النساء. كانت بعض الحساسيات تتعزز لديها بينما تتلاشى حساسيات أخرى. التغيير في الملابس له علاقة كبيرة بما جرى كما سيقول بعض الفلاسفة. ورغم أنها تبدو كأشياء تافهة تبعث على الغرور، إلا أن للملابس، كما يقولون، وظائف أكثر أهمية من مجرد بثّ الدفء فينا. إنها تغيّر من نظرتنا إلى العالم ونظرة العالم إلينا. مثلاً، حين شاهد الكابتن بارتولوس تنورة أورلندو، فقد أمر على الفور أن تُمدّ لها ظُلّة، كما ألحّ عليها أن تتناول شريحة أخرى من لحم العجل، ودعاها للذهاب إلى الشاطئ بصحبته في الزورق الطويل. ما كانت هذه المجاملات ستقدم إليها لو كانت تنورتها، بدلاً عن أن تكون فضفاضة، قد لُفّت من حول ساقيها شأن البنطلون الذي يُحزم تحت الركبتين. وحين تُقدم إلينا المجاملات، فهي تستحق أن نردّ عليها بالمثل. انحنت أورلندو. لقد انصاعت. كما أثنت على التعليقات الفكهة للرجل الطيب، وما كان من شأنها أن تفعل ذلك لو كان بنطلونه الأنيق تنورة امرأة، أو لو كان معطفه

المزين بالشرائط صديرية نسائية من الساتان. إذاً، هناك الكثير مما يدعم الرأي القائل بأن الملابس هي التي ترتدينا ولسنا نحن من يرتديها. ربما نجعلها تتخذ قالب الذراع أو الصدر، ولكنها ستقولب قلوبنا وعقولنا وألسنتنا حسبما تريد هي. لذا، وبعد أن ارتدت التنورة ومنذ فترة طويلة حتى الآن، جرى تغيير ملحوظ في أورلندو، وهو أمر نجده لو كان القارئ سينظر إلى الصفحة (١١١) (X) وحتى إلى وجهها. ولو قارنا صدرة أورلندو الرجل مع صديرية أورلندو المرأة سنرى أنه على الرغم من كونهما الشخص ذاته دون شك، إلا أن تغييرات معينة قد حدثت. فالرجل يترك يده حرة حتى يمتشق سيفه، أما المرأة فعليها أن تستخدم يدها لتمنع الحرير من الانزلاق عن كتفيها. والرجل يواجه العالم مباشرة دون خوف كأنه صُنع حسب استخداماته وعُدّل حسب ما يريد. أما المرأة فترمقه بنظرات جانبية مترعة بالرقة وحتى بالشك. ولو ارتديا كلاهما الملابس نفسها فمن الممكن أن تكون وجهة نظر كل منهما هي نفسها.

هذه هي وجهة نظر بعض الفلاسفة والحكماء، ولكن عموماً، نميل نحن إلى وجهة نظر أخرى. فالفرق بين الجنسين ذو عمق كبير لحسن الحظ. فالملابس هي رمز لشيء ما مخفيّ في الأعماق. إن الذي فرض على أورلندو اختيار ثوب المرأة وجنس المرأة كان تغييراً حصل في أورلندو نفسها. وربما في هذا كانت هي تعبّر على نحو أكثر صراحة من المعتاد- كانت الصراحة بالفعل روح طبيعتها- عن شيء يحدث لمعظم الناس دون أن يتم التعبير عنه على هذا النحو المكشوف. فهنا ومن جديد نصل إلى معضلة. فعلى الرغم من أن الجنسين يختلف واحدهما عن الآخر، إلا أنهما يتمازجان. في كل كائن بشري يحدث تأرجح من جنس إلى آخر، وغالباً ما تكون الملابس فقط هي التي تبقي

علـى المظهر الذكـري أو الأنثوي؛ بينما يكون الجنس من تحتها ضد ما هـو من فوق تماماً. وكل شخص لا بدّ أن يكـون قد مرّ بالعقيدات والتشوّشـات التـي تنتج عن ذلـك. ولكننا نـترك هنا المسألـة العامة ونلاحظ فقط التأثير الغريب الذي كان لذلك على أورلندو نفسها.

لقـد كان هذا المزيـج فيها من الرجل والمـرأة، أحدهما هو الأعلى مرة والآخر مرة أخرى، هو الذي كان غالباً ما يمنح سلوكها تبدلاً غير متوقـع. والأنثـى الفضولية ستتساءل مثلاً أنه لو كانـت أورلندو امرأة فكيـف لا يستغرق منها ارتداء الملابس سوى عشر دقائق؟ وكيف أنها تختـار ملابسها عشوائياً وتبدو أحياناً بزي غير ملائم؟ ثم سيقال إنها لا تتحلـى بتمسك الرجل بالشكليات أو حبّه للسلطة. إنها ذات قلب رقيـق إلى حـد مفرط. فهي لا تحتمـل أن ترى حماراً يُضـرب أو قطة تغرق. ومع ذلك مجـدداً، فقد لاحظوا أنها كانت تكره الأمور المنزلية وتستيقـظ عند الفجـر وتخرج إلى الحقول في الصيـف قبل أن تشرق الشمس. لم يعرف أي مزارع أكثر مما كانت هي تعرفه عن المحاصيل. كانـت تستطيع تنـاول الشراب مـع أفضل الشاربين وتحـب الألعاب الخطـرة. وكانت تركب الجياد بمهارة وتقود عربة بستة أحصنة بسرعة عبر «جسر لندن». لعاأ

ومـع ذلك، وعلى الرغم من جرأتها وحيويتها كرجل، فقد لوحظ أنهـا كانت لدى مشاهدة أي شخـص في حالة خطر تجعلها تعاني من اضطراب أنثوي شديـد مع خفقان في القلب. كانت ستنفجر بالبكاء لمجرد حصول أي استفزاز بسيط. كانت غير ماهرة في الجغرافية وتجد الرياضيـات أمـراً لا يحتمل؛ كما كان لديها بعض النزوات التي هي أكـثر شيوعاً بين النساء منها بين الرجال: مثلاً، السفر جنوباً هو السفر هبوطاً من قمة الجبل. إذاً، هل كانت أورلندو رجلاً في أغلبها أم امرأة؟

هذا ما تصعب معرفته ولا يمكن الوصول بشأنه إلى قرار نهائي. كانت عربتها تقعقع الآن فوق الحصى. لقد وصلت إلى بيتها في المدينة. أُنزل السلّم وفتحت الأبواب الحديد. كانت تدخل كانت تدخل إلى منزل أبيها في «بلاكفرايرز» الذي كان ما يزال عبارة عن دارة واسعة ومبهجة - وهي وإن كانت قد تخلفت عن الموضة السائدة الآن- إلا أنها ذات حدائق تصل إلى النهر وبستان من شجر الجوز للتمشي.

وهنا أقامت وبدأت على الفور في البحث عما جاءت تنشده هنا: أي حياة وعاشق. فيما يخص الأولى فقد يكون هناك شك في ذلك. أما الثاني فقد وجدته دون أي صعوبة تذكر بعد يومين من وصولها. كانت قد وصلت إلى المدينة يوم الثلاثاء. في يوم الخميس ذهبت لتتمشى في «ذا مول» كما كانت من عادة الأشخاص المميزين. و لم تكن قد قطعت تلك الجادة سوى مرة أو مرتين، قبل أن تلاحظها مجموعة صغيرة من الرعاع ممن يذهبون إلى هناك للتجسس على من هم أوفر منهم حظاً. وحين مرت من جانبهم، اقتربت منها امرأة من العامة، تحمل طفلاً على صدرها، وحدقت على نحو مألوف في وجه أورلندو، ثم صرخت: »يا للعجب، إنها الليدي أورلندو!» احتشد رفاقها من حول أورلندو التي وجدت نفسها خلال لحظات محاطة بحشد من المواطنين المحدقين وزوجات التجار، وكلهم تواق إلى النظر إلى بطلة الدعوى القضائية الشهيرة. هكذا كان الاهتمام الذي أثارته القضية في أذهان العامة من الناس. ربما تكون قد وجدت نفسها وقد انزعجت إلى حد خطير من ضغط الحشد- لقد نسيت أنه لا يفترض بالسيدات النبيلات السير في الأماكن العامة وحيدات - لولا أن جنتلماناً طويل القامة تقدم على الفور وعرض عليها الحماية بذراعه. كان ذاك هو الأرشدوق. شعرت أن ذلك المشهد قد أصابها

بالكـدر ولكن مع بعض الشعـور بالتسلية أيضـاً. لم يكن هذا الرجل النبيـل ذو الصـدر الرحب قد سامحها فحسب، ولكـن حتى يظهر أنه أخذ مزاحها بالضفدعة على مأخذ حسن النية، فقد اشترى لها جوهرة صيغت على شكل ذلك الحيوان المنتمي إلى فصيلة الزواحف، وقدمها لها وهو يكرر عرضه للزواج منها بينما كان يوصلها إلى عربتها.

وبينمـا راحت تفكر بذلك الحشد، وذلك الدوق وتلك الجوهرة، قـادت عربتهـا إلى البيت وهي في أسـوأ مزاج يمكـن تخيله. هل هو مـن المستحيـل إذاً ممارسة المشـي دون أن تتعرض لشبـه اختناق وأن تُهـدى إليهـا ضفدعـة مزينة بالزمـرد وأن يعرضـ عليهـا أرشدوق الـزواج؟ ولكنها نظرت إلى الأمر على نحو أقـل حدة في اليوم التالي حـين وجدت على مائـدة فطورها نصف دزينة مـن الرسائل الواردة مـن بعض أعظم نبيـلات البلاد: الليدي سفولـك والليدي سولزبري والليـدي تشسترفيلد والليـدي تافيستوك وأخريـات ذكرنها بألطف أسلـوب ممكن بالتحالفات القديمة بـين أسرتها وأسرهن ورغبتهن بنيل شـرف التعرف عليهـا. في اليوم التالي، وكان يـوم سبت، كان الكثير من هـؤلاء السيدات العظيمات يقدمن لها الضيافـة شخصياً. في يوم الثلاثـاء، حـوالي الظهر، جلـب خدمهن بطاقات الدعـوة إلى مختلف الحفلات الليلية والولائم والاجتماعات في المستقبل القريب. وهكذا اقتحمـت أورلنـدو، دون تأخير، ومـع بعض الرشاشـ والزبد، بحر المجتمع اللندني.

إن تقـديم صـورة صادقة عن المجتمع اللنـدني، في ذلك الأوان أو أي أوان آخـر، أمـر يصعب على كاتـب السيرة أو المـؤرخ. لا يمكن إحالـة هذا الأمـر إلا إلى أولئـك الذين لا حاجة بهـم إلى الحقيقة ولا يحترمونهـا– أي الشعراء والروائيون– فهـذه إحدى الحالات التي لا

وجود للحقيقة فيها. لا وجود لأي شيء. الأمر برمته عبارة عن سديم سامّ، عن سراب. وحتى نوضح المعنى الذي نريد، فقد كانت أورلندو تعود إلى البيت بعد واحدة من تلك الحفلات الليلية في الثالثة أو الرابعة فجراً بوجنتين أشبه بشجرة عيد الميلاد وعينين كنجمتين. كانت تفكّ شريطاً مخرماً وتذرع الغرفة عشرات المرات، تتوقف ثم تذرع الغرفة مجدداً. غالباً ما كانت الشمس تتوهج فوق مداخن ساوثوورك قبل أن تقنع نفسها بأن تأوي إلى الفراش، وهناك كانت تضطجع وهي تتمايل وتتقلب وتضحك وتتنهد لساعة من الزمان أو لفترة أطول قبل أن تنام أخيراً. وماذا كان السبب وراء كل هذا الهياج؟ المجتمع. وما الذي قاله المجتمع أو فعله حتى يجعل سيدة متعقّلة تصاب بكل هذه الإثارة؟ بصراحة: لا شيء. مهما بذلت أورلندو من جهد في التذكر، ففي اليوم التالي ما كانت تستطيع تذكر كلمة واحدة تتضخم لتصبح الاسم ذا الصلة. "اللورد أو..." شهم. و"اللورد آ..." مهذب. أما "الماركيز سي..." ففاتن. "السيد إم..." مسلٍ. ولكن حين كانت تحاول أن تتذكر كيف تجلّت شهامتهم وتهذيبهم وفتنتهم أو ظرفهم، تجد أن ذاكرتها لا تسعفها، فلم تكن قادرة على منح اسم لأي شيء. وكان هذا لا يتغير قط. لا يتبقى شيء حتى اليوم التالي، ومع ذلك فإن استثارة اللحظة كانت شديدة. وهكذا فنحن مضطرون إلى الاستنتاج بأن المجتمع هو واحد من تلك المشروبات التي تقدمها مدبرات المنازل الماهرات حارّة في أعياد الميلاد، والتي تعتمد نكهتها على المزج والتحريك الملائمين لدزينة من العناصر المختلفة. استبعدوني من هذا المزيج، فيصبح دون نكهة. استبعدوا "اللورد أو..." أو "اللورد آ..." أو "الماركيز سي..." أو "السيد إم..."، وكل واحد منهم مجرد لا شيء وحده. حرّكهُمْ جميعاً معاً فيتحدون ليعطوا أكثر النكهات إثارة للنشوة وأكثر الروائح إغواء. ولكن هذا الانتشاء وهذا الإغواء

لا يخضـع لتحليلنا. لذلك فإن المجتمع هو في الوقت نفسه بالتالي كل شـيء وهو لا شيء. المجتمع هو أقوى اخـتراع في العالم والمجتمع لا وجود له إطلاقاً. ولا يستطيع التعامل معه سوى أولئك الوحوش شأن الشعـراء والروائيين. وبمثل هذا الشيء واللاشيء فـإن أعمالهم تنتفخ حتـى تصل إلى أحجام غير معقولة. ونحن نتركه لهم بأطيب إرادة في العالم ونحن سعداء.

لو سرنا على خطى الأجداد، لقلنا بالتالي إن المجتمع في عهد "الملكة آن" كان في حالـة سطوع فريـد. وكان الدخول إلى ذلك المجتمع هو هـدف كل شخص مهذب. كانت النعم فائقـة. وكان الآباء يدرّسون أبناءهم والأمهات بناتهن. لم يكن أي تعليم كاملاً لأفراد كلا الجنسين إلا إذا تضمـن "علم الكياسة"، وفـنّ الانحناء وثني الركبتين احتراماً، والتعامل مع السيف والمروحة، والعناية بالأسنان وكيفية تحريك الساق ومرونة الركبتين والطرق الصحيحة في دخول الغرفة والخروج منها، مع ألـف "إلخ..." يجدها أي شخص في هـذا المجتمع وهي تفرض نفسهـا عليه. وبمـا أن أورلندو قد كسبت مديـح الملكة إليزابيث حين عرفت - وهـي صبي صغير بعد - كيف تقـدم آنية من الزهور، فمن المفترض أنها كانت خبيرة بما فيه الكفاية لتنجح في الامتحان المطلوب للدخـول إلى المجتمع. ولكـن من الصحيح أنـه كان هناك شرود فيها كان يجعلهـا خرقاء أحياناً. كانت ميالة إلى التفكير بالشعر حين يكون عليهـا التفكير بالتافتا. كانت مشيتها أشبه قليلاً بمشية رجل منها بمشية امـرأة علـى الأرجح، كما كانـت حركاتها المباغتة، قـد توقع فنجان الشاي أحياناً.

وسـواء كانت هذه العلّة الخفيفة كافية لتـوازن روعة وقفتها أو إذا ما كانت قد ورثـت أكثر ممّا يجب- بمقدار قطرة - من روح الفكاهة

السوداء التي عرفتها شرايين بني عرقها، إلا أنه لأمر أكيد أنها لم تكن قد اختلطت بالعا لم أكثر من عشرين مرة إلا وربما سمعها أحدهم وهي تسأل نفسها هل هناك سوى كلبتها السبلينية المسماة "پپين" تسمعها: "ما هي مشكلتي بحق الشيطان؟" كانت تلك المناسبة قد جرت في يوم الثلاثاء الموافق للسادس عشر من حزيران (يونيو) من عام (١٧١٢). كانت قد عادت للتو من حفل راقص كبير في دارة آل أرلنغتون، وقد أطل الفجر على السماء، وكانت تخلع جواربها. صرخت أورلندو وهي تنفجر باكية: "لا يهمني لو لم أقابل أي شخص آخر طالما عشت." كان لديها الكثير من العشاق، ولكن الحياة، وهي على أي حال ذات أهمية ما بحد ذاتها، قد فاتتها. سألت: "هل هذه..." - ولكن لم يكن هناك من يردّ عليها- فأكملت الجملة على أي حال: "هل هذه هي ما يسمونه بالحياة؟" رفعت الكلبة السبلينية قائمتها الأمامية دلالة على التعاطف. لعقت الكلبة أورلندو بلسانها. ربتت أورلندو على الكلبة بيدها. قبلت أورلندو الكلبة بشفتيها. باختصار، كان هناك بينهما أصدق تعاطف يمكن أن يوجد بين كلبة وصاحبتها. ولكن لا يمكننا إنكار أن بكم الحيوانات عائق كبير أمام رهافة الحوار. فهي تهز ذيولها وتحني الجزء الأمامي من أجسامها وترفع ظهورها وتتقلب وتقفز وتعابث بقوائمها وتئنّ وتنبح وتريّل وتقوم بكل أنواع الاحتفاءات والحيل الخاصة بها، ولكن دون جدوى؛ بما أنها لا تقدر على النطق. كانت تلك هي مشكلتها- كما فكرت وهي تضع الكلبة على الأرض- مع الأشخاص العظام في دارة آل آرلنغتون. فهؤلاء يهزون أيضاً ذيولهم وينحنون ويتقلبون ويتقافزون ويتعابثون بأيديهم ويريّلون، ولكنهم غير قادرين على النطق. قالت أورلندو وهي ترمي بإحدى جاربيها عبر الغرفة: "في كل هذه الأشهر التي كنت أخرج فيها إلى المجتمع، لم أسمع شيئاً سوى ما قد تقوله كلبتي

پيپن: (أنا بردانة. أنا سعيدة. أنا جائعة. لقد اصطدتُ فأرة. دفنتُ عظمة. قبّلي أنفي من فضلك". و لم يكن هذا كافياً.

كيف انتقلت- في مثل هذا الزمن القصير- من النشوة إلى الاشمئزاز؟ سنحاول شرح ذلك بالافتراض أن هذه التركيبة الغامضة التي ندعوها بالمجتمع ليست جيدة أو سيئة على نحو مطلق بحد ذاتها، ولكن لها روح فيها، متقلبة إنما قوية، وهي إما أن تجعلك ثملاً حين تفكر فيها كما تفعل أورلندو حين تعتبرها ممتعة، أو تسبب لك صداعاً حين تفكر فيها كما تفعل أورلندو حين تعتبرها كريهة. وأن يكون للقدرة على النطق صلة كبيرة بالأمر في كلتا الحالين لهو أمر يدعو إلى الشك. غالباً ما تكون ساعة دون كلام هي الأكثر فتنة. يمكن للظرف الألمعي أن يكون متعباً إلى حد يفوق الوصف. ولكننا نترك الأمر للشعراء ونتابع حكايتنا.

رمت أورلندو بجوربها الثاني كما فعلت بالأول وأوت إلى فراشها في حالة من الكآبة، وقد صممت على هجر المجتمع إلى الأبد. ولكن وكما تبين لاحقاً، فقد كانت متسرعة في الوصول إلى استنتاجاتها. فقد استيقظت في صباح اليوم التالي بالضبط لتجد بين بطاقات الدعوة المعتادة على منضدتها بطاقة من سيدة عظيمة هي "الكونتسة أوف آر...". وبما أنها كانت مصممة في الليل على عدم الاختلاط بالمجتمع مجدداً، فلا نستطيع تفسير سلوك أورلندو (إذ أرسلت رسولاً سريعاً إلى من منزل الكونتسة أوف آر..." تقول فيها إنها ستحضر الحفل بكل ما في العالم من سرور) إلا بحقيقة أنها كانت ما تزال تعاني من تأثير ثلاث كلمات همسها في أذنها على متن السفينة "السيدة العاشقة" الكابتن نيكولاس بينديكت بارتولوس والسفينة تعبر نهر التيمز. كان قد قال: "أديسون، درايدن، پوپ" مشيراً إلى شجرة الكاكاو، وكانت

أسماء أديسون ودرايدن و پوپ قد رنّت في رأسها كتعويذة منذ ذلك الحين. من يستطيع أن يصدق مثل هذه الحماقة؟ ولكن هكذا جرت الأمور. لم تعلّمها كل تجربتها مع "نيك غرين" شيئاً. كانت مثل هذه الأسماء ما تزال تمارس عليها أقوى أنواع السحر والافتتان. علينا على الأرجح أن نؤمن بشيء ما، وبَما أن أورلندو - كما سبق وقلنا- لم تكن تؤمن بالألوهيات المعهودة فقد كانت تؤمن بالرجال العظام، ولكن مع التمييز. لم يكن للأدميرالات ورجال الجيش ورجال الدولة أي تأثير عليها. ولكن مجرد التفكير بكاتب كبير كان يثير فيها الإيمان إلى حد أنها تكاد تصدق أنه لامرئي. كانت غريزتها سليمة. لا يستطيع المرء أن يؤمن إيماناً مطلقاً إلا بما لا يراه. كانت اللمحة الصغيرة التي سنحت لها من أولئك الرجال العظام من فوق متن السفينة لمحة أشبه بالرؤيا. كان تشكّ في أن الفنجان من خزف والصحيفة من ورق. وحين قال "اللورد أو..." ذات يوم إنه تعشى مع درايدن في الليلة السابقة، فقد كذّبته ببساطة. والآن، كانت غرفة استقبال "الليدي آر..." تشتهر بكونها غرفة انتظار تؤدي إلى غرفة مراسم العبقرية. كانت المكان الذي يجتمع فيه الرجال والنساء لأرجحة المباخر وإنشاد التراتيل أمام التمثال النصفي للعبقرية المحفوظ في محراب صغير في الجدار. أحياناً كان الربّ نفسه يتكرّم بوجوده لبرهة من الزمن. كان العقل وحده هو من يقر بالتوسل، و لم يكن هناك أي شيء يقال في الداخل دون أن يكون فكهاً وظريفاً، كما يقال.

وهكذا حدث أن دخلت أورلندو الغرفة وهي تعاني من اضطراب كبير. وجدت مجموعة من الأشخاص وقد سبق وتحلقت من حول المدفأة. كانت "الليدي آر..." اسيدة مسنة ذات بشرة سمراء وقد وضعت على رأسها منديلاً من الحرير الأسود اللون، وقد جلست في

كنبــة كبيرة في المنتصــف. وبما أنها كانت صماء نوعــاً ما، فقد كانت قادرة على التحكم من ذلك المكان على كلا الجانبين. وكان قد جلس على جانبيها رجال ونساء من علية القوم. كان كل رجل منهم قد سبق لــه وكان رئيساً للوزراء وكل امرأة- حسب مــا كان يُتداول همساً- قــد سبق لها وكانت عشيقة لملــك. كان أمراً مؤكداً أنهم كانوا جميعاً ألمعين ومشهوريــن. جلست أورلندو بوقار كبــير في صمت... بعد ثلاث ساعات، انحنت بعمق وغادرت المكان.

ولكن قد يسأل القارئ ببعض الحنق: ما الذي حدث بين دخولها وخروجهــا؟ في ثلاث ساعــات لا بدّ وأن هــذه المجموعة قد نطقت بأكــثر الأمور ظرفاً وعمقاً وإثــارة للاهتمام في هذا العا لم. هكذا يبدو الأمــر حقاً. ولكن الحقيقة تفيد بأنهم لم ينطقوا بأي شيء. وهذه ميزة غريبة يتشاركــون فيها مع معظم المجتمعات اللامعــة التي سبق للعا لم أن عرفهــا. تحدثت "المــدام دو ديفان" العجــوز وأصدقائها لخمسين سنــة دون توقــف. ماذا تبقى من ذلك كله؟ ربمــا ثلاث طُرف. لذلك نحــن أحــرار في الافتراض أنــه لم يحدث أي شــيء، أو أنه لم يقل أي شــيء ظريف أو فكــه، أو أن ثلاث طُرف استغــرق قولها ثمانية عشر ألفاً ومائتين وخمسين ليلة، مما لا يترك أي مجال للظرف في أي منها.

ستبــدو الحقيقة على أنهــا- لو جرؤنا على استخــدام كلمة محددة في هــذا الخصوص- أن هذه المجموعات من البشر بأسرها واقعة تحت سحر مــا. والمضيفة هي "عرّافتنا سيبيل" العصريــة. إنها ساحرة تضع ضيوفها تحــت تأثير رقيّة ما. في هذه الدار يظنون أنهم سعداء. في دار أخــرى يظنون أنهم ظرفاء. في دار ثالثة يظنــون أنهم عميقو التفكير. إنــه مجــرد وهم (لا اعتراض عليــه فالأوهام هي الأكــثر قيمة وضرورة علــى الإطلاق، وتلك التي تستطيــع خلق وهم تعتبر واحدة من أعظم

المحسنين في العالم)، ولكن بما أن الأوهام تتحطم بصراعها مع الواقع، وهـذا أمر يعرف الجميع حقيقته الرديئة، لذا لا يسمح بسعادة حقيقية ولا ظـرف حقيقي ولا عمق حقيقي حيـث يسود الوهم. وهذا يفسر السبب في أن "المدام دو ديفان" (٢) لم تقل سوى ثلاث طرف خلال خمسين سنـة. ولو أنها زادت عليها لكانـت الحلقة التي تحيط بها قد انهـارت. كانت الطرفة وهي تغـادر شفتيها تتدحـرج فوق الحديث الجاري كما تفعل الكرة العادية وهي تهرس أزهار البنفسج والأقحوان. وحين أطلقت "كلمة سانت دينيس" الشهيرة، فقد احترق العشب. وكان يتبـع ذلك تحرر من الوهـم وشعور بالوحشة. لم تُلفظ ولا كلمة واحدة. كان أصدقاؤها يهتفون بصوت واحد: "بحق السماء يا مدام، فلتعفينـا من واحدة أخرى من تلك الطرف!" وقد أطاعتهم. و لم تقل شيئـاً يستحق الذكر على مدى سبعة عشر عاماً تقريباً، ومضت الأمور على أحسن حال. كان الغطاء الجميل للوهم منشوراً دون تجاعيد فوق حلقـة الأصدقـاء خاصتها كما كان فوق حلقة "الليـدي آر..." كان الضيـوف يظنون أنهم سعداء، وأنهم ظرفـاء، وأنهم عميقون، وبينما كانـوا يظنـون هذا الظـن، كان أشخاصـ آخرون يظنونـه على نحو أقوى. لـذا أصبح معروفاً أنه لا شيء أمتع من حضور أحدى حفلات "الليـدي آر..." وكان الجميع يحسدون أولئك الذين يدعون إليها. وكان هؤلاء المدعـوون يحسدون أنفسهم لأن الآخرين يحسدونهم. وهكذا كان يبدو أن لا نهاية للأمر... باستثناء ما سنرويه الآن.

للمـرة الثالثة التـي تذهب فيهـا أورلندو إلى هنـاك، تجري حادثة معينـة. كانت ما تزال متوهمة بأنها تصغي إلى ألمع الملح في العالم كله، على الرغم مـن أن الواقع يقول إن الأمر وما فيه أن "الجنرال سي..." كان يحكـي مطـولاً عن النقرس وكيـف انتقل من ساقـه اليسرى إلى

اليمنى، بينمـا كان "السيد إل..." يقاطعه كلما ذكر كنية آر... هذه. "أوه، أعرف بيلي آر... هذا كما أعرف نفسي." [إس...]؟ هو أعز أصدقائـي. [تي...]؟ مكثت معه أسبوعـين في يوركشاير" ... بتأثير الوهـم كانت هذه التعليقات تبدو علـى أنها أكثر الردود الحاذقة ظرفاً وأبلـغ التعليقات على حياة البشر عمقاً، ممـا كان يجعل الحلقة تدوي مديحـاً... ولكن حـدث أن فتح الباب فجأة ودخـل جنتلمان ضئيل القامـة لم تستطع أورلنـدو أن تسمع اسمه جيـداً. وفجأة طغى عليها إحساس مزعج غريـب. وقد رأت في وجـوه الآخريـن الإحساس نفسـه. قال أحد الحاضرين إن هناك تيـار هوائي. وراحت "الماركيزة أوف سـي..." تخشى مـن وجود قطة تحت الأريكـة. وكأن أعينهم بـدأت تتفتح ببطء بعـد حلم لطيف و لم يجدوا أمامهـم سوى مغسلة رخيصـة وغطاء فراش قذر. كأنما كانـت أبخرة نبيذ شهي ما تغادرهـم ببـطء. وما يـزال الجنرال يتكلـم و"السيد إل..." يتذكـر. ولكن بدأ يتضح أكثر فأكثر كم هـو عنق الجنرال أحمر وكم كانت رأس "السيد إل..." صلعـاء. أما ما يخص ما كانا يقولانـه، فلا يمكن تخيل ما هو أتفه منه وأكثر منـه إملالاً. كان الجميع يتململون في أماكنهم وأولئك اللواتـي كن يحملن المراوح رحن يتثاءبن مـن خلفها. وأخيراً ضربت "الليـدي آر..." ذراع أريكتها الضخمـة بمروحتها. وهكذا توقف السيدان عن الكلام.

ثم تكلم السيد الضئيل الحجم.

تكلم تالياً.

تكلم في الختام. (٣)

هنا لا يمكـن إنكار وجود ظرف حقيقي وعمـق حقيقي. شعرت

المجموعــة برعب حقيقي. كان قول واحد سيئاً بما فيه الكفاية، ولكن أن يكــون هناك ثلاثة منها في ليلة واحدة، الواحد إثر الآخر! لا يمكن لأي مجتمع أن يظل حيّاً بعدها.

قالت "الليدي آر..." بصــوت مرتجف من الغضب التهكمي: "يا سيــد پوپ، أنت قانع بكونــك ظريفاً." احمر وجــه السيد پوپ. لم يتلفــظ أحــد بأي كلمــة. جلسوا صامتــين حوالي عشريــن دقيقة. ثم بــدؤوا، الواحد في إثــر الآخر، ينهضون وينسلّــون بهدوء إلى خارج الغرفة. كان أمراً موضع الشك أن يعودوا مرة أخرى بعد تجربة كتلك. كان ممكنــاً سماع الغلمان مــن الأدلاّء الحاملين للمشاعل وهم ينادون علــى عرباتهم عبر شارع "ساوث أودلي" كله. كانت الأبواب تصفق بقــوة والعربات تنطلق مسرعــة. وجدت أورلنــدو نفسها إلى جانب السيــد پوپ على الــدرج. كان جسده النحيــل والمشوّه يرتجف بعدد مــن الانفعالات. كانت تنطلق من عينيــه أسهم الشر والغضب والنصر والظرف والرعب (كان يهتز كورقــة في مهب الريح). بدا كخنفساء وضعــت قطعة زبرجد متقدة في جبهتها. في الوقت نفسه فقد انتابت أورلنــدو تعيسة الحظ نوبة مــن الانفعال شديدة الغرابــة والقوة. كان تحــرر كامل من الوهم كــذاك الذي حدث قبل ساعــة من الزمن يترك الذهن متأرجحاً من جانب إلى آخر. بدا كل شيء أكثر عراء وفراغاً مما كان مــن قبل بعشر مرات. كانت تلك لحظة مشحونة بأكبر خطر على الــروح البشرية. في مثــل تلك اللحظة تترهبن النســاء ويصبح الرجال كهنــة. في مثل تلك اللحظة يتخلى الرجال عن ثرواتهم ويذبح رجال سعــداء أعناقهم بسكاكين الجزارة. كان يمكن لأورلندو أن تفعل ذلك بمحض إرادتها، ولكن كان هناك أمر أكثر طيشاً كان عليها أن تفعله، وقد فعلته. دعت السيد پوپ إلى أن يرافقها إلى منزلها.

لـو أنه أمر متهور الدخول إلى عرين الأسد دون سلاح، أو الإبحار في المحيط الأطلسي في زورق تجديف، أو الوقوف على قمة كاتدرائية سانت بول على قدم واحدة، إلا إنه لأمر أكثر تهوراً الذهاب إلى البيت وحيدة مع شاعر. الشاعر محيط أطلسي وأسد في آن معاً. فبينما يغرقنا الأول ينهشنا الثاني. لو نجونا مـن الأنياب لاستسلمنا للأمواج. يمكن للرجل الذي يحطم الأوهام أن يكون وحشاً وطوفاناً. الأوهام للروح هي كما هو الغلاف الجوي للأرض. إرفع هذا الغلاف الجوي فيموت النبـات وتذوي الألوان. الأرض التـي نمشي عليها رماد محترق. إن ما ندوسـه هـو ترتب كلسـي يستعمل كسمـاد وسوف تحـرق الحصى النارية أقدامنا. بالحقيقة نحن في حالة خراب. الحياة حلم. الاستيقاظ هـو الذي يقتلنا. هـو الذي يسرق منا أحلامنا ويسـرف منا حياتنا... (وهكـذا دواليك لسـت صفحات لو شئتم، ولكـن الأسلوب مرهق ويمكن إغفاله).

في مثل هذا العرضـ للحقائق، كان ينبغي لأورلندو أن تتحول إلى كومـة من الرماد مع وصـول العربة إلى بوابة منزلهـا في بلاكفرايرز. وكونها ما تزال سالمة، ولو مرهقة بكل تأكيد، لهو أمر يعود بأكمله إلى حقيقة لفتنـا نظركم إليها في بداية هذه الحكايـة. كلما رأينا أقل كلما صدّقنـا أكثر. والآن فـإن الشوارع التي تقع بين مايفـير وبلاكفرايرز لم تكـن منارة بشـكل كامل. صحيح أن الإنارة مثلـت تطوراً عظيماً في العهـد الإليزابيثـي. في ذلك الحين كان علـى المسافر دون إنارة أن يعتمـد على النجـوم أو الشعلة الحمراء لحراس الليـل لتنقذه من الحفر المليئـة بالحصى في بارك لين أو الغابة من أشجار السنديان حيث تنقّب فيها الخنازير الأرض على طريق توتنهام كورت. ولكن مع ذلك، فقد كانـت تفتقر إلى الكثير مـن فعالياتنا الحديثة في مجـال الإنارة. كانت

أعمدة الإنارة بمصابيح تعمل على الزيت تتوالى مرة كل مائتي ياردة أو نحوهـا، ولكن كان ما بينها امتداد طويل من الظلام الدامس. وهكذا كانــت أورلندو والسيد بوب يمكثـان في الظلام عشر دقائق؛ ثم ولمدة نصف دقيقة في النــور. وهكذا وقعت أورلندو في حالة ذهنية شديدة الغرابة. فكلما خفت النــور كانت تشعر ببلسم لذيذ جداً وهو يطغى عليهـا. "هذا بالتأكيد شرف كبير جداً لامرأة شابة أن تركب في العربة نفسهـا مع السيد پوپ"، هكذا بدأت تفكر وهي تنظر وهي تنظر إلى الخــط الذي يرسمه أنفه في الظلام. "أنا الأكثر نعمة بين بنات جنسي. على بعد نصــف بوصة مني- بالفعل أشعر بعقــدة شرائط ركبته وهي تضغــط على فخذي- أعظم الظرفاء في البلاد الخاضعة لسيطرة جلالة الملكــة. سينظــرون إلينا في العصــور اللاحقة بفضــول ويحسدونني والغيــظ يتآكلهــم." هاهو عمود الإنارة يأتي مجــدداً. "يا لي من بائسة حمقاء!" هكــذا راحت تفكر. "لا يوجد مــا يسمى بالشهرة والمجد. في العصــور القادمة لن يفكر فيّ أحد ولا في السيد پوپ أيضاً. ما هو "العصــر" بالفعل؟ ما "نحن"؟ وهكذا بدا تقدمهما في ظلام "ساحة بركلي" كتلمّس نملتين عمياوين طريقهما، رميتا لبرهة قصيرة معاً دون اهتمــام أو اكتراث مشترك، عــبر صحراء مظلمــة. ارتعش جسدها. ولكــن هاهو الظلام يحــلّ مجدداً. عاد الوهم مجــدداً. "لكم هو جبينه نبيــل!" هكذا فكرت وهي تظن خطأ حدبــة في إحدى الوسائد على أنهــا جبــين السيد پوپ في العتمــة). "يا لها من عبقريــة وازنة تعيش فيهــا! يا له من ظرف وحكمــة وحقيقة... يا لها مــن ثروة تجمع كل تلك الدرر التي تجعل الناس مستعدين لمقايضة حياتهم بها حقاً! نورك هــو الوحيد الذي سيضيء إلى الأبد. لولاك لكانت رحلة حج البشرية ستــؤدي في ظلام دامس." (وهنا تأرجحــت العربة فجأة وبعنف مع وقوعهــا في أخــدود في "لــين ستريــت") "دون عبقريــة سنكون في

حالـة اضطراب وخراب. يا أروع وأسطـع الأنوار"... هكذا كانت تخاطـب في مخيلتها الحدبة على الوسـادة حين مرت العربة تحت أحد أنـوار الشـارع وأدركت خطأها. لم يكن للسيـد پوپ جبين أكبر من المعتاد. فكرت: "يا لك من رجل بائس. كيف استطعت خداعي! لقد ظننـت الحدبة جبينك. حين يـراك المرء تحت النور فكـم أنت وضيع وحقـير! أنت أشوه وضعيف البنيـة، لا شيء فيك يدعو إلى التوقير بل فيك الكثير مما يدعو إلى الرثاء والاحتقار."

ومن جديـد عادا إلى العتمة فخفت حـدة غضبها مباشرة حيث لم تعد ترى شيئاً سوى ركبتي الشاعر.

فكـرت ما أن دخلا في عتمـة كاملة مـرة أخرى: "ولكنني أنا هي البائسة، فمهما تكن وضيعاً، ألست أنا أكثر وضاعة؟ أنت من يغذيني ويحمينـي، أنت من يخيف الوحش الضـاري ويُرهب الهمجي، من يصنـع لي ثياباً من الحرير وسجاداً مـن صوف الغنم. إن أردت ممارسة العبـادة، ألم تكـن أنـت مع زودني بصـورة عن نفسـك ووضعها في السمـاء؟ أليس هناك أدلة على رعايتـك في كل مكان؟ وبالتالي كيف لا أكون شديدة التواضع والامتنان والطاعة؟ فلتكن متعتي كلها في أن أخدمك وأحترمك وأطيعك."

وهنـا كانا قد وصلا إلى عمـود الإنارة الكبير في زاوية ما هي الآن "بيكاديلي سيركس". كان النور يتوهج في عينيها، ورأت، إضافة إلى بعض المخلوقات المنحطة من بنات جنسها، قزمين بائسين على جزيرة صحراويـة جرداء. كانـا كلاهما عاريـين ووحيديـن وأعزلين. كان الواحـد منهما غير قادر على مدّ يد العـون إلى الآخر. كان لدى لكل منهما ما يشغله بما يكفي ليهتم بنفسه فحسب. نظرت إلى السيد پوپ

وجهاً لوجه. فكرت: الأمر سيان لو كنت تظن أنك تستطيع حمايتي، أو لو ظننت أنا أني أستطيع أن أعبدك. إن نور الحقيقة يسقط علينا دون ظلّ، ونور الحقيقة لا يلائمنا كلانا على نحو شنيع."

خلال هذا الوقت كله، تابعا الكلام بلطف، كما هو شأن شخصين صاحبي حسب ونسب وثقافة أن يفعلا، وذلك عن مزاج الملكة ونقرس رئيس الوزراء، بينما راحت العربة تنتقل من النور إلى الظلام عبر "هايماركت"، امتداد شارع "ستراند" وصعوداً في "شارع فليت"؛ حتى وصلت أخيراً إلى منزلها في بلاكفرايرز. لبعض الوقت، كانت الفراغات المعتمة بين أعمدة مصابيح النور تصبح أكثر سطوعاً بينما تصبح المصابيح نفسها أقل سطوعاً... أي أن الشمس كانت تشرق. وقد هبطا من العربة في الضوء الضعيف إنما المشوش لصباح صيفي يُرى فيه كل شيء ولكن لا شيء يُرى بوضوح. هاهو السيد پوپ يساعد أورلندو على الترجل من عربتها وتنحني أورلندو حتى يسبقها في الدخول إلى الدارة باذلة أقصى اهتمام بطقوس آلهات النعمة الإغريقيات.

من المقطع السابق لا يجب على أي حال أن يُفترض أن العبقرية (ولكن هذا المرض قد استُأصل من الجزر البريطانية، ويقال إن الراحل اللورد تنيسون هو آخر شخص عانى منه) ما زالت متقدة باضطراد، عندها سيكون علينا أن نرى كل شيء بوضوح وربما سنموت حرقاً خلال تلك العملية. إنها تشبه بالأحرى المنارة في طريقة عملها، وهي ترسل شعاعاً واحداً ثم لا شيء لبعض الوقت؛ باستثناء أن العبقرية أكثر تقلباً في مظاهرها وقد تومض ستة أو سبعة شعاعات في تتابع سريع (كما فعل السيد پوپ في تلك الليلة) ثم تمكث في الظلام لمدة عام أو إلى الأبد. إن الإبحار عبر أعمدتها أمر مستحيل بالتالي، وحين تحل

رقية الظلام بالعباقرة، يقال إنهم يكونون مثل الأشخاص الآخرين.

شعرت أورلندو بالسعادة أن الأمر كان كذلك، رغم خيبة الأمل في بداية الأمر؛ فقد بدأت تحيا الآن كثيراً بصحبة رجال عباقرة. و لم يكونوا هم كثيري الاختلاف عن بقيتنا كما قد يفترض المرء. لقد وجدت أن "أديسون" و"پوپ" و"سويفت" مولعون بالشاي. كما كانوا يحبون الأماكن الظليلة بين الأشجار. كانوا يجمعون قطعاً صغيرة من الزجاج الملون. كانوا يعبدون الكهوف. لم يكن المنصب كريهاً بالنسبة إليهم. كما كنوا يحبون المديح. كانوا يرتدون بزات بلون الخوخ في يوم وبزات رمادية في يوم آخر. كان لدى السيد سويفت عصا جميلة من طراز "مالقا. كان السيد أديسون يعطر منديله. والسيد پوپ كان يعاني من مسّ ما. لم تكن الإشاعة على خطأ. كما لم يكونوا دون حسد. (نحن نشطب هنا بعض التأملات التي كانت تأتي إلى أورلندو دون انتظام). في البداية كانت منزعجة من نفسها لأنها انتبهت إلى تلك الترهات، وكانت تحتفظ بدفتر تدون فيه أقوالهم الجديرة بالذكر، ولكن الصفحة بقيت فارغة. وعلى أي حال، فقد انتعشت معنوياتها، ولكن بدأت تمزق بطاقات الدعوة إلى حفلات فخمة. أضحت تفضل البقاء حرة في الأماسي. بدأت تتطلع إلى زيارات السيد پوپ والسيد أديسون والسيد سويفت... وهكذا دواليك. وإذا ما عاد القارئ هنا إلى "اغتصاب خصلة الشعر" (قصيدة مطولة للشاعر پوپ) أو مجلة "ذا سبكتاتيتور" أو "رحلات غاليفر"، فهو سيفهم بدقة ما تعنيه هذه الكلمات الغامضة. بالفعل، يمكن لكتّاب السيرة والنقاد أن يوفروا على أنفسهم كل ذلك العناء لو كان القراء سيعملون بهذه النصيحة. فحين نقرأ:

((سواء خرقت الحورية قانون ديانا،

أو عانت آنية صينية رقيقة من صدع،

أو لوثت شرفها، أو حريرها الجديد،

أو نسيت صلواتها أو فاتتها حفلة تنكرية،

أو ضيّعت قلبها أو عقدها في حفلة راقصة.))

نعرف وكأننا سمعنا الأمر منه، كيف أن لسان السيد پوپ تذبذب كلسان حرباء، وكيف التمعت عيناه وارتجفت يده؛ كيف أحب وكيف كذب، وكيف عانى. باختصار، كل سر من أسرار روح الكاتب، وكل تجربة من تجارب حياته، وكل ميزة من مزايا ذهنه، مكتوبة بشكل جليّ للعيان في أعماله، ومع ذلك نتطلب نقاداً لشرح هذا وكتّاب سيرة لوصف ذاك. وأن كون الزمن ينوء بثقله على أيدي الناس هو التفسير الوحيد للنموّ الرهيب.

إذاً، الآن حين نقرأ صفحة من «اغتصاب خصلة الشعر»، نعرف بالضبط السبب في أورلندو كانت تشعر بمتعة كبيرة وبخوف هائل في عصر ذلك اليوم، وأنها كانت متوردة الخدين ولامعة العينين.

ثم قرعت السيدة نيلي الباب لتقول إن السيد أديسون ينتظر ليرى حضرة الليدي. عندها نهض السيد پوپ وهو يبتسم بتهكم ينم عن رضا واستأذن ثم خرج وهو يعرج. دخل السيد أديسون. دعونا، بينما يجلس هو، نقرأ المقطع التالي من «ذا سبكتايتور»:

((أعتبر المرأة كحيوان جميل، حيوان رومانسي، يمكن أن يُزيّن بالفراء والريش واللؤلؤ والماس وبالمعدن الخام والحرير. من شأن الوشق أن يخلع فروته عند قدميها ليصنع لها حاشية لثوبها ذي الحاشية الطويلة، ومن شأن الطاووس والببغاء والبجعة أن تساهم لتصنع ليديها غطاء دافئاً. سيتم سبر غور البحر بحثاً

عن الأصداف، والصخور بحثاً عن الجواهر، وكل جزء من الطبيعة سيساهم في تزيين مخلوقة هي أهم إنجازاتها. كل هذا أتساهل معه، أما ما يخص «الشلحة» فلا أستطيع ولا أريد السماح بها.))

نحن نمسك بهذا السيد النبيل، بقبعته ذات الزوايا الثلاث وشخصه بأجمعه في أئيدينا. انظر مرة أخرى إلى البلور الصافي. أليس هذا الرجل واضحاً حتى تجعيدة جاربيه؟ أليست كل موجة وكل منحنى في ظرفه مكشوفة أمامنا، وكذلك رحمته وخجله وتهذيبه وحقيقة أنه سيتزوج من كونتيسة ويموت ميتة تستحق الاحترام في النهاية؟ كل شيء واضح وجليّ. وحين قال السيد أديسون قولته، كان هناك قرع رهيب على الباب، ودخل السيد سويفت، الذي كان يتصف بذلك الأسلوب الاعتباطي، دون استئذان. أمهلوني للحظة: أين هي "رحلات غاليفر"؟ هاهي! فلنقرأ مقطعاً من "الرحلة إلى هوييهنمس":

((كنت أتمتع بصحة جسدية تامة وهدوء في الذهن. لم أجد خيانة صديق ولا تناقضه ولا الأذى الذي يسببه السر أو العدو الجلي. لم أمارس الرشوة ولا التزلف ولا القوادة لأضمن منّة أي رجل عظيم أو أحد مساعديه. لم أكن أخشى فضح الزيف أو الظلم. لم يكن هنا طبيب ليدمر لي جسدي ولا محام ليتلف ثروتي. لا مخبر يراقب كلماتي وتصرفاتي أو يزيف اتهامات ضدي مقابل أجر يتلقاه. لم يكن هنا أي متهكمين أو مغتابين أو نشالين أو قاطعي طرق أو لصوص منازل أو وكلاء أو قيّمات على المواخير أو مهرجين أو مقامرين أو سياسيين أو ظرفاء أو متحدثين عصبيين ومضجرين...))

ولكن توقف، وأوقف هذه السلسلة الحديد من الكلمات، لئلا تسلخ جلودنا جميعاً أحياء، وجلدك أيضاً! لا يمكن لأي شيء أن يكون

أوضح من ذلك الرجل العنيف. إنه شديد الخشونة ولكنه نظيف جداً ووحشي جداً ويحتقر العالم كله، إلا أنه يتحدث بلغة الأطفال مع فتاة، وسيموت، هل نشك في هذا؟ في مأوى للمجانين.

وهكذا صبّت أورلندو الشاي لهم جميعاً، وأحياناً كانت تقلّهم، حين يكون الطقس جيداً، إلى الريف معها، وتولم لهم ولائم ملكية في "راوند بارلور" الذي كانت قد علقت فيه صورهم جميعاً ضمن دائرة، حتى أن السيد پوپ لم يستطع القول إن السيد أديسون وصل قبله، أو عكس ذلك. كانوا شديدي الظرف أيضاً (ولكن ظرفهم كله كان في كتبهم)، وقد علّموها أهم جزء من الأسلوب، ألا وهو المجرى الطبيعي للصوت خلال الكلام- وهي صفة لا يستطيع تقليدها من لم يسمعها- ولا حتى "غرين" بكل مهاراته؛ لأنها تولد من الهواء، وتتحطم كموجة على الأثاث، وتتدحرج ثم تتلاشى، ولا يمكن استعادتها، خاصة من قبل هؤلاء الذين يشنفون آذانهم بعد نصف قرن ويحاولون. علّموها هذا، بمجرد إيقاع أصواتهم خلال الكلام، حتى أن أسلوبها تغير نوعاً ما، فراحت تكتب بعض الأشعار المبهجة والذكية جداً ووصفاً للشخصيات نثراً. وهكذا كانت تغدق عليهم بنبيذها وتدس تحت أطباقهم وقت الغداء أوراقاً نقدية كانوا يأخذونها بلطف شديد، وتقبل هي إهداءاتهم لكتبهم إليها، وتظن نفسها مكرّمة بهذا الأخذ والعطاء.

وهكذا جرى الزمن، وكانت أورلندو تُسمع غالباً وهي تقول لنفسها مع التشديد الذي يجعل سامعها يشعر ببعض الريبة: «بحق روحي، يا لها من حياة!» (فقد كانت ما تزال تبحث عن تلك البضاعة). ولكن الظروف سرعان ما أجبرتها على النظر إلى الأمر على نحو أوثق.

في أحد الأيام كانت تصب الشاي للسيد پوپ بينما كان هو- كما يمكن استنتاج ذلك من الأشعار التـي اقتبسناها سابقاً- يجلس بعينين براقتـين وهو يراقب عن كثب وهـو جالس في كرسيه إلى القرب منها وقد طغى القلق عليه.

راحـت تفكر وهي ترفع ملقـاط السكر: "يا إلهـي! لكم سأكون موضـع حسـد نسـاء العهـود القادمة! ومـع ذلـك..." توقفت عن التفكـير فقـد كان السيد پوپ في حاجـة إلى الاهتمام. ومع ذلك هيا بنا ننهـي عنها تلك الفكرة... عندما يقـول أي شخص: "ستحسدني العهـود القادمـة"، فالصحيح هو أن هـذا الشخص شديـد القلق في الوقـت الحاضر. هل كانت هذه الحياة مثـيرة ومترعة بالإطراء والمجد كما تبـدو حين ينتهي كاتب المذكرات من عملـه عليها؟ فأولاً كانت أورلنـدو تكره الشاي على نحو باتّ؛ وثانيـاً، فإن الذكاء على ما هو عليه مـن القداسة، ويستحـق العبادة، يتحلى بعـادة المكوث في أكثر الجثامين توعكاً، وغالباً- ويا للأسف- يلعب دور آكل لحوم البشر بين الوظائف الأخرى أحياناً كثيرة، حين يكون العقل هو الأكبر ولا مجال للقلـب والحواس والشهامـة والإحسان والتسامـح واللطف إلخ... للتنفس. ومن ثم فإن الفخر بالنفس الـذي يتحلى به الشعراء ومن ثم ازدراءهم للآخريـن، ومن ثـم العداوات والأذى والحسد والمجادلات التي ينخرطون فيهـا باستمرار؛ ومن ثم فإن الضراوة التي يتطلبون بها التعاطـف معهـم؛ كل هذا- كما قـد يهمس المرء لئـلا يسمعنا صدفة الظرفـاء الأذكيـاء- يجعل مـن صبّ الشـاي نشاطاً أخطـر وبالفعل أصعب مما هو معترف به عموماً. وإضافة إلى ذلك (نهمس مجدداً لئلا تسمعنا النساء صدفة)، هناك سرّ صغير يتشارك فيه الرجال فيما بينهم. لقد همس به اللورد تشسترفيلد لابنه مع إنذار مشدد بأن عليه الحفاظ

علـى السر: "النساء مجرد طفلات يتميزن بنمو أكبر ... والرجل العاقل يعبـث معهن فحسب، ويلعب معهن ويمـزح معهن ويطري عليهن."
وبمـا أن الأطفال يسمعون دائماً ما لا يفترض بهم أن يسمعوه، وحتى يحدث أحياناً أن يكبروا، فيمكن أن يكون هذا السر قد أفشي، لذلك، فـإن طقس تقديم الشاي هو طقس عجيب مثير للفضول. تعرف المرأة جيداً جـداً أنه رغم أن رجلاً ظريفاً يكرس لهـا قصائده ويطري على حكمتهـا ويلتمس انتقاداتها، ويشرب شايها، فإن هذا كله لا يعني أنه يحترم آراءها ويعجب بقدرتها على الفهم، أو أنه سيرفض، رغم أنه لا يُعطـى سيفاً، أن يخترق جسدهـا بقلمه. نقول هذا كله ونحن نهمس به بأخفض صوت ممكن، وقد يكون قد أُفشـي في وقتنا هذا. لذلك حتـى حين يكون وعـاء القشدة مرفوعاً وملقاط السكـر ممدوداً، فإن السيدات قـد يتململن قليلاً وينظرن إلى خـارج النافذة قليلاً ويتثاءبن قليلاً، وهكذا يتركـن السكر يسقط بثقل- كما فعلت أورلندو الآن- في شـاي السيد پوپ. لم يسبق أن وجد شخص مستعد إلى ذلك الحد للشـك في أنه أهين أو أنه سريع إلى ذلك الحد في الانتقام كالسيد پوپ ذاك. التفت إلى أورلندو وتلى عليها فوراً ذلك البيت الشعري الشهير من قصيـدة "صفات النسـاء". تم فيما بعد إضافـة الكثير من الصقل علـى هذه القصيـدة ، ولكن حتـى في صياغتها الأصليـة فقد كانت مدهشـة بمـا فيه الكفايـة. تلقتها أورلنـدو بانحناءة أنثويـة. وغادرها السيـد پوپ بانحنـاءة. وحتى تلطـف أورلندو من حـرارة وجنتيها، فقـد أحست بالفعل وكأن السيد ضئيـل الجسم قد صفعها، خرجت لتتمشـى بين أشجار الجوز في أسفل الحديقة. سرعان ما فعلت النسائم البـاردة فعلهـا. ولدهشتها وجدت أنها شعـرت بالراحة إلى حد كبير لأنها وحيـدة. راحت تراقب الـزوارق المليئة بركابهـا المرحين وهم يجدفـون صعـوداً في النهر. لا شـك أن هذا المشهـد ذكّرها بحادثة

أو اثنتـين من سابق حياتها. جلست وهـي غارقة في تأمل عميق تحت شجرة صفصاف جميلة. وبقيت جالسة هناك حتى بزغت النجوم في السمـاء. ثم نهضت والتفتت ودخلـت إلى المنزل، حيث مضت نحو غرفـة نومهـا وأقفلت الباب مـن خلفها. فتحت خزانـة كان ما يزال معلقـاً فيها كثير من الملابس التي كانـت ترتديها كشاب حريص على اتباع الموضـة، ومن بينها اختارت بزة سوداء مـن المخمل مزينة كلها بتخريمـات حسب طراز مدينة البندقية. كانت الآن لا تتفق مع الموضة السائـدة كثيراً بالفعـل، ولكنها لاءمتها تماماً، وبعـد أن ارتدتها بدت كواحد من اللوردات النبلاء. التفتت مرة أو مرتين بجسدها أمام المرآة لتتأكـد من أن تنانيرها الداخلية لم تفقدهـا رشاقة ساقيها، ثم خرجت من باب المنزل سراً.

كانت تلك ليلة صافية مـن ليالي شهر نيسان (أبريل). كانت أنوار آلاف مـن النجوم تمتزج مع نـور الهلال في السمـاء، وتتعزز بأضواء مصابيح الشارع، مما يجعل الضوء ملائماً إلى ما لا نهاية للوجه البشري وفـن عمارة "السيد رِن". بدا كل شـيء في أرقّ أشكاله، ومع ذلك، وحـين بدأ كأنـه وصل إلى نقطـة الانحلال، كانت نقطـة من الفضة تعيـده إلى حيويته. هكذا يجب أن يكون الحوار، كما فكرت أورلندو (وهي تنغمس في حلم يقظة طائش)، وهكذا يجب أن يكون المجتمع وأن تكـون الصداقة وأن يكون الحب. فكمـا فقدنا الإيمان، والسماء تعـرف السبب، في سلاسة الاتصال بين البشر، ها هو ترتيب عشوائي للحظائـر والأشجار أو كومة من القشـ وعربة يقدم لنا رمزاً كاملاً لما هو صعب المنال حتى نبدأ بالبحث من جديد.

دخلت "ساحة ليِستر" وهذه الملاحظات تدور في خلدها. كان للأبنية تناسق غير ماديٍ إنما شكلي لا يكون لها نهاراً. بدت ظلّة السماء

مغسولة بمهارة شديدة لتملأ خط السقف والمدخنة. كانت هناك امرأة شابة تجلس باكتئاب وإحدى ذراعيها مدلاة إلى جانبها، بينما كانت الأخرى ترتاح في حضنها، على مقعد تحت شجرة دلب في منتصف الساحة؛ وتبدو كصورة صادقة للجمال والبساطة والأسى. خلعت أورلندو قبعتها ولوحت بها تجاهها بأسلوب شاب شهم يعبر عن احترامه لسيدة أنيقة في مكان عام. رفعت الشابة رأسها. كان ذا تناسق في منتهى الروعة. رفعت الشابة عينيها. رأت لمعاناً يُرى أحياناً على أباريق الشاي ولكن نادراً ما يُرى في وجوه البشر. نظرت المرأة الشابة من خلال هذه اللمعة الفضية إليه (فقد ظنت أورلندو رجلاً) باستغاثة وأمل وارتجاف وخوف. نهضت؛ أمسكت بذراعه التي مُدّت إليها. فقد كانت- هل هناك من داع للتشديد على هذا الأمر؟ – من تلك العشيرة التي تلمّع بضاعتها وتعرضها بانتظام على العموم منتظرة أعلى سعر يعرض عليها. قادت أورلندو إلى الغرفة في "شارع جنرال" حيث تقطن. حين شعرت أورلندو بها تستند على ذراعها بخفة إنما بتوسل، أثار ذلك جميع المشاعر التي تلائم رجلاً. كانت تبدو وتشعر وتتكلم كرجل. ولكن بما أن كانت مؤخراً امرأة، فقد راحت ترتاب بأن خجل الفتاة وإجاباتها المترددة وتحسسها للمفتاح في السقاطة وطيّة عباءتها وارتخاء معصمها كانت كلها مصطنعة لإشباع ذكورتها. صعدتا إلى الطابق العلوي، وكانت الجهود الكبيرة التي سبق للمخلوقة البائسة أن بذلتها في تزيين غرفتها وإخفاء حقيقة أنه ليس لديها غرفة أخرى، خدعت أورلندو لبرهة من الزمن. وقد أثار الخداع احتقارها؛ كما أثارت الحقيقة شفقتها. كان الشيء الذي يبرز من خلال الشيء الآخر قد ولّد لديها أغرب تشكيلة من المشاعر، فلم نعد تعرف هل تضحك أم تبكي. في هذه الأثناء كانت "نِل"، كما سمت الفتاة نفسها، تفك أزرار قفازيها. كانت تخفي بعناية ذلك الجزء من القفاز الذي يغطي

إبهـام اليد اليسـرى إذ كان في حاجة إلى إصـلاح. ثم اختفت خلال ستارة حيث كانت تضع أحمر الخدود ربما وترتب ثيابها وتضع منديلاً جديـداً من حول عنقهـا. طوال هذه الفترة كانت تثرثـر شأن النساء، لتسلـي عاشقها، رغم أن أورلندو كانت مستعدة أن تقسم، من خلال لهجة الفتاة، أن أفكارها كانت في مكان آخر. وحين أصبح كل شيء جاهـزاً، خرجت مـن وراء الستارة، في حالة مـن الجاهزية... ولكن أورلنـدو ما كانت قادرة علـى تحمل الأمر أكثر مـن ذلك. في أغرب نوبة من نوبات عذاب الغضـب والمرح والشفقة، خلعت كل أدوات تنكرها وأبرزت شخصها كامرأة.

عندما رأت "نِل" ذلك انفجرت ضاحكة حتى سُمعت ضحكتها عبر الطريق.

قالـت بعـد أن استعـادت توازنهـا نوعـاً ما: "حسناً يـا عزيزتي، لسـت آسفة لهذا. فالأمر ومـا فيه" (وقد كان أمـراً متميزاً كيف أنها ما أن اكتشفت حقيقـة انتمائهما كلتاهما إلى جنس واحد، حتى تغير سلوكهـا وتخلـت عن السلوك الكئيـب المتوسـل)، " فالأمر وما فيه أني لسـت في مزاج يؤهلنـي لمخالطة الجنس الآخـر الليلة. وبالفعل، أنـا في ورطة لعينة." وبينما راحـت تقلّب نار المدفأة وتخلط سلطانية مـن شـراب البنتش المسكـر، روت لأورلندو قصة حياتهـا بالكامل. وبمـا أننا مهتمون بحيـاة أورلندو الآن، فلا حاجـة إلى سرد مغامرات السيـدة الأخرى، ولكن من المؤكد أن أورلندو لم يسبق لها أن عرفت أن الساعـات يمكن أن تمر بتلك السرعة أو بكل ذلك المرح، رغم عدم تحلي "نـل" بأي ظرف. وحـين ذكر اسم السيـد پوپ خلال الحوار فقـد سألت إن لم يكـن هذا على صلـة بصانع الشعـر المستعار الذي لـه الاسم نفسه ويقـع دكانه في "شارع جرمين". ولكـن بالنسبة إلى

أورلنـدو، هذا هو سحر تحرر الجمال من التكلـف وإغوائه. لقد كان لحديث هذه الفتاة المسكينة، رغم أنه مثقل بشحم أكثر التعابير ابتذالاً، مـذاق أشبه بمـذاق النبيذ لدى أورلندو، وذلك بعـد الجمل ذات اللغة الرفيعـة التي اعتادت عليها، وقد توصلـت إلى نتيجة مفادها أن هناك شيئـاً مـا في تهكم السيـد پوپ، وتعطّـف السيد أديسـون، وفي سرّ اللـورد تشسترفيلد، سلبها الاستمتـا ع بمعاشرة الظرفاء، رغم أن عليها الاستمرار، بعمق، في احترام أعمالهم.

هذه المخلوقـات المسكينة، كما أكدت لنفسها، إذ أن "نِل" نادت علـى "برو" و"برو كيتـي" و"كيتي روز"، كانـت لديهن جمعيتهن الخاصة بهنّ وقد انتخبوها الآن عضواً فيها. ستروي كل واحدة منهن قصة المغامـرات التي أوصلتها إلى هذه الطريقـة في الحياة. العديدات منهن كن بنات سفاح لرجال نبلاء وكانت إحداهن أقرب صلة بالملك نفســه حتى من أورلندو. لم تكن أي منهـن شديدة البؤس أو الفقر إلا وكان في جيبهـا خاتم أو منديل كان بديلاً عن شجرة النسب. وهكذا كـن يتحلقن من حـول سلطانية البنتش التي أصبـح من عادة أورلندو أن تزودهـن بها بسخاء، وكانت عديدة تلـك الحكايات الجميلة التي رحن يروينها وعديدة تلك الملاحظات المسلية التي رحن يتلفظن بها، فـلا يمكننا أن ننكر أنه حين تجتمع النساء معاً– ولكن صه! – يحرصن دوماً على أن تكون الأبـواب مغلقة وألا تُطبع أي كلمة في منشور أو كتـاب. كل ما كن يرغبن فيه– ولكن صه مجدداً!– ألا يسمعن صوت خطـوات رجل علـى الدرج؟ كل مـا يرغبن فيه، كنا علـى وشك أن نقول ذلك حين استل ذلك السيـد الكلمات من أفواهنا. ليس للنساء رغبات، كما يقول هـذا السيد، وهو يدخل إلى ردهة "نِل"، بل مجرد تظاهـرات. دون رغبـات (لقـد قدمت لـه الخدمة ورحـل) لا يمكن

لحديثهـن أن يكون مهماً لأي شخص. يقـول "السيد س. و.": "من المعـروف تماماً أن النساء حين يفتقدن حافز الجنس الآخر، لا يستطعن إيجاد أي شيء ليتبادلن الحديث عنه. حين يكن وحدهن، لا يتحدثن، بـل يحْككـن." وبما أنهن لا يستطعن التحدث معـاً ولا يمكن للحكّ أن يستمـر دون انقطاع، وبما أنه معروف تماماً (لقد برهن "السيد ت. ر." على ذلك)، "أن النساء غير قادرات على أي شعور بالتعاطف مع بنات جنسهن ويكرهن الواحدة الأخرى منهن على نحو شديد"؛ فما الذي نستطيع الافتراض بما تفعله النساء حين يجتمعن معاً؟

وبما أن هذا ليس بالسؤال الذي يمكن أن يجذب اهتمام رجل عاقل، دعونـا إذاً، نحن الذين نتمتع بحصانة جميع كتّاب السيرة والمؤرخين من أي جنس كانوا، نتجاوز ذلك، ونقول فحسب إن أورلندو أقرت بأنها كانت تجد متعة كبيرة في معاشرة بنات جنسها، ولنترك موضوع استحالة ذلك للسادة حتى يبرهنوا عليه، وهم المولعون بفعل ذلك.

ولكـن تقديم تقرير دقيق وخاص عـن حياة أورلندو في هذه الفترة الزمنيـة يصبح أكثر فأكثر استحالة. فحين نحدق ونتلمس في الباحات سيئة الإنـارة وسيئة التعبيد وسيئة التهوية التـي كانت تحيط بـ "شارع جـيرارد" و"زقـاق دروري" في ذلك الحين، يبـدو الآن وكأننا نراها أحيانـاً ونفقدهـا أحياناً أخرى. ومما يجعل المهمـة أصعب هو حقيقة اكتشافها أنه ملائم لها أن تبدل ملابسها من تلك النسائية إلى الرجولية مـرات كثيرة. وهكـذا تظهر في مذكرات معاصرة علـى أنها "اللورد كـذا وكذا"، وهـو ابن عم لهـا في الواقع. لقد عزيت إليـه موهبتها، فيقـال إنه هو الـذي نظم تلك القصائـد التي هـي قصائدها في واقع الأمر. لم تكن تجد صعوبة، على ما يبدو، في لعب الدورين المختلفين، فقـد كان جنسها يتغير مراراً وتكراراً إلى حدّ لا يمكن تصوره من قبل

أشخاص لا يعرفون سوى نمط واحد من الملابس. وليس هناك مجال للشك في أنها حصدت حصاداً مضاعفاً بهذه الحيلة. لقد زادت متع الحياة وتضاعفت خبراتها، فقد كانت تستبدل بالاستقامة الأخلاقية للبنطال إغواء التنورة النسائية وتستمتع بحب الجنسين على حد سواء.

إذاً يمكن للمرء أن يصف إنفاقها لصباحها في ثوب صيني من الحرير ملتبس الجنس وهي جالسة بين كتبها. ثم تستقبل زبوناً أو اثنين (كان لديها العشرات من أصحاب الحاجات) في الثوب نفسه. ثم تقوم بجولة في الحديقة وتقلّم أشجار الجوز– وكان المطلوب لهذا العمل ارتداء بنطال يزمّ عند الركبتين. ثم سترتدي ثوباً من التافتا يلائم رحلة بالعربة إلى ريتشموند حيث ستتلقى عرض زواج من نبيل كبير، ثم تعود مجدداً إلى المدينة حيث سترتدي جبة بلون السعوط أشبه بما يرتديه المحامون وتزور المحاكم لترى ما حلّ بقضاياها القانونية ، فقد كانت ثروتها تتآكل بمرور الزمن و لم يكن يبدو أن القضايا ستصل إلى نتيجة قريبة أكثر مما كانت عليه قبل مائة من السنين. وأخيراً، مع حلول الليل، كانت غالباً ما ترتدي ثياب رجل نبيل من الرأس حتى أخمص القدمين لتتمشى في الشوارع بحثاً عن مغامرة.

لدى العودة من بعض هذه المغامرات– التي روي عنها الكثير من الحكايات في ذلك الحين، فقد قيل إنها خاضت مبارزات وخدمت على واحدة من سفن الملك كقبطان، وأنها شوهدت ترقص عارية على إحدى الشرفات، ثم أنها فرت مع إحدى السيدات إلى "البلاد الواطئة" (بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ) حيث لحق بهما زوج السيدة– ولكننا لن نعلق على صحة هذه الحكايات من عدمها– فلدى العودة من أي من هذه المشاغل كانت تحرص على المرور تحت نوافذ مقهى ما، حيث يمكنها أن ترى الأدباء الظرفاء دون أن تُرى، وهكذا

تتخيـل من إيماءاتهم ما هي الأمور الحكيمة أو الفكهة أو الحقودة التي كانـوا يتلفظـون بهـا دون أن تسمع كلمة واحدة منهـا. وقد كان في هذا فائدة ما على الأرجح. وقد وقفت مرة لنصف ساعة وهي تراقب ثلاثـة ظلال من خلف ستارة يشربـون الشاي معاً في منزل في "بولت كورت".

لم تكـن هناك أي مسرحية يمكنهـا أن تشدّ المشاهد أكثر من ذلك. لقـد أرادت أن تهتف "برافو! برافو! فيا لهـا من دراما بكل تأكيد... ويـا لها من صفحة انتُزعـت من أضخم كتاب عن حيـاة البشر! كان هنـاك الظلّ الصغير ذو الشفاه المبـوّزة، وهو يتململ على كرسيه بقلق ونكد وفضول. وكان هناك ظـل الأنثى المنحنية، وهي تقحم أصبعها في الفنجـان لترى مقدار ما صبّته من الشاي، فقد كانت عمياء. وكان هناك الظل المتقلب الشبيه بالرومان في الكنبة الكبيرة: كان ذاك الذي يلوي أصابعه على نحـو شديد الغرابة ويميل برأسه من جانب إلى آخر وهو يـزدرد الشاي على دفعـات كبيرة. الدكتور جونسـون والسيد بوزويل والسيدة ويليامز- هذه هي أسماء هذه الظلال. كانت شديدة الانهماك بالمشهد حتى نسيـت أن تفكر في كيف أن العهود الأخرى ستحسدهـا، رغم أنـه بدا مرجحاً أنهـا ستُحسد على هـذه المناسبة. كانـت قانعة بالتحديـق والتحديق. أخيراً نهض السيـد بوزويل. حيّا المـرأة العجوز بحدة لاذعة. ولكنـه أذل نفسه بأكبر تواضع ممكن أمام الظـل الرومـاني العظيم الذي نهضـ الآن بكامل طولـه وهو يتهزهز نوعـاً ما ونطق بأعظم الجمـل التي سبق أن تلفظت بهـا شفاه بشرية. هكـذا ظنت أورلندو رغم أنها لم تسمع كلمة واحدة نطق بها أي من أصحاب الظلال الثلاثة وهم جالسون هناك يشربون الشاي.

وأخـيراً، عـادت إلى بيتهـا في إحدى الليالي بعـد واحدة من تلك

المشاويـر البطيئـة وصعدت إلى غرفـة نومها. خلعـت معطفها المزين بالشرائـط ووقفت هناك في قميصها وبنطالها وهي تتطلع عبر النافذة. كان هناك شيء ما يتحرك في الجو ويمنعها من النوم. طغى سديم أبيض علـى المدينة فقد كانت تلك الليلة جليدية في منتصف الشتاء وكان من حولها منظر طبيعي رائع. استطاعت أن ترى كاتدرائية القديس بولص والبرج ودير "وستمنستر أبي"، مع كل الأطراف العلوية المدببة لأبراج وقبـب كنائس المدينـة وضفافها الملساء والمنحنيـات الوافرة والكثيرة لقاعاتهـا وأروقتهـا. إلى الشمال بـرزت القمم المصقولـة والمجزوزة لهامستيـد، وفي الغـرب التمعت شـوارع وساحـات "مايفير" بتألق واضـح. راحت النجوم تنظر إلى هذا المشهـد الهادئ والمنتظم لامعة وجازمـة وقاسية من سماء صتفية. ضمن الصفـاء الشديد للجوّ، كان خط كل سقف وطربوش كل مدخنة مرئياً. حتى الحصى في الشوارع كانـت تتميز الواحـدة منها عن الأخرى، ولم تستطـع أورلندو سوى أن تقـارن هـذا المشهد المنتظم بمشهـد الأبنية العشوائيـة غير المنتظمة والمزدحمـة لمدينـة لندن خـلال عهد الملكـة إليزابيث. ثـم تذكرت، فالمدينـة، لو استطاع المـرء أن يسميها كذلك، كانـت تقبع مزدحمة، مجـرد تجمع وتحشـد للمنازل، تحـت نوافذها في بلاكفرايـرز. كانت النجوم تنعكس على حفر عميقة من الماء الراكد في منتصف الشوارع. ربما يكون الظل الأسود عند الركن حيث كانت دكان بائع الخمر، وقد لا يكـون، جثة رجـل قتيل. كانت قادرة على تذكـر صرخات الكثير مـن الجرحى في مثل تلك الشجارات الليلية، حين كانت صبياً صغيراً تحملـه المربية بين ذراعيهـا وتسنده إلى النافـذة ذات الزجاج الذي له شـكل المعين الهندسي. كانت حشود مـن المتوحشين، رجالاً ونساء، تتجمـع علـى نحـو لا يوصـف بالكلمـات، تطـوف في الشوارع، وتنشد أغـاني حماسية والجواهر تلتمع في آذانهـم، والخناجر تومض

في قبضاتهم. في ليلة كهذه، كانت الشبكة التي لا يمكن اختراقها من الغابات فوق هايغيت وهامبستيد واضحة المعالم تتلوى في تعقيد ملتو أمام صفحة السماء. هنا وهناك، على واحدة من التلال التي تعلو فوق لندن، كانت شجرة شنق عارية، وقد ثبّتت فوقها بالمسامير جثة حتى تتعفن أو تجف فوق صليبها. فقد كان يحتشد في أسراب الخطر وعدم الاطمئنان، والشهوة والعنف، والشِعر والقذارة، فوق الطرق العامة الإليزابيثية الملتوية لتئزّ وتزخم ... تستطيع أورلندو أن تتذكر حتى في هذا الحين رائحتها في ليلة حارة ... في الغرف الصغيرة والممرات الضيقة للمدينة. والآن- وهي تتدلى من نافذتها- هاهي ترى كل شيء مضيئاً ومنظماً وهادئاً. كانت هناك قعقعة خافتة لعربة فوق الحصى. سمعت الصرخة البعيدة للحارس الليلي ... "الساعة الثانية عشرة فقط في صباح جليدي". ما أن تخرج هذه الكلمات من شفتيه حتى تدق الساعة أول دقاتها معلنة منتصف الليل. ثم لاحظت أورلندو للمرة الأولى غيمة صغيرة تتجمع خلف قبة كاتدرائية القديس بولص. ومع توالي دقات الساعة، هاهي الغيمة تكبر، ثم رأتها تدكن وتنتشر بسرعة استثنائية. في الوقت نفسه، هاهي نسمة خفيفة تهب ومع الدقة السادسة للساعة، كانت السماء الشرقية كلها تتغطى بعتمة متحركة غير منتظمة ، رغم أن السماء في الغرب والشمال بقيت صافية تماماً. ثم انتشرت السحابة نحو الشمال. راحت السحابة تجتاح سماء المدينة صعوداً. مايفير وحدها، بكل أنوارها اللامعة، كانت ما تزال تشع بالتباين مع ذلك كله. مع الدقة الثامنة، راحت مزق مسرعة من الغيوم تنتشر فوق بيكاديلّي. بدت وكأنها تتقدم بسرعة استثنائية نحو "ويست إند". عند الدقة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة، كان سواد هائل قد طغى على لندن كلها. عند الدقة الثانية عشرة معلنة منتصف الليل، كان الظلام كاملاً. كانت كتلة مضطربة من السحاب تغطي

المدينـــة. عــمّ الظلام كل شــيء. كان هناك شك كغى علــى كل شيء، وكان هناك اضطــراب. لقد انقضى القرن الثامــن عشر. هاهو القرن التاسع عشر قد بدأ.

لا بــد أن القبطــان قد أخطأ، كما سيظهر أي رجــوع إلى كتب الأدب؛ ولكن الخطأ كان ملائماً لذا تركناه على حاله. (المؤلفة)

مدام دو ديفان: (١٦٩٧–١٧٨٠) سيدة مجتمع فرنسية شهيرة. (المترجم)

هــذه الأقــوال أشهــر مــن أن نكررها هنــا، وعدا ذلــك، ستجدها كلهــا في أعماله المنشورة. (المؤلفة)

الفصل الخامس

مكثـت السحابة العظيمة التي تدلـت ليس فوق لندن فحسب، بل فـوق كامل الجزر البريطانية في اليوم الأول مـن القرن التاسع عشر، أو بالأحـرى لم تمكث، فقد كانـت تتعرض للضرب المستمـر من الرياح العاصفة؛ مكثت فترة طويلة بما فيـه الكفاية حتى تركت آثاراً استثنائية على أولئك القاطنين تحت ظلها. بدا وكأن تغييراً طرأ على مناخ إنكلترا. راح المطر يهطل مراراً ولكن على دفعات قوية متقطعة، فهو لا يتوقف حتى ينهمر مجدداً. كانت الشمس تسطع بالطبع، ولكنها كانت محاطة بالغيوم إلى حـد كبير، كما كان الهواء مشبعاً جداً بالماء، حتى أن ألوان أشعتهـا قد تغيرت، فراحـت الألوان الأرجوانيـة والبرتقالية والحمراء مـن النـوع الكامد تحل محل ألـوان الطبيعة الأكثر إيجابيـة كما عُرفت في القـرن الثامن عشر. تحت هذه الظلّة المتهتكـة والكئيبة، كان اللون الأخضـر لنبات الملفوف أقل خضرة، كما أصبـح بياض الثلج موحلاً. ولكن ما هو أسوأ هو أن الرطوبة بدأت تتسلل إلى كل بيت... الرطوبة هـي أمكر الأعداء. فبينما يمكن تفادي أشعة الشمس بالستائر، والجليد بالنار، تتسلل الرطوبة ونحـن نيام. الرطوبة صامتة، لا يمكن إدراكها، كلية الحضور. تجعل الرطوبة الخشب ينتفخ ويطلي الإبريق بمادة بيضاء، ويصدئ الحديد ويحفـر الأخاديد في الحجر. والعملية تدريجية جداً، حتى أننا لا نشعر بها حتى نرفع صندوقاً من الدروج أو دلواً من الفحم، لنراهما ينهاران بين أيدينا، حتى نشك بأن الوباء قد انتشر.

وهكـذا حدث أن تغـيرت بُنية إنكلترا خلسـة ودون إدراك، دون أن يميـز أحد يوم وساعة التغيير، و لم يعـرف أحد بذلك. كانت الآثار ملموسة في كل مكان. هاهو الجنتلمان الريفي شديد الاحتمال، الذي كان قـد جلس بسعادة لتنـاول وجبة من الجعة ولحـم البقر، في غرفة صممها على الأرجح الأخوان «آدم»، بجلال كلاسيكي، يشعر الآن بالبرد. ظهرت السجاجيد وترك الرجال لحاهم تنمو، وهاهي البناطيل تشـدّ بحزم عند مشط القدم. البرد الـذي كان يشعر به في ساقيه ذاك الجنتلمـان الريفي، سرعان ما انتقل إلى بيتـه. غُطي الأثاث بستائر. لم يعـد أي شيء يترك عارياً. ثم أصبح تغيير نوعية الغذاء أمراً جوهرياً. تم اختراع «المَفين» و»الكرمبت». بدأت القهوة تحل محل النبيذ بعد وجبة الغـداء، وبما أن القهوة لـدت إلى الانتقال إلى غرفة الاستقبال لتناولها، وأدت غرفـة الاستقبـال إلى صناديق زجاجيـة، والصناديق الزجاجية إلى الأزهـار الاصطناعية، والأزهار الاصطناعيـة إلى رفوف المدافئ، ورفوف المدافئ إلى آلة البيانو و آلة البيانو إلى القصص المغناة في غرف الاستقبال والقصص المغناة في غرف الاستقبال إلى (مع تخطي مرحلة أو اثنتـين) إلى عـدد لا يحصى من الكلاب صغـيرة الحجم والأبسطة والحلى الصينية، البيت- الذي أصبح شديد الأهمية- قد تغير بأكمله.

خـارج المنـزل، كان هناك تأثـير آخر للرطوبة: لقـد راح اللبلاب ينمـو بكثافة غير مسبوقة. كانـت المنازل عاريـة الأحجار قد تغطت تمامـاً بالاخضرار. لم تعـد أي حديقة، مهمـا كان تصميمها منهجياً، تفتقـر إلى الشجـيرات وإلى متاهة من النباتات الخضـراء وشبكة منها. كان النـور الـذي يتغلغل إلى غرف النوم حيث يولـد الأطفال طبعاً ذا لـون أخضر كليـل، أما النور الذي يتغلغل إلى غـرف الاستقبال حيث يمكـث الرجال والنساء البالغون فكان يأتي عـبر ستائر من قماش بني

وأرجـواني ذي زئبر. ولكـن التغيير لم يقتصر على الأمـور الخارجية. لقد ضربـت الرطوبة ضربتها في الداخل. شعر الرجال بالقشعريرة في قلوبهـم وبالرطوبة في عقولهم. وفي جهد يائس لإدخال مشاعرهم ضمـن نوع ما مـن أنواع الدفء، تمت تجربة تقـديم العذر إثر الآخر. لقـد تمـت لفلفة الحـب والولادة والمـوت في عدد متنـوع من الجُمل والعبـارات البديعـة. راح الجنسان يتعدان أكـثر فأكثر واحدهما عن الآخـر. لم يعد أي حوار صريح أمراً يمكن احتماله. راحت التملّصات والتوريـات تمارس بحماسـة من قبـل الجانبين. وكما تمـرد اللبلاب ودائمات الخضرة في الأرض الرطبة، فقد راحت تلك الخصوبة نفسها تتكشـف في الداخل. بـدأت حياة المرأة العاديـة تتشكل من ولادات متعاقبـة. كانت تتزوج في سن التاسعة عشرة وما أن تبلغ الثلاثين حتى يكون لديها خمسة عشر أو ثمانية عشر طفلاً؛ إذ تزايدت ولادة التوائم إلى حـد كبير. وهكـذا بزغت الإمبراطوريـة البريطانية؛ وهكذا- فلا مجال لوضع حـدّ للرطوبة التي تغلغلـت في دوايات الحبر كما في كل مـا هو مصنـوع من الخشـب- تورّمت الجمل وتضاعفـت الصفات (النعوت) وأصبحت القصائـد الغنائية ملاحم، والتوافه الصغيرة التي كانـت مجرد مقـالات أضحت الآن موسوعـات في عشرة مجلدات أو حتـى عشريـن منها. ولكـن "يوسِبيوس تشَب" سيبقـى شاهدنا على التأثـير الذي كان لهذا كله على ذهن الرجل الحساس الذي لا يستطيع فعـل شيء لوضع حدّ له. هنـاك مقطع قريب من ختام مذكراته يصف فيـه كيف أنه بعد كتابة خمس وثلاثـين صفحة في صباح أحد الأيام، "كلهـا تدور حول لا شيء يحمل أي أهمية"، فقد أغلق غطاء دواته جيـداً وخرج ليقوم بدورة في حديقته. سرعان ما وجد نفسه مشغولاً بالشجـيرات. كانت أوراق لا عدّ لها تصـرّ وتلتمع فوق رأسه. بدا له "أنه يسحق عفن ملايين منها تحت قدميه". كان دخان كثيف يخرج

من مشعلة رطبة في آخر الحديقة. فكر في أنه لا توجد نار على كوكب الأرض يمكنها أن تلتهم هذا العائق النباتي. حيثما نظر كان النبات الكثيف منتشراً. كانت نباتات الخيار "تأتي زاحفة عبر العشب نحو قدميه". كما كانت نباتات القنبيط الهائلة الحجم تتصاعد طبقة فوق طبقة حتى راحت تضارع في طولها، وفق مخيلته المضطربة، شجر الدردار. كانت الدجاجات تضع باستمرار بيضاً لا لون خاصاً به. ثم، هاهو يتذكر مع تنهيدة خصوبته وخصوبة زوجته المسكينة "جين" التي كانت تعاني الآن من آلام نفاسها للمرة الخامسة عشر، فكيف يلوم الطيور؟ رفع نظره إلى السماء. ألم يقم الرب بنفسه، أو واجهة مقره أي السماء الدنيا، بالإشارة إلى موافقته بالفعل على التحريض على نظام الكهنوت السماوي؟ فهاهي الغيوم، في الشتاء كما في الصيف، عاماً بعد عام، تتلوى وتتقلب، شأن الحيتان- كما راح يتأمل- أو بالأحرى كما الفيلة. ولكن كلا. لم يكن هناك مهرب من التشبيه البلاغي الذي كان يضغط عليه من ألف هكتار جوّي، فالسماء كلها وهي تنتشر فوق الجزر البريطانية، لم تكن سوى سرير واسع من الريش؛ وكانت الخصوبة العادية للحديقة وغرفة النوم وقنّ الدجاج منسوخة هناك. دخل إلى المنزل وكتب الصفحات المقتبس منها أعلاه، ووضع رأسه في فرن الغاز، وحين وجدوه لاحقاً كان مستحيلاً إنقاذ حياته.

وبينما كان هذا مستمراً في كل مكان من إنكلترا، فقد طاب لأورلندو أن تحبس نفسها في منزلها في بلاكفرايرز وتتظاهر بأن المناخ لم يتغير؛ وأنه يمكن للمرء أن يقول ما يشاء وأن يرتدي البنطال أو التنورة كما يحلو له. ولكنها اضطرت، حتى هي أيضاً، أخيراً، إلى الإقرار بأن الزمن قد تغير. في عصر أحد الأيام في بداية القرن، كانت تسير بعربتها القديمة المسقوفة، عبر حديقة سانت جيمس،

حين استطاع شعاع من الشمس أن يصل إلى الأرض بصعوبة، وكان ذلك يحدث أحياناً وليس غالباً، ملوناً الغيوم بألوان موشورية غريبة أثناء عبوره. وكان هذا المشهد غريباً بما فيه الكفاية بعد السماء الصافية والمتسقة للقرن الثامن عشر بحيث جعلها تنزل نافذة العربة لتتفرج عليه. كانت الغيوم الأرجوانية والوردية قد جعلتها تفكر بألم مبهج – مما يدل على أنه قد سبق لها وتأثرت بالرطوبة هي نفسها– بالدلافين المحتضرة في البحار اليونانية . ولكن ما الذي أدهشها كان أن الشعاع حين ضرب الأرض، بدا وكأنه يستدعي أو ينير هَرَماً أو مذبحة قربانية كبرى أو غنيمة (فقد كان فيه ما يشبه جوّ موائد وليمة كبرى)- كتلة مختلطة على أي حال لأشياء غير متجانسة وغير متطابقة ، وقد كوّمت دون نظام في رابية كبيرة في المكان نفسه الذي ينتصب فيه الآن تمثال الملكة فيكتوريا! وتدلت من صليب ضخم من الذهب المتآكل المصنوع على شكل زهرة أعشاب الأرملة وخُمُر العروس. كما كان معلقاً على ناميات أخرى قصور كريستالية ومهود وخوذ حربية وأكاليل تذكارية وشوارب وكعكات عرس ومدافع وأشجار عيد الميلاد وتلسكوبات ووحوش منقرضة وكرات وخرائط وفيلة وأدوات خاصة بالرياضيات... وكلها محمولة ومدعومة كأنها درع هائل على الجانب الأيمن لتمثال امرأة ألبس رداء أبيض واسعاً. على الجانب الأيسر من تمثال لسيد بدين يرتدي عباءة وبنطالاً واسعاً. كان تنافر الأشياء والعلاقة بين المرتدي للملابس الكاملة والمستور جزئياً، وبهرجة الألوان المتنوعة وتموضعها على نحو أشبه بالنسيج المربّع قد أحزن أورلندو وأصابها برعب شديد العمق. لم يسبق لها أن رأت من قبل أي شيء شديد البذاءة والبشاعة وتذكارياً إلى ذلك. قد يكون، ولا بدّ من ذلك، هو تأثير الشمس على الهواء المحمل بالماء. سيتلاشى مع أول نسيم يهب. ولكنه بدا رغم كل شيء، وكأنه سيدوم إلى الأبد.

شعرت وهي تستند إلى مقعد عربتها أن لا شيء، لا الريح ولا المطر ولا الشمس ولا الرعد يمكنها أن تدمر ذلك النصب المبهرج. الأشياء التي تشبه الأنوف فحسب ستلون بألوان مختلفة والأبواق ستصدأ؛ ولكنها ستبقى وهي تشير إلى جهة الشرق والغرب والجنوب والشمال، إلى الأبد. نظرت إلى الخلف بينما راحت عربتها تصعد تلة "كونستيتيوشن هيل". أجل، هاهي هناك، ما زالت تشع بهدوء في نور كان بالطبع- وهنا أخرجت ساعتها من جيبها- هو نور الساعة الثانية عشرة في منتصف النهار. لا يمكن لأحد آخر أن يكون إلى ذلك الحد مبتذلاً وعادياً وغير متأثر بأي علامة من علائم الفجر أو الغروب، والتي تبدو كأنها ستدوم إلى الأبد على ما يبدو. كانت مصممة على ألا تنظر مجدداً. لقد سبق لها وشعرت بتيارات دمها وهي تجري بكسل. ولكن ما كان أكثر غرابة أن توردا حيوياً وفريداً، انتشر فوق الوجنتين بينما راحت تمر أمام قصر بكينغهام، وأجبرت عيناها بواسطة قوة فائقة على النظر إلى الأسفل إلى ركبتيها. وفجأة رأت بإجفالة أنها كانت ترتدي بنطالاً أسود يحزم عند الركبتين. ولكن وجنتيها بقيتا تتوردان حتى وصلت إلى منزلها الريفي الذي سيؤخذ كدليل على طهارتها إذا أخذنا في الاعتبار الوقت الذي تستغرقه أربعة جياد وهي تقطع خبباً مسافة ثلاثين ميلاً.

ما أن وصلت إلى هناك، حتى قامت بما أصبح الآن أكثر حاجات طبيعتها تصلفاً، ولفّت نفسها بقدر ما استطاعت بلحاف من الدمقس المطرز انتزعته من فوق سريرها. شرحت للأرملة بارثولوميو (التي خلفت السيدة غريمسديتش العجوز الطيبة كمدبرة منزل) أنها تشعر بالقشعريرة.

قالت الأرملة وهي تتنهد بعمق: "نحن نشعر جميعاً بذلك." ثم

استأنفت بلا مبالاة غريبة وحزينة: "الجدران تتعرق". وبكا تأكيد، فكل ما كان عليها فعله هو أن تمد يدها إلى ألواح خشب السنديان حتى تترك أصابعها آثارها عليها. كان اللبلاب قد نما إلى حد كثيف جداً حتى أن الكثير من النوافذ كانت قد سدّت. كان المطبخ شديد العتمة حتى أنه كان من الصعب تمييز إبريق من مصفاة. حتى أنهم ظنوا قطة سوداء مسكينة على أنها فحم ورميت في الموقد المشتعل. ارتدت معظم الخادمات ثلاث أو أربع تنانير من الفانيلا رغم أن الشهر هو آب (أغسطس).

سألت المرأة الطيبة وهي تعانق نفسها، بينما يتحرك الصليب الذهبي بثقل على صدرها: "هل صحيح يا سيدتي أن الملكة، باركها الله، تلبس ما تسمونه بـ..." وهنا ترددت المرأة الطيبة وتورد وجهها.

"كرينولاين" (تنورة داخلية صلبة)، هذا ما قالته أورلندو لتساعدها على قول ما تريده (فقد كانت هذه العبارة قد وصلت إلى بلاكفرايرز). أومأت السيدة بارثولوميو برأسها. كا قد سبق للدموع وراحت تنهمر على وجنتيها، ولكنها كانت تبتسم وهي تبكي. فقد كان البكاء أمراً ساراً. ألم يكنّ جميعاً نساء ضعيفات؟ ولكن أليس ارتداء الكرينولاين هو الأفضل لإخفاء الحقيقة؛ الحقيقة العظيمة، إنما الحقيقة البائسة التي تبذل كل امرأة محتشمة جهدها لإنكارها حتى يصبح الإنكار مستحيلاً؛ حقيقة أنها على وشك أن تلد طفلاً؟ أن تلد خمسة عشر أو عشرين طفلاً بالفعل، حتى أن معظم حياة النساء المتواضعات كان يُنفق في إنكار ما كان واضحاً ولو ليوم واحد على الأقل في العام.

قالت السيدة بارثولوميو وهي تمسح دموعها: "المَفين ما يزال

ساخناً في غرفة المكتبة."

جلست أورلنـدو الآن وهي تلف نفسها بلحاف الدمقس لتتناول طبقاً من المفين.

" المفين ما يزال ساخناً في غرفة المكتبة"... تلفظت أورلندو بهذه الجملة بلهجة الكوكني الخشنة مثلمـا نطقت بها السيدة بارثولوميو، بينمـا راحت تشرب السائل الرقيق: الشـاي. في هذه الغرفة بالذات، كما تذكرت، وقفت الملكة إليزابيث مفرشخة فوق المدفأة وهي تحمل في يدهـا إبريـق الجعة الذي سرعان مـا حطمته فوق المائـدة حين قام "اللورد بيرغلي" دون كياسة باستخدام صيغة الأمر بدلاً عن الشرط. ما تزال أورلندو قادرة علـى سماعها تقول: "أيها الرجل الصغير، أيها الرجـل الصغير، هل يمكن مخاطبـة أميرة بكلمة (يجـب)؟" ثم هوى الإبريق فوق المائدة: ما تزال آثاره موجودة حتى الآن.

ولكـن حين قفزت أورلندو واقفة، كمـا أمرها مجرد التفكير بتلك الملكة العظيمة، تعثرت باللحاف وعادت لتسقط في كنبتها وهي تتلفظ بلعنـة. غداً سيكون عليها أن تشتري عشرين يـاردة أو أكثر من قماش البومبازين الأسود، كما فكرت، لصنع تنورة. ثم (وهنا تورّد وجهها) سيكون عيها شراء كرينولاين، ومن ثم (وهنا تورد وجهها مجدداً) شراء مهد، ثم كرينولاين أخرى، وهكذا دواليك... كانت توردات الوجه تأتـي وتمضي مع تكرار حاد جداً ولا يمكن تخيّلـه للاحتشام والعار. يمكـن للمرء أن يرى روح العصر وهي تهـبّ، حارة ذات مرة وباردة مرة أخرى، على وجنتيها. ولو كانت روح العصر تهبّ على نحو غير متسـاو قليلاً، فـإن الكرينولاين التي تثير تـورد الوجنتين أمام الزوج، كمـا أن على وضعها الملتبس يجب أن يعذرها (فحتى جنسها ما يزال

موضع خلاف) وكذلك الحياة التي سبق لها وعاشتها.

أخيراً، استأنف لون وجنتيها استقراره وبدا وكأن روح العصر- لو كان الأمر كذلك فعلاً- قد هجعت لبعض الوقت. ثم تحسّست أورلندو صدر ثوبها وكأنها تبحث عن قلادة أو تذكار لحبّ ضائع، و لم تخرج شيئاً كهذا بل لفافة ورق ترك البحر عليها بقعاً وكذلك الدم والسفريات ... إنها مخطوطة قصيدتها "شجرة السنديان". لقد حملتها معها منذ سنين عديدة حتى الآن، وقد حدث خلال ظروف خطرة أن تبقّعت صفحات كثيرة منها، كما تمزق البعض منها، بينما جعلتها حالة الافتقار إلى الورق خلال وجودها مع الغجر تضطر إلى ملء الهوامش والكتابة بين السطور والحذف حتى بدت المخطوطة كثوب مرقّع صُنع بضمير حيّ إلى أقصى حد. فتحت الصفحة الأولى وقرأت التاريخ (١٥٨٦) مكتوباً بخط يدها الصبياني. لقد كانت تنقح في هذه القصيدة منذ ثلاثمائة عام. لقد آن أوان وضع خاتمة لها. في هذه الأثناء بدأت تقلّب وتغمس وتقرأ وتشطح وتفكر وهي تقرأ، لكم كان التغيير الذي طرأ عليها كل هذه السنوات ضئيلاً. كانت صبياً كئيباً، يعشق الموت، كما هو شأن الصبيان. ثم أضحت عاشقة ومفرطة في التنمّق؛ ومن ثم أصبحت مليئة بالحيوية وتهكمية. وأحياناً، جربت كتابة النثر وكذلك الدراما. ومع ذلك وعبر هذه التبدلات كافة، فقد بقيت، كما راحت تفكر، هي ذاتها جوهرياً. لها المزاج المطيل التفكير والمتأمل نفسه، ولها الحب نفسه للحيوانات والطبيعة، والشغف نفسه بالريف والفصول.

فكرت وهي تنهض وتتجه نحو النافذة: "على أي حال، لم يتغير أي شيء." المنزل والحديقة ما يزالان كما كانا. لم يتم تحريك ولا كرسي واحد كما لم يُبع أي غرض من الأغراض. هاهي الجدران

نفسها والمرجات نفسها والأشجار نفسها والبركة نفسها وفيها على ما أعتقد سمك الشبوط نفسه. صحيح أن الملكة فيكتوريا هي من تجلس على العرش وليس الملكة إليزابيث، ولكن ما الفرق..."

ما أن تشكلت الفكرة، وكأنما لانتقادها، فُتح الباب على اتساعه ودخل "باسكِت" كبير الخدم، تتبعه بارثولوميو مدبرة المنزل، ليرفعا أدوات الشايِ. انزعجت أورلندو، التي كانت قد غمست للتو قلمها في الدواة وعلى وشك أن تكتب بعض التأملات في خلود كل شيء، إلى حد كبير، بسبب بقعة أعاقتها وانتشرت وتوسعت من حول قلمها. كان ذلك بسبب عيب ما في الريشة، كما افترضت. لقد انشقت إلى نصفين أو كانت متسخة. غمستها مجدداً. اتسعت البقعة. حاولت متابعة ما كانت تكتبه، ولكن لم تخرج أي كلمات. ثم بدأت تزين البقعة بأجنحة وشوارب حتى أصبحت وحشاً مستدير الرأس، شيئاً يتراوح ما بين وطواط وامرأة. أما ما يخص كتابة الشعر مع وجود باسكت وبارثولوميو في الغرفة، فقد كان أمراً مستحيلاً. ما أن تلفظت بكلمة "مستحيل"، حتى بدأ القلم، ويا لدهشتها وفزعها ينحني ويستدير نصف استدارة شمالاً ويميناً كالحصان، وبسلاسة هائلة. امتلأت صفحتها بأجمل الخطوط الإيطالية المائلة بأتفه شعر سبق لها أن قرأته خلال حياتها:

((أنا نفسي مجرد حلقة شريرة

ضمن سلسلة الحياة المنهكة،

ولكني نطقت بكلمات فارغة،

أوه، لا تقولوا إنها هراء!

×

هل ستهمهم العذراء الشابة، حين تكون دموعها،
وحيدة تحت وميض أشعة القمر،
دموع لأجل الغائب والمحبوب...))

كتبت دون توقف بينما راحت بارثولوميو وباسكت ينخران ويئنان في أنحاء الغرفة، وهما يذكيان النار ويلتقطان المفين.

من جديد غمست قلمها في الدواة فانطلق يكتب:

((كانت قد تغيرت كثيراً، فالغيمة القرنفلية الناعمة
التي كانت تتوهج فوق وجنتها كتلك التي يعلقها المساء
فوق السماء، والتي تتوهج بلون وردي،
قد بهتت متحولة إلى شحوب، تتخللها
توردات محترقة لامعة ومشاعل القبر))

ولكن هنا، وبحركة مفاجئة سفحت الحبر فوق الصفحة وحجبتها عن عيون البشر إلى الأبد كما أملت. كانت ترتعش كلها وتشعر باضطراب في جميع أعضائها. لا يمكن تخيل شيء أكثر إثارة للاشمئزاز من الشعور بحبر يتدفق على هذا النحو في شلالات من الإلهام اللاإرادي. ما الذي حدث لها؟ هل هي الرطوبة؟ هل هي بارثولوميو؟ هل هو باسكت؟ ما هو؟ هكذا سألت. ولكن الغرفة كانت فارغة. لم يجبها أحد، ما لم يكن صوت هطول المطر على اللبلاب هو الجواب.

في هذه الأثناء، أصبحت واعية، وهي تقف عند النافذة، بوخز وذبذبة استثنائيين في كل جسدها، كأنها قد صُنعت من ألف سلك راحت أصابع ضالة تعزف عليها الموسيقى. والآن راحت أصابع

قدميهـا تخزهـا، وبالتالي نقـيّ عظامها. بـدا شعرها وكأنـه ينتصب لوحـده. راحـت ذراعاهـا تغنّيـان وترنّان كمـا تغني وتـرنّ أسلاك التلغـراف في عشريـن عاماً أو نحوهـا. ولكن كل هـذا الاهتياج بدأ أخـيراً يتركّز في يديها، ثم في يد واحدة، ثم في أصبع واحدة من تلك اليد، وأخيراً راح يقلص نفسه حتى صنع خاتماً من الحساسية المرتعشة حـول الأصبع الثانية من اليد اليسرى. وحـين رفعتها لترى سبب هذا الاهتيـاج، لم تر شيئاً... لا شيء سوى الخاتم الزمرد وحيد نوعه الذي أهدتها إياه الملكة إليزابيث. ألم يكن ذلك كافياً؟ هكذا سألت نفسها. كان ذا لمعة لا تضاهى. وكان ثمنه عشرة آلاف جنيه على الأقل. بدت الذبذبـة، بأغـرب الطرق (ولكن تذكـروا أننا نتعامل مـع بعض أكثر ظواهـر النفس البشريـة غموضاً) وكأنها تقـول كلا، ليس هذا كافياً. وزيـادة علـى ذلك راحت تتخـذ لهجة التحقيـق، وكأنهـا تسأل ما الـذي تعنيه هذه الفجوة وهذا السهو؟ حتى شعرت أورلندو المسكينة بالخجـل من الأصبـع الثانية من يدها اليسـرى دون أن تعرف السبب إطلاقـاً. قي هـذه اللحظة، دخلـت بارثولوميو لتسأل مـا هو الثوب الـذي تريد أن ترتديـه من أجل وجبة الغداء، ونظـرت أورلندو، التي كانـت حواسها قد أصبحت أنشط بكثير، إلى يد بارثولوميو اليسرى، وأدركـت فوراً ما لم تكن قد لاحظته من قبـل: كان هناك خاتم ثخين من الأصفـر المصفرّ يحيط بأصبعها الثالث بينمـا كان أصبعها الثالث هي عارياً.

قالت وهي تمد يدها لتأخذه: "دعيني أر خاتمك يا بارثولوميو".

عند ذلك، تظاهرت بارثولوميو وكأنها تعرضت لضربة في الصدر من قبل وغد ما. تراجعت نحو الخلف خطوة أو اثنتين، جمعت قبضة يدها ثـم لوحت بها بإيمـاءة مفرطة في نبلها. قالـت بجلال وتصميم

:"كلا"، وإنـه يمكن للسيـدة النبيلة أن تنظر إلى الخاتم لـو شاءت، أما مسألـة خلع خاتم زفافها من أصبعهـا، فإنه لا يمكن للأسقف ولا البابا ولا حتى الملكة فيكتوريا على عرشها أن يرغموها على فعل ذلك. كان "توماس" زوجها قد ألبسها إياه قبل خمسة وعشرين عاماً وستة أشهر وثلاثـة أسابيع؛ وهي لا تخلعه عنـد النوم ولا عند العمل ولا الغسيل. كما أنها أوصت أن تدفن وهي تلبسه. في الواقع فهمت أورلندو منها مـا تريد قوله، ولكن صوتها كان متقطعاً بسبب الانفعال، إذ قالت إنه بواسطـة الوميض الـذي لخاتمها ستعرف الملائكة أيـن منزلتها كما أن بريقه سيزول إلى الأبد لو خلعته من أصبعها ولو لثانية واحدة.

قالـت أورلنـدو وهي تقـف عند النافـذة وتراقـب الحمائم وهي تعبـث فيما بينها: "فلتساعدنا السماء. يا لـه من عالم هذا الذي نعيش فيـه! يا لـه من عالم عجيب بـكل تأكيد!" لقد حيّرتهـا تعقيداته. لقد بـدا لهـا الآن أن العالم كله كان محاطاً بالذهـب. دخلت لتناول وجبة الغداء. كان المكان زاخراً بخواتم الزفاف. ذهبت إلى الكنيسة. كانت خواتم الزفاف في كل مـكان. مضت بعربتها. كان الذهب، والمعادن الرخيصـة المطلية بالذهب، النحيلة منها والثخينة، البسيطة والصقيلة، تلتمـع كلها كامـدة على كل يد. كانت الخواتم تمـلأ دكاكين الصاغة، ليست تلك البراقة اللامعة والماسـات التي تتذكرها أورلندو، بل مجرد خـواتم بسيطة دون حجر كريم عليها. في الوقت نفسه، بدأت تلاحظ عـادة جديدة بين سكان المدينة. في الأيـام الغابرة كان يمكن للمرء أن يقابـل فتى يعبث مع فتاة تحت سياج شجـيرات الزعرور البري مرات عديـدة. كانت من عادة أورلندو أن تمس بخفة الكثير من الأزواج من المارة برأس سوطها وتضحـك وتتابع السير. والآن تغير هذا كله. بدأ الأزواج يسـيرون بتثاقل وبطء في منتصف الطريق وقد تماسكوا بقوة.

كانت اليد اليمنى للمرأة تتمسك باليد اليسرى للرجل وبشدة. و لم يكونا ليتحركا من مكانهما غالباً حتى يكون خطم الحصان فوقهما، ومن ثم ورغم أنهما يتحركان، فقد كانا ينتقلان، كأنهما جسد واحد، إلى جانب الطريق وبتثاقل.

لم تستطع أورلندو سوى أن تفترض أن اكتشافاً جديداً ما قد تمّ فيما يخص الجنس البشري؛ وأن هؤلاء الأزواج يولدون ملتصقين، زوجاً في إثر آخر؛ ولكن من حقق ذلك الاكتشاف، ومتى؟ لم تستطع أن تحزر. لم يبد لها أن الطبيعة هي من حققت ذلك. نظرت إلى الحمائم والأرانب والكلاب النرويجية و لم تستطع أن ترى أن الطبيعة قد غيرت أساليبها معها أو أنها حسّنتها، منذ عهد إليزابيث على الأقل. لم يكن هناك أي اتحاد لا فكاك منه بين البهائم التي كانت قادرة على رؤيتها. هل هو عهد الملكة فيكتوريا إذاً أو اللورد ملبورن؟ هل انطلق منهما الاكتشاف العظيم أي الزواج؟ ومع ذلك فإنه يقال إن الملكة، كما راحت تفكر، مولعة بالكلاب، واللورد ملبورن، كما انتهى إلى سمعها، كان مولعاً بالنساء. كان أمراً غريباً... وكان كريهاً. بالفعل كان هناك شيء ما في اتحاد الأجساد الذي كان يثير اشمئزازها حسب حس الاحتشام والصحة العامة لديها. وقد ترافقت تأملاتها على أي حال مع تنميل ووخز في أصبعها المصاب حتى أنها لم تكن قادرة على إبقاء أفكارها منتظمة. كانت أفكارها تصاب بالوهن كأنها خيالات خادمة منزل. جعلتها تحمر خجلاً. لم يكن هناك من حلّ سوى شراء واحد من تلك الأربطة القبيحة واستعمالها كما يفعل الآخرون. وقد فعلت ذلك، فوضعته فوق أسبعها وقد طغى عليها الخجل تحت ظل ستارة. ولكن عبثاً. استمر التنميل على نحو أشد وأكثر إثارة للغضب. لم يغمض لها جفن في تلك الليلة. في صباح اليوم التالي

تناولت القلم لتكتب به، ولكنها إما أنها لم تستطع التفكير بأي شيء، وراح القلـم يرسم بقعـاً كثيبة كبيرة الواحدة إثر الأخـرى، أو يتباطأ، علـى نحو أكثر إثارة للغضب، ليرسم تدفقات جميلة عن الموت المبكر وفسـاد الأجساد، وكانت أسوأ من عـدم التفكير على الإطلاق. فقد كان يبدو- كمـا تبين من وضعها- أننا نكتب ليس بالأصابع ولكن بالشخص كله. العصب الذي يتحكم بالقلم يلف نفسه من حول كل ليف من ألياف كياننا، ويلضم القلب كالإبرة ويثقب الكبد. ورغم أن موضـع ألمها كان اليد اليسرى على مـا يبدو، فقد كانت تشعر بنفسها وقد تغلغل السم في أعضائها، وأنها مضطرة أخيراً للأخذ في الحسبان أكثر العلاجـات يأساً، ألا وهـو الاستسلام تماماً والخنـوع أمام روح العصر والزواج.

كان أمـراً جلياً إلى حد كاف أن هـذا كان مخالفاً لمزاجها الطبيعي. وحـين خفت حتى تلاشى صوت عجلات عربـة الأرشدوق، كانت الصرخـة التـي نطقت بهـا شفتاها هي: "حيـاة! عاشـق! ليس حياة! زوج!" وكانـت قد ذهبت إلى المدينة وقامت بمغامراتها في ذلك العالم لهذا الغرض، كما تحدثنـا في الفصل السابق. هذه هي الطبيعة التي لا تُقهر للعصر، على أي حال، أي أنها تهزم أي شخص يحاول أن يقف ضدهـا على نحو أكثر فعالية من أولئك الذيـن يلوون طريقها. كانت أورلنـدو قد مالت على نحو طبيعي إلى روح العصر الإليزابيثي وروح عصـر العودة وروح القرن الثامن عشر، وبالتالي فهي لم تكن واعية إلا بالـكاد بالتغيير الحاصل من عصر إلى آخر. ولكـن روح القرن التاسع عشر كانت كريهة في نظرها إلى أبعد حد، وهكذا أخذتها وحطمتها، وكانـت هـي مدركة لهزيمتها مـن قبلها كما لم يسبق لهـا أن هزمت. فمن المرجـح أن الروح البشرية لها مكانهـا في الزمان المخصص لها.

البعض يولدون في هذا العصر وآخرون في ذاك. والآن بما أن أورلندو قد أصبحت امرأة في سن لا تزيد عن الثلاثين سوى بعام أو عامين، فإن صفاتها الشخصية كانت قد ترسخت، وكان أمراً لا يُحتمل أن تُلوى بالاتجاه الخطأ.

وهكذا وقفت بحزن عند شباك غرفة الاستقبال (كما أسمت بارثولوميو غرفة المكتبة) وقد أثقل عليها وزن التنورة الصلبة التي ارتدتها طوعاً. كانت أثقل وأكثر مدعاة للكآبة من أي ثوب سبق لها أن ارتدته. لم تعرف من قبل لباساً يعيق حركاتها إلى هذا الحد. لم تعد قادرة على السير بخطوات واسعة في الحديقة مع كلابها، أو أن تركض بخفة إلى الرابية العالية وترمي بنفسها تحت شجرة السنديان. كانت تنانيرها تلتقط أوراق الشجر الرطبة والقش المبلل. كانت القبعة ذات الريشة تتقاذفها الريح. كما كان الحذاء النحيل يتغطى بالطين الذي يجف فوقه بسرعة. كانت عضلاتها قد فقدت مرونتها. أصبحت قلقة من وجود لصوص خلف الجدران وتخاف، لأول مرة في حياتها، من الأشباح في الممرات. جعلتها كل هذه الأشياء تميل تدريجياً إلى الاستسلام أمام الاكتشاف الجديد، سواء كان يخص الملكة فيكتوريا أو غيرها، بأن كل رجل وكل امرأة مخصص له أو لها شخص آخر مدى الحياة، وعليه أو عليها أن يعيله أو تعيله وأن يُعال أو تُعال من قبله حتى يفرقهما الموت. سيكون أمراً مريحاً، كما أحست، أن تنحني وتجلس وتتمدد وألا تنهض مجدداً إطلاقاً. هكذا فعلت بها الروح الجديدة، رغم كل كبريائها السابقة. وبينما راحت تتنازل عاطفياً حتى وصلت إلى هذا المأوى المتواضع وغير المعتاد، فإن تلك الوخزات والتنميلات التي كانت شديدة الانتقاد، وكانت مصاغة على نحو استنطاقي لتكون ألحاناً أعذب، حتى بدا لها وكأن الملائكة كانت تنقر على

أوتار القيثارة بأصابـع بيضاء بينما يسيطر على كيانها كله تآلف ألحان ملائكية عليا.

ولكـن ما الذي كانـت تتكل عليه؟ طرحت ذلـك السؤال المتعلق برياح الخريـف الجامحة. فقد كان الشهر هو تشريـن الأول (أكتوبر)، وكان ماطـراً كالعادة. ليس الأرشدوق. لقد تـزوج سيدة عالية المقام وهاهـو يقوم بصيـد الأرانـب البريـة في رومانيا منذ سنـوات كثيرة وحتـى الآن. ولا "السيـد م.م."، فقـد اعتنق المذهـب الكاثوليكي. ولا "الماركيـز سي..." فهاهو يصنع الأكياس في "بوتاني باي". ولا حتـى "اللورد أو..." فقد التهمته الأسماك منذ فترة طويلة. بطريقة ما أو بأخـرى كان جميع أصدقائها الحميمـين القدماء قد رحلوا، أما آل "نِل" وآل "كيت" من شارع "دروري لين"، فرغم استحسانها الكبير لهم، إلا أنها لا تستطيع إلا بالكاد الاتكال عليهم.

سألت وهي تلقـي نظرة على الغيوم المتقلبـة، وقد تمسكت بحافة النافـذة وهي تنحني من فوقها وتبدو كمثال حـيّ على الأنوثة الفتانة وهي تفعل ذلك: "على من أستطيع الاتكال؟" شكلت كلماتها نفسها بنفسها وتمسكت يداها نفسها بنفسها، لاإرادياً، كما فعل قلمها حين كتب طوعاً وحسب ما يريد. لم تكن أورلندو هي من يتكلم إنما روح العصـر. ولكن وعلى أي حال، لم يجبها أحـد. كانت الغربان تتطاير دون انتظـام بين الغيوم البنفسجية للخريف. وكان المطر قد توقف عن الهطول أخيراً وكانت هنـاك ألوان قوس قزح في السماء مما دفعها إلى أن ترتـدي قبعتها ذات الريشـة وحذاءها الصغير ذا الخيطان والخروج للتمشي قبل الغداء.

فكـرت وهي تمشي بحزن عبر الباحـة: »كل شخص– سواي – له

رفيقــه الحميم.» كانــت الغربان هناك:؛ وحتــى «كانوت» و»پپين»، رغــم أن علاقتهما الحميمــة مؤقتة، فكل واحد منهمــا كان يبدو هذا المساء وقد أضحى مع شريك. فكرت أورلندو: »بينما أنا سيدة الجميع وحيدة ودون رفيق حميم ومنفردة».

لم تكن مثل هذه الأفكار ترد على خاطرها أبداً. والآن هاهي تثقل عليها بصورة لا يمكن التخلص منها. وبدلاً عن فتح البوابة فقد نقرت بيدهــا التي كان القفاز يغطيها حتــى يفتحه البواب لها. ثم تمنت قليلاً أن تتريــث لتساعده في شيّ قطعة اللحم علــى دلو من الجمر، ولكنها لم تطلــب ذلــك لشدة خجلها. وهكــذا خرجت إلى المنتــزه وحيدة، وترددت في البداية لئلا يراها بعض الصيادين غير المرخصين أو حراس منطقة الصيد أو حتى بعض المراسلين فيتعجبون من وجود سيدة رفيعة المقام وحيدة.

عنــد كل خطوة كانت تتطلع بعصبية مــن حولها لئلا يكون شكل ذكريّ مختبئــاً خلفَ شجيرات الوزّال أو أن بقــرة وحشية ستهاجمها بقرنيهــا لتقذف بها. ولكــن لم يكن هناك ســوى الغربان ترفرف في السمــاء. سقطت ريشــة بلون الفولاذ الأزرق مــن أحدها بين نباتات الخلنــج. كانــت تحب ريشــات الطيــور البريــة. التقطتهــا وألصقتها بقبعتهــا. داعب الهــواء روحها فانتعشت. ومع استمــرار الغربان في التــدويم والدوران من فوق رأسها راحــت الريشات تتساقط الواحدة بعــد الأخرى وهــي تومض عبر الهواء الــذي اكتسى لونــاً أرجوانياً، فراحــت تلاحقهــا، وعباءتها الطويلــة تطير من خلفهــا، عبر الأرض البــور المعشبة وصعوداً فوف التلّ. لم تكن قد قطعت تلك المسافة منذ سنوات مضت. كانت قد التقطت ست ريشات من العشب وراحت تسحبها بين أناملهــا وتضغط بها على شفتيها لتتحسس ريشها الناعم

المومض، حين رأت بركة فضيــة تلتمع على جانب التلّ، غامضة شأن البحيرة التي قذف فيها "السير بديفير" سيف "الملك آرثر". ارتعشت ريشة وحيدة في الهــواء وسقطت في منتصفها. ثم حلت نشوة غريبة فيهــا. طغت عليها فكـرة جامحة بــأن تلاحق الطيــور إلى حافة العالم وترمي بنفسها فوق التربــة البنفسجية وأن تشرب منها النسيان، بينما تروح تصغي إلى ضحك الصخور الخشن من حولها. أسرعت الخطو، عدَتْ، تعثرت. أسقطتها جذور الخلنج القوية أرضاً. كسرت كاحلها. لم تقــدر على الوقوف، بــل راحت تستلقي هنــاك راضية قانعة. كان عطــر آس المستنقع وزهر المــروج الأصفر في منخريها. وكان ضحك الغربــان المبحــوح في أذنيهــا. همهمت: "لقــد وجــدت شريكي." همست وهي تستسلم منتشية للقبل الباردة للعشب وهي تتمدد ملتفة بعباءتهــا في الحفرة القريبة من البركة: "إنها الأرضــ البور المعشبة. أنا عروس الطبيعة. سأستلقي هنــا." (سقطت ريشة على جبينها). "لقد وجــدت رنداً أكثر خضرة من الغار. سيكون جبيني بارداً على الدوام. هذه ريشات طيور برية... ريشات البوم وطائر السبد. سأرى أحلاماً جامحــة. لن تحمل يداي أي خاتم زفــاف." هكذا تابعت كلامها وهي تخلــع خاتمها من أصبعهــا. "ستلتف الجذور من حولهــا. آه!" هكذا تنهدت وهــي تضغــط برأسها بترف علــى وسادته الرطبــة والطرية. "لقد سعيت إلى السعادة عبر كثير من العصور و لم أجدها. سعيت إلى الشهــرة وفاتتني. سعيت إلى الحــب و لم أعرفه. سعيت إلى الحياة... يا للعجب... الموت أفضل منها. لقد عرفت الكثير من الرجال والنساء، و لم أفهم أياً منهــم. الأفضل لي أن أستلقي بسلام هنا والسماء وحدها فوقــي... كما قال لي ذلك الغجري قبل سنوات عديدة. كان ذلك في تركيا." ورفعت نظرهــا عالياً ومباشرة نحو الزبد الذهبي الرائع الذي مخضته الغيوم نفسها، وشاهدت في اللحظة التالية طريقاً فيها، ثم رأت

جمالاً تمر عبره في رتل أحادي عبر الصحراء الصخرية بين غيوم من غبار أحمر. ثم، حين مرت الجمال، لم يتبق سوى الجبال، سامقة جداً ومليئة بالصدوع وقمم صخرية ، ثم تخيلت أنها سمعت صوت أجراس الماعز وهي ترنّ في ممراتها، وفي طياتها كانت حقول السوسن وكف الذئب . وهكذا تغيرت السماء وراحت عيناها تهبطان ببطء حتى وصلتا إلى الأرض التي جعلها المطر داكنة اللون، وشاهدت الأكمة العظيمة لجبال "ساوث داونز"، وهي تتدفق في موجة واحدة على امتداد الشاطئ. وحيث افترقت الأرض كان هناك البحر، البحر بسفنه التي تمخر عبره. ثم تخيلت أنها سمعت صوت مدفع بعيد آتياً من البحر، وقد فكرت أولاً: "هذا هو الأرمادا"، ثم فكرت: "كلا، إنه نلسون"، ثم تذكرت كيف أن تلك الحروب قد ولت وأن السفن كانت سفناً تجارية ومشغولة. أما الأشرعة على النهر المتعرج فكانت لزوارق المتعة. كما شاهدت أيضاً قطعان الماشية المتناثرة على الحقول الداكنة اللون، غنم وبقر، وشاهدت الأنوار التي بدأت تبرز هنا وهناك في نوافذ بيوت المزارع، وقناديل تتحرك بين القطعان بينما يقوم رعاة الغنم ورعاة البقر بجولاتهم. ثم انطفأت الأنوار وبزغت النجوم واشتبكت بعضها ببعض في السماء. وبالفعل، كانت تغرق في النوم وريشات رطبة فوق وجهها بينما كانت أذنها تضغط على الأرض حين سمعت ، في مكان عميق في الأسفل، صوت مطرقة ما على وتد، أو هل كان ذلك صوت ضربات القلب؟ تيك توك، تيك توك، هكذا راحت المطرقة تضرب، هكذا راحت تضرب الوتد أو القلب في منتصف الأرض؛ حتى ظنت، وهي تصغي، أنه تغير إلى وقع حوافر حصان. راحت تعدّ: واحد اثنان ثلاثة أربعة. ثم سمعت صوت كبوة. ثم وبينما راح يقترب أكثر فأكثر، استطاعت أن تسمع طقطقة انكسار غصن وصوت امتصاص الحوافر لماء المستنقع. كاد الحصان أن

يقـف فوقها. جلست منتصبة. شاهدت رجلاً على ظهر الحصان وهو يبـدو داكناً أمام السماء الصفراء الخطوط للفجر، وطيور الزقزاق تعلو وتنخفض من حوله. أجفل الرجل. توقف الحصان.

صاح الرجل وهو يقفز نحو الأرض: "سيدتي، هل تأذيت؟"

أجابت: "أنا ميتة يا سيدي!"

×

بعد دقائق قليلة كانا قد أصبحا مخطوبين.

×

في صباح اليوم التالي، وبينمـا كانا جالسين لتناول طعام الإفطار، ذكر لها اسمه. كان "مارمديوك بونثروب شلمرداين، فارس.

قالت: "لقـد عرفت ذلـك!" فقد كان هنـاك شيء مـا رومانسي وشهـم وعاطفي وحزين إنما مصمم من حوله مما كان يتلاءم مع الاسم الوحشي ذي الوميض الفولاذي الأزرق لأجنحة الغربان، والضحكة المبحوحـة لنعيبها، والهبوط المتلوي الأشبه بحركة الأفاعي لريشها في بركة فضية وألف شيء آخر سيوصف عما قريب.

قالت: "اسمـي أورلندو." كان قد خمن ذلك. شرح لها: لو رأيت سفينة رفعت أشرعتها وانطلقت مبحرة بكل سرعتها وهي قادمة بفخر والشمـس فوقها، تجتاح البحـر الأبيض المتوسط مـن البحار الجنوبية لقال المرء على الفور: "أورلندو".

في الواقـع، ورغم أن تعارفهما كان قصير الأجل جداً، فقد خمّنا، كما يحدث دائماً بين العشاق، كل شيء له أي أهمية يتعلق بأي منهما

خلال ثانيتين على الأكثر، و لم يتبق الآن سوى ملء مثل تلك التفاصيل غير الهامة، مثلاً ما هي أسماؤهما وأين يسكنان وهل هما من الشحاذين أم من أصحاب الثروة. كان لديه قلعة في جزر "هبريديز" ، ولكنها مهدمة، كما أنبأها. كانت طيور الأطيش البحرية تو لم لنفسها في قاعة الولائم. كان جندياً وبحاراً، وقد عمل في استكشاف "الشرق". وكان في طريقه الآن إلى سفينته في ميناء فالموث، ولكن الريح اشتدت ولن يستطيع الإبحار حتى تهب الريح من الغرب. نظرت أورلندو بسرعة من نافذة غرفة الإفطار إلى الفهد المذهّب على دوارة الريح. ولحسن الحظ كان ذيله يشير إلى جهة الشرق وكان ثابتاً كصخرة. صرخت: "أوه! شل، لا تتركني! أنا أحبك بقوة". ما أن غادرت هذه الكلمات فمها حتى اندفع شك رهيب في ذهنيهما معاً وفي آن واحد.

صرخت هي: "أنت امرأة يا شل!"

صرخ هو: "أنت رجل يا أورلندو!"

لم يسبق أن حدث مثل هذا المشهد من الاحتجاج والتظاهر منذ بداية الكون. عندما انتهى وجلسا مجدداً، سألته عما كان يقصده بحديثه حول الريح الجنوبية الغربية؟ أين كان سيمضي؟

قال باختصار ثم تضرجت وجنتاه خجلاً: "إلى رأس القرن". (فعلى الرجل أن يحمر وجهه خجلاً كما هو شأن المرأة، ولكن لأسباب مختلفة). وهكذا استطاعت أن تعرف بعد ضغوط عظيمة مارستها عليه وبالحدس أن حياته قد أنفقت في مغامرات شديدة التهور والروعة... أي الإبحار من حول رأس القرن خلال العاصفة. لقد تحطمت الصواري وتمزقت الأشرعة متحولة إلى شرائط (كان

عليها أن تجبره على الاعتراف). وأحياناً كانت السفينة تغرق وكان هو الناجي الوحيد على طوف خشبي مع قطعة بسكويت واحدة.

قال بارتباك وهو يلتهم ملء ملاعق كبيرة من مربى الفريز: "هذا كل ما يستطيع المرء فعله في هذه الأيام. كانت الرؤيا التي رأتها في تلك اللحظة عن ذلك الصبي (فقد كان لا أكبر من صبي إلا قليلاً) وهو يمتص أقراص النعناع التي كان يحبها كثيراً، بينما انكسر الصاري وراحت النجوم تدوّم، فراح يصرخ بأوامر موجزة بأن يرموا بذاك إلى البحر وأن يلقوا بذاك من فوق متن السفينة؛ مما جعل الدموع تغمر عينيها، ولكنها لاحظت أنها كانت دموعاً ذات نكهة أطيب من أي نكهة سبق لها أن عرفتها. فكرت: "أنا امرأة، امرأة حقيقية أخيراً". شكرت بونثروب من أعماق قلبها لأنه منحها هذه المتعة النادرة وغير المتوقعة. لو لم تكن قدمها اليسرى عرجاء، لكانت قد جلست على ركبته.

بدأت تخاطبه مجدداً: "شل يا حبيبي، قل لي..." وهكذا تبادلا الحديث لساعتين أو أكثر، ربما حول رأس القرن، وربما ليس كذلك. وفي الحقيقة لن نستفيد كثيراً من تدوين ما قالاه، فقد كانا يعرفان واحدهما الآخر جيداً حتى أنهما كانا يستطيعان قول أي شيء هو بمثابة قول لا شيء، أو قول أشياء تافهة وغبية حول كيفية طبخ عجة البيض ومن أين تشترى أفضل الأحذية في لندن، أشياء لا رونق فيها لو أبعدت عن موقعها الأصلي، ولكنها مع ذلك ذات جمال مذهل في داخلها. فقد جرى بموجب الاقتصاد الحكيم للطبيعة، أن روحنا المعاصرة يمكن أن تستغني تقريباً عن اللغة؛ فالتعابير الأكثر ابتذالاً تقوم بفعلها حيث لا تقوم بهذا الفعل أي تعابير. وبناء عليه، فإن أكثر المحادثات عادية غالباً ما تكون شعرية، وأكثرها شاعرية هي بالضبط

تلـك التي لا يمكن تدوينها. لهذه الأسباب نترك فراغاً كبيراً هنا، وهو ما يجب أن يُفهم على أنه يشير إلى أن الفراغ قد مُلئ حتى الإشباع.

بعد بضعة أيام أخرى من هذا النوع من الحوار.

"أورلنـدو، يا أعز الناس"، هكذا كان شِل قد بـدأ الكلام حين سمع صوت شجـار في الخارج، ودخل باسكَت كبير الخدم ليبلغ عن وجود شرطيين في الطابق الأرضي يحملان مذكرة من الملكة.

قال شلمرداين بإيجاز: "فليصعدا إلى هنا"، وكأنه كان جالساً على سطـح مؤخـر سفينته، واتخـذ وضعية الوقوف ويداه مـن خلفه أمام المدفأة. دخل شرطيان ببزتين خضراوين غامقتين مع هراوتين قصيرتين معلقتين على كفليهما، ووقفا في حالة استعداد. وبعد انتهاء الشكليات الرسميـة، سلمـوا أورلندو يداً بيد، كما نصت عليـه مهمتهما، وثيقة قانونيـة هامة، هـذا إذا مـا أخذنا في الاعتبـار كميـة الشمع الختمي والشرائط والقسم والتواقيع، وكانت كلها شديدة الأهمية.

قرأته أورلندو بصمت، ثم وباستخدام خنصر يدها اليمنى كمؤشر، قامت بتلاوة الحقائق التالية على أنها ذات صلة بالمسألة:

"لقـد تم التوصل إلى قرار نهائـي فيما يخص القضايا القانونية... البعضـ في صالحي، مثلاً ... وأخرى ليســت كذلك. الزواج التركي تم إلغـاؤه"... شرحـت لـه: (كنتُ سفـيراً في القسطنطينيـة يا شل). "تقـرر اعتبار الأطفـال غير شرعيين" (قيل إني أنجبـت ثلاثة أبناء من بيبيتـا، وهي راقصة إسبانية). "إذاً لن يرثـوا، وهذا أفضل... الجنس؟

آه، مــاذا عن الجنس؟ جنسي أنا". تلــت ببعض الوقار "لقد تقرر على نحــو لا يقبل الجدل ودون أدنى شك، (ما الــذي كنت أقوله لك قبل دقيقة من الآن يا شل؟) أني أنثى. الأملاك التي رفع الحجز عنها بشكل دائــم، وهي مخصصة للورثــة الذكور من بني جلدتي، أو في حال عدم الزواج»... ولكنها فقدت صبرها هنا، بسبب هذا الإسهاب القانوني وقالت: »ولكــن لن يكون هناك عدم زواج ولا ورثة أيضاً، لذا فالبقية يمكن أن تُفهم كما تُقرأ». وعندها وقعت تحت توقيع اللورد بالمرستون، وعــادت منذ تلك اللحظــة إلى التمتع بألقابهــا ومنزلها وعقاراتها... والتي كانت قد تقلصــت الآن كثيراً حيث أن كلفة الدعاوى القانونية كانــت باهظة، ورغم أنها عادت لتكــون واحدة من طبقة النبلاء دون حدود الآن، إلا أنها أصبحت فقيرة جداً.

حين عرفت نتائــج الدعوى القضائية (وطارت الشائعة بأسرع من التلغراف الذي حل محلها)، امتلأت المدينة بالاحتفالات.

وضعــت الجياد أمام العربات لغرض وحيد هو إخراجها إلى الهواء الطلــق. راحــت المركبات الخفيفــة والعربــة ذات العجــلات الأربع الفارغة تذرع شــارع "هاي ستريت" دون توقف. راحت الخطابات تُقرأ من "ذا بول" the Bull . كانت الردود تأتي من the Stag. أنيرت المدينة. وضعت علب الجواهــر والذهب في صناديق زجاجية محكمة الإغــلاق. خبئت النقود تحت الحجر. أنشئت المشافي. دُشنت نوادي "الجرذ والسنونو". أحرقت تماثيل لنساء تركيات بالعشرات في ساحة السوق، مع عشرات من صبية القرويين مع رقعة كتب عليها "أنا مدع حقير" تتدلى من أفواههم. سرعان ما شوهدت مهور الملكة ذات اللون الأبيض وهي تمشي خبباً في الشارع مع أمر لأورلندو بأن تتعشى وتنام في "القلعــة" في تلك الليلة بالــذات. كانت منضدتها، كما في مناسبة

سابقـة، قد أمطـرت بالدعوات مـن "الكونتيسـة آر..." و"الليدي كيـو" و"الليـدي بالمرستون" و"الماركيـزة بي..." والسيـدة و.إي. غلادستـون" وأخريـات، وهن يطلـبن منها أن تشرفهـن بحضورها، مذكرات إياها بالحلف القديم بين أسرهنّ وأسرتها، إلخ] .... وكل هذا نضعه ضمن قوس مستقيم على نحو ملائم كما هو أعلاه، لسبب جيد هو أن الهلالين ( ) لم يكونا ذا أهمية في حياة أورلندو. لقد تجاوزتهما لتصـل إلى النص. فحين أوقدت المشعـلات في ساحة السوق، كانت هي في الغابات الداكنة مع شلمندراين وحدهما. كان الطقس جميلاً جـداً حتى أن الأشجار راحت تمدّ أغصانهـا دون حراك من فوقهما، ولـو سقطت ورقة، لسقطت وقد تبقعـت باللونين الأحمر والذهبي، ببـطء شديد حتى ليستطيع المـرء أن يراقبها لنصف ساعة وهي ترفرف وتسقط حتى تصل أخيراً إلى قدم أورلندو.

كانـت تقول: "إحكِ لي يا (مـار)" (وهنا لا بد أن نشرح أنها حين كانـت تدعوه بالمقطـع الأول من اسمه الأول، تكـون في مزاج حالم غرامـي مذعن، وكذلك أليـف ومضنى قليـلاً، كأن حطباً عطراً كان يحـترق والوقت مسـاء، ولكنه ليـس أوان ارتداء ملابـس الخروج ، والطقس ماطـر في الخارج، مما يجعل الأوراق تلتمـع، إلا أن عندليباً ربما يروح يشدو بـين نباتات الأضاليا، وهناك كلبان أو ثلاثة تنبح من مـزارع بعيدة، وديك يصيـح ... كل هذا يكون علـى القارئ تخيّله في صوتهـا)... كان مـن شأنها أن تقول: "إحك لي يـا مار عن رأس القرن." وكان شلمردراين يصنـع نموذجاً على الأرض لرأس القرن من أغصان صغيرة وأوراق ميتة وقوقعة حلزون فارغة أو اثنتين.

كان يقول: "هنـا الشمال وهنا الجنوب. تأتي الريح من هنا تقريباً. والآن تبحـر السفينة غرباً. لقد أخفضنا للتـو الصاري العلوي، وكما

ترين... هنـا حيث هذا العشـب القليل، تدخل السفينـة التيار الذي ستجدينه معلّمـاً- أين خريطتي وبوصلاتي يا عريف الملاحين؟ ... آه شكراً، هذا صحيح، حيث قوقعة الحلزون. لقد أمسك التيار بالسفينة من الجانب الأيمن، لذا علينا أن نستعمل ذراع الصاري الأمامي حيث ذلـك الجنـاح المتحرك من الـزان ، فعليك أن تفهمي يـا عزيزتي..." وهكذا سيتابع الكلام وسـوف تصغي هي لكل كلمة. كانت تفسرها بالشـكل الصحيح أي دون أن يضطـر هو إلى أن يشرح لها عن اللمعة الفوسفوريـة للأمـواج والـدلّات الجليدية تـرنّ في حبـال الأشرعة، وكيف صعد إلى أعلى الصاري خلال العاصفة: وهناك تأمل في مصير الإنسـان: ثم كيف هبط مجدداً وشـرب الويسكي مع الصودا؛ وكيف مضـى إلى الشاطئ، وهناك أسرتْه امرأة سوداء البشرة بعد أن أوقعته في شرك، وكيف تاب وتفكر في المسألة. كيف قرأ كتب "باسكال" وقرر أن يكتب في الفلسفة. وحكى كيف اشترى سعداناً وجادل في النهاية الحقيقيـة للحياة، وقـرر أن يمضـي إلى رأس القرن وهكـذا دواليك. فهمـت هذا كله وألف شيء آخر؛ لذا حين أجابت بنعم وأن الزنجيات مغويـات، أليس كذلك؟ فقد قال لها إن زوادته من البسكويت كانت قد نفدت وقد دهش وسرّ حين اكتشف كيف فهمت مغزى ما قاله.

كان يسألها بقلق: "أأنت واثقة من أنك لست رجلاً؟" وكانت ترد عليه قائلة:

"هـل من الممكن ألا تكون أنـت امرأة؟" ثم كان عليهما أن يبرهنا علـى ذلك دون الكثير مـن اللغط. فـكل منهما كان شديـد الدهشة لسرعـة تعاطـف الآخـر، وحين تبين أن امـرأة يمكـن أن تكون رحبة الصدر وطليقة اللسان كرجـل، وأن رجلاً يتمتع بغرابة المرأة ورقتها، كانا يقومان بالبرهنة على المسألة فوراً.

وهكذا كانا يتابعـان الحديث أو بالأحرى التفاهم الذي أصبح فن الخطاب الرئيسي في عصر كانت فيه الكلمات تصبح يومياً نادرة جداً بالمقارنة مع الأفكار حتى أن عبارة "كانت زوادته من البسكويت قد نفـدت" راحت تعنـي تقبيل الزنجية في العتمة. حين يقـرأ المرء فلسفة الأسقـف بيركلي للمرة العاشـرة. (ومن هنا يصح بالضـرورة أن كبار أساتذة الأسلوب يمكنهم أن يقولوا الحقيقة، وحين يستطيع المرء مقابلة كاتب بسيط يستعمل الكلمات ذات المقطع الواحد، فقد يستنتج المرء دون أدنى شك أن الرجل المسكين يكذب).

إذاً كانـا يتابعان الحوار، ثم حين تكـون قدماها قد غطتهما أوراق الخريـف المرقطـة، كانت أورلنـدو تنهض وتتمشى نحـو قلب الغابة وحيدة، وتـترك خلفها بونـثروب جالساً هناك بـين القواقع الصغيرة وهو يصنع نماذج لرأس القرن. كانت تقول: "بونثروب، أنا سأبتعد"، وحـين كانت تناديه باسمـه الثاني أي "بونـثروب"، فكان ذلك يعني للقـارئ أنها في مزاج متوحد، وتشعر أنهما كلاهما أشبه بنقطتين في صحـراء، وأنها لا ترغـب إلا بلقاء الموت بشخصهـا، فالناس يموتون يوميـاً، على موائد العشـاء، أو ما شابه، أو خـارج المنزل في الغابات الخريفيـة. ومع اتقـاد المشعلات ودعوة الليدي بالمرستـون أو الليدي ديربـي لها للخـروج إليها كل ليلة لتنـاول العشاء. كانـت الرغبة في المـوت تطغى عليها، لذا فحين تقول "بونـثروب"، فهي كانت تقول بالفعل: "أنـا ميتـة" وتروح تشـق طريقها كما قد تفعـل روح ما عبر أشجـار الزان الشاحبـة كالأشبـاح، وتتوغل عميقـاً في العزلة وكأن الخفقة الصغـيرة من الضجيج والحركة قد ولت وكانت هي حرة الآن في السـير- وكل هذا يجب أن يسمعـه القارئ في صوتها حين تقول "بونـثروب". كما يجب أن نضيف أيضاً للمزيد من إيضاح الكلمة،

أن هـذه الكلمـة نفسها كانت تعنـي بالنسبة إليه، علـى نحو باطني، الانفصـال والعزلـة وذرع متن سفينته، جيئـة وذهاباً، دون روح، في بحار لا قرار لها.

بعـد بضع ساعات من الموت، هاهـو زرياب يصيح "شلمرداين"، وهاهي تنحنـي وتلتقط واحدة من زهور الزعفـران التي تعني لبعض الناسـ تلك الكلمة بالذات، ووضعتها مع ريشة الزرياب التي هبطت زرقـاء عبر غابة الزان، في عبّها. ثـم نادت "شلمرداين" وانطلق النداء كالطلقة في هذا الاتجاه وذاك عبر الغابات وأصابه حيث كان يجلس، وهـو يصنع النمـاذج من القواقع الصغيرة في العشـب. رآها وسمعها قادمـة نحوه مع الزهرة وريشة الزرياب في عبّها، ونادى: "أورلندو"، وكان ذلـك يعني (ولا بـد أن نتذكر أنـه حين تمتزج الألـوان الفاقعة كالأزرق والأصفـر في أعيننا، فإن بعضهـا يُمرر إلى أفكارنا) أولاً تثنّي وتقلّـب السرخسـ وكأن شيئـاً كان يقوم بالاختراق؛ وقـد ثبت أنها سفينة تبحر بكامل أشرعتها منصوبة، وهي تتمايل وتتقلب قليلاً وعلى نحو حالم، وكأن أمامها عام كامل من أيام الصيف حتى تنجز رحلتها ضمنه. وهكذا فإن السفينـة تندفع فتميل في هذا الاتجاه أو ذاك، بنبل وكسـل، وتركب ذروة هذه الموجـة وتغرق في جوف تلك، ثم تقف فجـأة من فوقك (أنـت الذي تجلسـ في قوقعة حلـزون بحري كبير هو السفينـة وترفع نظرك إليها)، بينما ترتعشـ كل أشرعتها، وثم هيا وانظـر، إنها تسقط كافة على ظهـر السفينة ... كما سقطت أورلندو الآن على العشب إلى القرب منه.

وهكذا أنفقت ثمانية أو تسعة أيام على هذا المنوال، ولكن في اليوم العاشر الواقع في السادس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر)، كانت أورلنـدو تستلقي بين نباتـات السرخس، بينما يتلـو عليها شلمرداين

قصيـدة للشاعـر "شيلي" (كان يحفـظ ديوانه كله عـن ظهر قلب)، عندمـا لسعت ورقة، كانـت قد بدأت بالسقوط ببـطء، قدم أورلندو بخفـة. ثم تبعتها ورقة أخرى فثالثة. ارتجـف جسد أورلندو وشحب وجهها. كانت تلك هي الريح. قفـز شلمرداين (ولكن سيكون علينا الآن أن نسميه بونثروب) واقفاً على قدميه.

صرخ: "الريح!".

ركضـا معاً عـبر الغابات والريح تلصق بهمـا أوراق الشجر وهما يعدوان، حتى وصلا إلى الباحة الكبيرة وعبراها ثم الباحات الصغيرة، والخـدم الخائفون يرمـون بمكانسهـم ومقاليهم ليلحقـوا بهما حتى وصـلا إلى الكنيسة، وهناك أنيرت مجموعـة متناثرة من الأنوار بأسرع مـا يمكن، وهاهو أحد الخـدم يقع من فوق أحد المقاعـد وآخر يطفئ شمعـة. قرعـت الأجراس. استدعـي الناس. أخيراً هاهـو السيد دلپر يمسـك بنهايتي ياقته البيضاء ويسأل عـن مكان كتاب الصلوات. وقد أقحمـوا في يديه كتـاب الملكة ماري الخاص بالصلـوات فراح يقلب الصفحات بسرعة، ثم قال: " يا مارمديوك بونثروب شلمرداين وأيتها الليدي أورلندو، اركعا، فركعا، والآن كانا يبدوان مضاءين أو معتمين حسـب ما يأتي النور عـبر النوافذ الملونة دون انتظـام. وبين انصفاق الأبواب العديدة وصوت أشبه بالقرع علي قدور النحاس، عُزف على الأرغـن، وراح هديره يأتي عالياً وضعيفاً بالتنـاوب. أما السيد دلپر، الـذي كان عجوزاً جـداً، فحاول أن يرفع صوته فـوق هذا الضجيج ولكن لم يكن ممكناً سماعه، ثم عم الهدوء لبرهة، ورنّت كلمة واحدة بوضوح وربمـا كانت "فكي الموت"، بينما بقـي جميع خدم الضيعة يندفعـون والمدمّات والسيـاط ما تزال في أيديهـم ليصغوا، بينما راح البعض يغني بصوت مرتفع ويصلي آخرون. وهاهو الآن طائر يضرب

الزجـاج بجناحيه، ثم دوى قصـف الرعد، لذلك لم يسمع أحد كلمة "أطيعـي"، و لم يشاهد أحد الخاتم ينتقل من يد إلى يد. عمّت الحركة والفوضى. ثـم نهضا بينما الأرغن يعزف بقـوة والبرق يلعب والمطر ينهمر، بينمـا الليدي أورلندو، وخاتمها في أصبعها، تخرج إلى الباحة في ثوبهـا الرقيق، وتمسـك بالركاب المتأرجح، فقـد كان الحصان قد شكـم وألجم وما يزال الزبد على كشحـه، ليمتطيه زوجها، وقد فعل ذلك بقفزة واحدة، وقفز الحصـان إلى الأمام، بينما صرخت أورلندو الواقفة هناك: "مارمديوك بونثروب شلمردااين!" فأجابها: "أورلندو!" وراحت الكلمـات تندفع وتـدور كأنها صقور متوحشـة بين أبراج الأجراس ثم أعلى فأعلى، وأبعد فأبعد، وراحت تدوّم أسرع فأسرع، حتـى هوت وسقطت في زخات من الشظايا على الأرض. ثم دخلت هي.

الفصل السادس

دخلــت أورلنــدو إلى المنزل. كان هادئــاً تمامــاً. كان صامتاً جداً. كانت هناك الدواة: وكان هناك القلم. كانت هناك مخطوطة قصيدتها، ممزقــة في المنتصف كضربة للأبدية. كانت علــى وشك أن تقول: «لا شـــيء يتغير»، عندما قاطعتها بارثولوميــو وباسكت وهما تحضران لها عدة الشاي. وثم، خلال ثلاث ثوان ونصف، تغير كل شيء: لقد كُسر كاحلها ووقعت في شباك الغرام وتزوجت شلمردااين.

كان خاتم الزفــاف على أصبعها كبرهان على ذلــك. صحيح أنها وضعته هنــاك بنفسها قبــل لقائها بشلمرداين، ولكــن ذلك لم يفدها بشـــيء. راحت تدير الخــاتم الآن من حول أصبعهــا، بتبجيل خرافي، وهي تحرص على ألا يسقط من برجمة أصبعها.

قالــت كطفل يكرر بحــذر درسه: «ينبغي وضع خــاتم الزفاف في بنصر اليد اليسرى، هذا إن كان سيفيد إطلاقاً.»

هكذا تكلمــت، بصوت مرتفع وبلهجة أكــثر فخامة من عادتها، وكأنها تمنت لو يسمع رأيها شخص كانت ترغب في معرفة رأيه الجيد بذلك. وبالفعــل، كان في ذهنها الآن، بعــد أن أصبحت أخيراً قادرة على تجميع أفكارها، التأثير الذي سيكون لسلوكها على روح العصر. كانــت قلقة جداً لتعرف إن كانت الخطوات التــي اتخذتها في مسألة

خطبتها مـن شلمرداين وزواجها منه ستلاقي موافقته. كانت أكثر ثقة بنفسهـا الآن وبـكل تأكيد. لم يخزها أصبعها ولـو مرة واحدة، أو لم يحـدث ذلك منذ ليلتها تلـك في الأرض البور. ومـع ذلك، لم تكن قادرة على إنـكار أن لديها شكوكها. كانت متزوجة، وهذا صحيح، ولكن لـو كان زوج المرأة دائـم الإبحار من حول رأسـ القرن، فهل هـذا زواج حقاً؟ لو كانت تودّه، فهل هذا زواج؟ ولو ودّت أشخاصاً آخرين، فهل هذا زواج؟ وأخيراً، إن كان المرء ما يزال يرغب في كتابة الشعـر، أكثر من أي شيء آخر في العـالم كله، فهل هذا زواج؟ كانت لديها شكوكها.

ولكنهـا ستضعه موضـع الاختبار. نظرت إلى الخـاتم. نظرت إلى الـدواة. هل تجرؤ؟ لا، لم تكن تجرؤ. ولكن يجب عليها. كلا، إنها لا تستطيع. ما الذي عليهـا أن تفعله إذاً؟ أن يغمى عليها لو أمكن ذلك. ولكـن لم يسبق لها أن شعـرت في كل حياتها بأنها في حال أفضل من هذا.

صرخـت بشيء مـن روحهـا القديمـة: «إلى الجحيم بـكل ذلك! سأكتب!»

وهكـذا غمست قلمها عميقـاً في الـدواة. ولدهشتها العظيمة لم يحدث أي انفجار. سحبت ريشة القلم، كانت مبتلة ولكنها لا تنقط. كتبـت. تأخرت الكلمات قليـلاً في انسيابها، ولكنها أتت أخيراً. آه، ولكـن هل هناك من معنى لها؟ هكـذا تساءلت، والرعب يعتريها لئلا يكـون القلم قد راح يمارس إحدى مزحاتـه غير الإرادية عليها مجدداً. قرأت:

((ثم أتيت إلى حقل كان فيه العشب المتقافز

يميل تحت أكواب زهور حشيشة الحجل المتدلية،
كانت الزهرة الأفعوانية تبدو كئيبة وغريبة،
موشحة بلون أرجواني كالح، كما الفتيات المصريات...))

وبينما راحت تكتب، شعرت وجود طاقة ما (تذكروا أننا نتعامل هنا مع أكثر مظاهر الروح البشرية غموضاً) تقرأ من فوق كتفها، وحين كتبت «الفتيات المصريات»، أمرتها الطاقة بالتوقف. بدا على الطاقة وكأنها تقول- وهي تعود مستعملة مسطرة من النوع الذي تستعمله المربيات إلى البداية- إن «العشب» كلمة جيدة، أما «أكواب زهور حشيشة الحجل المتدلية» فمثيرة للإعجاب. «الزهرة الأفعوانية» ربما تكون فكرة قوية بالنسبة إلى قلم سيدة، ولكن (الشاعر) «ووردزويرث» سيسمح بها دون شك. ولكن «الفتيات»؟ هل الفتيات ضروريات؟ لديك زوج في رأس القرن، أليس كذلك؟ آه، حسناً، لا بأس في ذلك.

وهكذا توقفت الطاقة عن الوجود.

أدت أورلندو في الروح (فكل هذا جرى في الروح) إذعاناً عميقاً لروح عصرها، مثلاً مقارنة الأمور العظيمة بالصغيرة: كما يذعن المسافر المدرك أن لديه رزمة من السيجار في زاوية حقيبته أمام موظف الجمارك الذي يتلطف ويخربش بالطبشور الأبيض على غطاء الحقيبة. فقد كانت تشعر بشك كبير فيما إذا كانت الروح قد تفحصت محتوى ذهنها بعناية، ووجدت شيئاً محرماً إلى حد كبير وأنه سيكون عليها أن تدفع غرامة الحد الأقصى. لم تكن قد نجت إلا بالكاد. لقد تمكنت للتو بمراعاة ماهرة لروح العصر من النجاح في الامتحان وذلك بأن لبست خاتماً ووجدت رجلاً في أرض بور، وبأن أحبت الطبيعة وبكونها

ليســت متهكمة ولا كلبية أو متعلقة بعلــم النفس. ثم تنفس الصعداء، وهــي جديرة بفعل ذلك حقاً، فالصفقة بين كاتب وروح العصر تتميز بدقــة لا محدودة، وسيعتمد قدره كله على تدبير متقن بين الاثنين. لقد نظمــت أورلندو الأمر بحيث كانــت في موقف هو في غاية السعادة، فهــي ليست في حاجــة إلى مصارعــة عصرهــا ولا إلى الاستسلام له. كانت من هذا العصر، ولكنها بقيت هي نفسها. والآن بالتالي، كانت قادرة على الكتابة وقد كتبتْ بالفعل. كتبتْ. كتبتْ. كتبتْ.

XXX

كان تشريــن الثاني (نوفمــبر) قد حلّ. وبعده سيأتــي كانون الأول (ديسمــبر). ثــم سيأتي كانــون الثاني (ينايــر) وشباط (فبرايــر) وآذار (مارس) ونيسان (أبريل). وبعد نيسان سيأتــي أيار (مايو) وحزيران (يونيــو) وتموز (يوليو) وآب (أغسطس). ثــم سيأتي أيلول (سبتمبر). وبعدهــا سيأتــي تشريــن الأول (أكتوبر)، وهكذا، سنجــد أنفسنا ويا للعجب نعود إلى تشرين الثاني مجدداً، مع إتمام سنة كاملة.

هــذه الطريقة في كتابة السيرة ، رغم أنها ذات مزايا معينة، إلا أنها ربمــا تكون مجردة، وقد يتذمر القارئ، لــو تابعنا على هذا المنوال، من أنه يستطيع ذكر أشهر التقويم بنفسه وبذلك يوفر على جيبه المبلغ الذي رأت دار نشــر «هوغارث برس» أنه ملائم كثمــن للكتاب. ولكن ما الــذي يستطيع كاتب السيرة أن يفعله حين يضعه موضوعه في المعضلة التي وضعتنا فيها أورلنــدو الآن؟ الحياة: لقد اتفق جميع من لهم رأي يستحق الأخذ به على أنها الموضوع الوحيد المناسب للروائي أو كاتب السيرة. الحياة: لقد قررت تلك السلطات نفسها أن الحياة لا علاقة لها إطلاقاً بالجلوس بسكــون في كرسي والتأمل. الفكر والحياة متباعدان كما هما قطبا الأرض. وبالتــالي، وبما أن الجلوس في كرسي والتفكير

هــو ما تفعله أورلندو الآن بالضبط، فليــس أمامنا ما نفعله سوى قراءة التقويم، وتــلاوة الصلوات ومســح الأنف وتحريك النــار والنظر من النافذة حتى نملّ. لقد جلست أورلندو بسكون شديد حتى أنك كنت تستطيــع سمــا ع الدبوس وهو يسقــط. ونتمنى لــو أن الدبوس سقط فعلاً! كان ذلك أمراً يمكن أن ندعوه بالحياة من نو ع ما. أو لو أن فراشة رفرفت عبر نافذتهــا واستقرت فوق كرسيها، لأمكن للمرء أن يكتب عــن ذلك. أو لنفترض أنها نهضت وقتلت دبــوراً. كنا سنحمل القلم علــى الفور ونكتب. لأن دماً قد أريق ولــو كان مجرد دم دبور. حيث يوجد الدم توجد الحياة. ولو كان قتل دبور مجرد هباء بالمقارنة مع قتل إنسان، فإنه مع ذلك موضو ع أكثر ملاءمة للروائي أو كاتب السيرة من مجــرد حلم اليقظة هذا، من هــذا التفكير، وهذا الجلوس على الكرسي يومــاً بعد يــوم مع لفافة تبغ وصفحة من الورق وقلــم ودواة. أتمنى لو أن الأشخاصــ موضو ع السيرة، إذ يمكننــا أن نشكو(فقد كاد صبرنا أن ينفــد)، لديهم احترام أكبر لكتّاب سيرهم! وما هو أكثر إزعاجاً من مشاهــدة الكاتب لموضوع سيرته، والذي أنفق عليه الكثير من الوقت والجهــد، ينســلّ من بين أصابعه تمامــاً ويطلق لنفسه العنــان: شاهدوا تنهداتها وشهقاتهــا، احمرار وجنتيها، شحوبها، وعيونها التي تلتمع الآن كالأضــواء، ثم تشحب كنــور الفجر... ما الذي يشعرك بالمهانة أكثر من أن نرى هذا كل هذا العرض الأبكم للعاطفة والإثارة يمرّ أمام أعيننــا حين نعرف أن ما يسببه- الفكــر والمخيلة- لا أهمية لهما على الإطلاق؟

ولكن أورلندو كانت امرأة، وقد برهن اللورد بالمرستون للتو على ذلك. وحين نكتب سيرة امرأة، يمكننا، كما هو متفق عليه، أن نتنازل عن مطلبنــا بوجود الأكشــن (الأفعــال) وأن نستعيضــ عنه بالحب.

الحب، كما قال الشاعر، هو وجود المرأة كله. ولو نظرنا لبرهة إلى أورلندو وهي تكتب على منضدتها، فعلينا أن نقرّ بأنه لم يسبق أن وجدت امرأة أكثر ملاءمة لهذه المهنة. ولا شك أنها لكونها امرأة، وامرأة جميلة، وامرأة في ريعان عمرها، فهي سرعان ما سوف تتخلى عن التظاهر بالكتابة والتأمل وتبدأ على الأقل بالتفكير بحارس الصيد (وطالما أنها تفكر برجل فليس هناك من يعترض على امرأة تفكر). ثم ستكتب له حاشية صغيرة (وطالما أنها تكتب حواشي صغيرة فلن يعترض أحد أيضاً على امرأة تكتب) وتحدد له موعداً عند غسق يوم الأحد وسيأتي غسق يوم الأحد. كما أن حارس الصيد سيصفر تحت النافذة: وهذا كله طبعاً مادة الحياة نفسها والموضوع الوحيد الممكن لفن القصّ. لا شك أن أورلندو قامت بفعل شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ يا للأسى... وألف مرة يا للأسى، إذ أن أورلندو لم تفعل قط. هل نقر إذاً بأن أورلندو كانت واحدة من وحوش الظلم تلك التي لا تُحِب؟ كانت لطيفة مع الكلاب ومخلصة لأصدقائها، وكانت الكرم بعينه لدزينة من الشعراء الجوعى؛ كما كانت تعشق الشعر. أما الحب- كما يعرّفه الروائيون الذكور- والذين يتحدثون على أي حال عنه بثقة كبيرة؟ - الحب لا علاقة له إطلاقاً باللطف أو الإخلاص أو الكرم أو الشعر. ينزلق الحب من تنورة المرأة و... ولكننا نعرف جميعاً ما هو الحب. هل كانت أورلندو تعرفه؟ تجبرنا الحقيقة على أن نقول لا، لم تعرفه. إذا لم يكن موضوع سيرة المرء هو الحب أو القتل، بل مجرد التفكير والخيال، فقد نستنتج أنه/أنها ليس/ليست أفضل من جثة وبالتالي عليك أن تتركها.

المصدر الوحيد الذي ترك لنا الآن هو النظر عبر النافذة. كانت هناك طيور السنونو؛ وكانت هناك الزرازير، وكان هناك بضع حمامات

وطائـر غـداف واحد أو اثنـان، وكلهـا مشغولـة، كل طائر حسب طريقته. يجد أحدها دودة وآخر حلزونة. يرفرف أحدها نحو غصن، ويركض غيره قليلاً على التربـة. ثم يعبر خادم الباحة مرتدياً مئزراً من نسيـج أخضر سميك. ربما هو متورط في مكيدة مع إحدى الخادمات في حجـرة المؤن، ولكن بما أنه لا يوجد دليل مرئي معروض علينا، في الباحـة، فلا نستطيع سـوى أن نأمل في حصول ما هـو أفضل ونترك الأمـر هنا. تمـر غيوم رقيقة أو سميكة، مـع بعض الاضطراب في لون العشـب في الأسفل. تشير الساعة الشمسية إلى الوقت بأسلوبها الملغز المعتـاد. يبدأ ذهن المرء بتقليب سؤال أو اثنين - بتفاهة وعبثية - حول هـذه الحياة نفسهـا. الحياة، إنها تغنّي أو هي تدنـدن الغناء بالأحرى، كإبريق فوق رف مدفأة موقدة. أيتها الحياة، أيتها الحياة، ما أنت؟ نور أم ظلام، المئزر المصنوع من نسيج سميك للخادم الأدنى مرتبة أو ظل طائر زرزور على العشب؟

فلنمضـ في طريقنـا، إذاً، لنستكشف، في هـذا الصباح الصيفي، حين يكون الجميع يتعشقـون زهور الخوخ والنحل. فلنسأل الزرزور ونحن ندندن ونفأفئ (وهو طائر أكثر حباً لمعاشرة الناس من القبّرة) عن رأيـه في حافة صندوق النفايات من حيـث ينقر بين ألياف شعر خادم المطبـخ. ما هـي الحياة؟ هذا مـا نسأله، ونحن نستنـد إلى باب ساحة المزرعـة. الحيـاة، الحياة، الحياة! هذا مـا يصيح به الطائـر، كأنه سمع وعرف بدقة، ما عنيناه بهذه العادة التطفلية المزعجة التي تخصنا حين نطـرح أسئلة في داخـل البيوت وخارجهـا ونتلصص ونقطف زهور الأقحـوان كما هو شـأن الكتّاب حين لا يعرفون مـا الذي سيقولونه تالياً. ثـم يأتون إلى هنا، كما يقول الطائـر، ويسألونني ما هي الحياة؟ الحياة، الحياة، الحياة!

ثم نمشي بتثاقل فوق ممر الأرض البور، نحو الجبين العالي للتل الذي بلون أزرق خمري وأرجواني داكن، ثم نرمي بأنفسنا أرضاً هناك، ونحلم هناك ونرى هناك جندباً وهو عائد إلى بيته في الحفرة حاملاً قشة. وهو يقول (إن كانت مدخرات كهذه يمكن أن تدعى باسم عظيم القداسة والرقة) إنه جهد الحياة، أو هكذا نفسر نحن دندنة بلعومه المختنق بالغبار. وتوافق النملة والنحلات، ولكن لو بقينا فترة طويلة بما يكفي لنسأل فراشات العث حين تأتي في المساء، وهي تتسلل بين أجراس نبات الخلنج الباهتة اللون، فسوف تهمس في آذاننا لغواً بالغ الجنون كما قد يسمعه المرء من أسلاك التلغراف في عاصفة ثلجية: تي هي، هاو هاو. ضحك، ضحك! هكذا تقول فرشات العث.

بعد أن سألنا إذاً الإنسان والطير والحشرات، فالسمك، كما يخبرنا بعض الرجال، الذي عاش في كهوف خضراء، منعزلاً سنوات طويلة قبل أن يسمعهم يتكلمون، لن يقول أبداً، وربما يعرف ما هي الحياة... بعد أن سألهم جميعاً و لم يكتسب المزيد من الحكمة، بل أصبح أكبر سناً وأبرد (ألم نصلي مرة لنلخص في كتاب شيئاً ما شديد القسوة والندرة حتى ليستطيع المرء أن يقسم بأنه معنى الحياة؟) علينا العودة وأن نقول مباشرة للقارئ الذي ينتظر وهو واقف على رؤوس أصابع قدميه ليسمع ما هي الحياة... أنه ويا للأسى، فنحن لا نعرف.

XXX

في هذه اللحظة، ولكن في الوقت الملائم تماماً لإنقاذ الكتاب من الانقراض، دفعت أورلندو بكرسيها بعيداً ومدت ذراعيها وأسقطت قلمها واقتربت من النافذة، وصاحت: "لقد تم!"

كادت تسقط أرضاً من المشهد الرائع الذي شاهدته الآن. كانت هناك الحديقة وبعض الطيور. كان العالم كما هو في المعتاد. ظل العالم كما هو طوال الفترة التي قضتها في الكتابة.

صرخت: "ولو أني متّ، فسيبقى العالم كما هو!"

إلى هذا الحدّ كانت حدة مشاعرها حتى أنها لم تستطع تخيّل أنها عانت من الانجلال، وربما قد أصابها بعض الضعف. ولبرهة، وقفت وهي تنظر إلى المشهد الجميل غير المبالي بعينين محدقتين. وأخيراً، فقد شعرت بالانتعاش بطريقة فريدة. فالمخطوطة التي كانت ترقد فوق قلبها بدأت تتحرك وتدقّ وكأنها شيء حيّ، أما ما كان أغرب من ذلك ويكشف عن التعاطف الرقيق الموجود بينهما، فهو أن أورلندو حين أمالت رأسها، استطاعت أن تفهم ما كانت تقوله. كانت تطلب أن تُقرأ. ولأول مرة في حياتها كان رد فعلها على الطبيعة عنيفاً. كلاب صيد الأيائل وشجيرات الورد كانت كثيرة من حولها. ولكن لا يمكن لأي من كلاب صيد الأيائل وشجيرات الورد أن تقرأ. وكان هذا خطأً مؤسفاً من قبل العناية الإلهية لم يسبق لها أن انتبهت إليه. البشر وحدهم هم الموهوبون بذلك. لقد أصبح البشر ضروريين. قرعت الجرس، وأمرت بإعداد العربة لتأخذها إلى لندن على الفور.

قال باسكت: "هناك وقت كاف لتلحقي بقطار الحادية عشرة وخمس وأربعين دقيقة يا سيدتي". لم تكن أورلندو قد أدركت بعد اختراع المحرك البخاري، ولكن كان انهماكها في معاناة كائن معين كبيراً، لم يكن هذا الكائن هي شخصياً، ولكنه كان يتكل عليها كثيراً، إلى حد أنها حين رأت قطاراً لأول مرة، اتخذت مقعداً في إحدى عرباته، وغطت ركبتيها ببساط دون أن تفكر بذلك "الاختراع

الهائل الذي (كما يقول المؤرخون) كان قد غيّر وجه أوربا تماماً خلال السنوات العشرين الفائتة" (كما قد يحدث بالفعل وعلى نحو أكثر تكراراً من افتراضات المؤرخين). لاحظت فحسب أنه كثير السخام ويجلجل على نحو رهيب، كما كانت النوافذ ملتصقة لا تفتح. ولأنها كانت غارقة في أفكارها، فقد دارت بها عجلات القطار حتى لندن في أقل من ساعة، ووقفت هي على الرصيف لا تعرف أين ستذهب.

كان المنزل القديم في بلاكفرايرز، حيث أمضت أياماً سعيدة كثيرة في القرن الثامن عشر، قد بيع الآن، فذهب جزء منه إلى "جيش الإنقاذ" وجزء إلى مصنع للممطرات. كانت قد اشترت منزلاً آخر في "مايفير"، وهو منزل صحي وملائم ويقع في قلب عالم آخر صرعات الموضة. ولكن هل ستتخلص قصيدتها من رغبتها في مايفير؟ فكرت وهي تتذكر لمعة عيون السيدات النبيلات وتناسق سيقان اللوردات: "يا إلهي، ولكنهم غير معتادين على القراءة هناك." ويا للأسف ألف مرة. ثم كان هناك منزل "الليدي آر..." سيجري النوع نفسه من الحوار دون شك. ربما انتقل النقرس من ساق الجنرال اليسرى إلى اليمنى. ربما مكث "السيد إل." عشرة أيام مع "السيد آر..." بدلاً عن "السيد تي..." ثم سيدخل السيد بوب. أوه، ولكن السيد بوب قد توفي. تساءلت: من هم الظرفاء الآن؟ ولكن ذلك لم يكن سؤالاً يوجهه المرء إلى حمّال، وهكذا شقت طريقها. كانت أذناها الآن مشوشتين لكثرة رنين الأجراس على رؤوس الجياد الكثيرة التي لا تحصى. كانت أساطيل من الصناديق الصغيرة العجيبة على عجلات تصطف على الرصيف. سارت نحو شارع ستراند. هناك كان الضجيج أسوأ. كانت تختلط على نحو لا ينفصم عربات من كل الأحجام تجرها جياد أصيلة وأحصنة عربات النقل، منها ما تحمل راكبة غنية

واحـدة ومنها ما هي مكتظة برجال بشوارب خدية وقبعات حريرية. شاهدت مركبات وعربـات وأوتوبوسات، وهي التي اعتادت عيناها مطـولاً مشاهدة صفحة طويلة من الورق؛ كما انزعجت من مشاهدة شجـارات. أما أذناها المدوزنتان على صوت صرير القلم فقد بدا لهما ضجيج الشارع متنافراً على نحو شنيع. كانت كل بوصة من الرصيف مزدحمـة. كانت صفوف من الناس تشـق طريقها بين أجساد بعضها البعض وحركة السير المترنحة والمتثاقلة برشاقة لا تصدق، وتتدفق دون توقف شرقاً وغرباً. على امتـداد الرصيف وقف رجال وهم يمسكون بسلال عليها دمى ويصيحـون. في الزوايا، جلست نساء قرب سلال فيهـا زهـور ربيعية وهن يصحـن. كان هنـاك صبيـة يتراكضون بين الجياد وهم يحملون أوراقاً مطبوعـة على أجسادهم ويصيحون أيضاً "كارثـة!" "كارثة! في البداية، افترضت أورلندو أن كارثة وطنية قد حلـت؛ ولكنهـا لم تستطع أن تعـرف إن كانت مفرحـة أم مأساوية. نظرت بقلق إلى وجوه الناس، ولكن هذا زاد في تشوشها. هاهو رجل يمـر! غارق في اليأس، وهو يهمهم لنفسه وكأنه يعرف أمراً مؤسفاً إلى حـد كبير. سيدفعه رجـل بدين بوجه يشبه نبـات البهشية، وهو يشق طريقـه وكأن هناك احتفال يشارك فيه العالم كلـه. وبالفعل، وصلت إلى نتيجـة مفادها عدم وجود قافية ولا صواب في ذلك كله. كان كل رجل وكل امرأة منهمك/منهمكـة في شؤونه/شؤونها الخاصة. وأين كانت ستذهب؟

تابعت السير دون تفكـير، فصعدت شارعاً وهبطت آخر، ومرت بواجهـات زجاجية كبيرة مترعة بحقائب اليـد، والمرايا، والروب دو شامـبر والزهور وقصبات صيـد السمك وسلال الغـداء؛ بينما كانت البضاعة من كل لون ونمط، ومن كل ثخانة ورقّة معلقة ومتدلية ومنفوخة

في كل مكان. أحياناً كانت تمر بشوارع من المنازل الفخمة وقد رقّمت برصانـة من اثنـين إلى ثلاثمائـة، وكل واحد منها نسخـة عن الآخر، بعمودين وسـت درجات وزوج من الستائر المسدلـة بأناقة ووجبات غـداء عائلية موضوعة علـى الموائد وببغـاء يتطلع من إحـدى النوافذ وخـادم ذكر في كل منزل، حتى أن ذهنها تشوش من الرتابة والتكرار. ثم وصلت إلى ساحات كبيرة مفتوحة فيها تماثيل سوداء ولامعة ومزرّرة بشـدة لرجال بدينين في المنتصـف، وجياد حربيـة، وأعمدة منتصبة، ونوافير تتساقط منها المياه، وحمائم ترفرف بأجنحتها. وهكذا مشت ومشـت على امتداد الأرصفة بين المنـازل حتى شعرت بجوع شديد؛ وراح شيء يرفرف فوق قلبها يؤنبها لأنها نسيت الموضوع كله. كانت تلك مخطوطتها : "شجرة السنديان".

شعـرت بالإحباط لهـذا الإهمال من قبلهـا. جمدت حيث كانت تقـف. لم تر أي عربة منظورة. كان الشـارع العريض والجميل فارغاً. لم تر سوى جنتلماناً عجوزاً يقترب. كان هناك شيء مألوف على نحو غامض في مشيته. وحين اقترب منها أكثر، أحست أنها كانت قد قابلته في زمـن مـا أو آخر. ولكن أيـن؟ هل يمكن أن يكون هـذا الجنتلمان، الأنيق جـداً والمهيب جداً ، والذي يبدو غنياً جـداً، وهو يحمل عصا في يـده وقد دس في عروة سترتـه وردة، وله وجه زهري اللون وممتلئ وشـارب أبيض ممشط؛ هل يمكن أن يكون هو؟ أجل، وحق الآلهة، إنه هو! صديقها القديم جداً "نِك غرين"!

وقد نظر إليها في الوقت نفسه، وتذكرها وميزها. صاح وهو يرفع قبعته الحرير ثم ينحني ويكاد يجعلها تلمس التراب: "الليدي أورلندو!"

صاحـت هي: "السير نيكولاس!" فقد كانت قـد ميزت بالحدس

من شــيء ما في هيئته أن ذاك الشخص السوقــي البخيل الذي هجاها والكثير من الناس في عصــر الملكة إليزابيث قد نال الآن رتبة "فارس" ودزينة أخرى من المزايا ضمن الصفقة.

وبانحناءة أخرى، أقر بأن استنتاجها صحيح. لقد نال رتبة الفارس وكذلــك درجة الدكتوراه في الآداب وهــو الآن بروفسور. كما كان قــد ألف عشرين كتاباً. لقد كان باختصار أكــثر النقاد نفوذاً في العصر الفيكتوري.

طغت عليهــا نوبة عنيفة من الانفعال وهي تقابل هذا الرجل الذي سبّــب لها قبل سنين عديدة، الكثير مــن الألم. هل يمكن أن يكون هذا هو الشخص المشاغب القلق الــذي كان يحرق سجاداتها ويترك فيها الفجــوات ويشوي الجبن على مدفأتها الإيطالية ويروي قصصاً مرحة عن "مارلو" والبقية، وعن أنهم كانوا يرون الشمس تشرق تسعة ليال مــن كل عشرة منها؟ وقــد كان يرتدي الآن بزة صباحيــة أنيقة رمادية اللــون، وقد شكل وردة قرنفلية اللون في عروتها؛ مع قفازين رماديين مــن الجلد الفاخر يلائمــان البزة. ولكن حتى خــلال تعجبها لما تراه، فقــد انحنى لها انحنــاءة عميقة مرة أخرى وسألهــا إن كانت ستشرفه بتنــاول طعام الغداء معه؟ ربما كانت الانحناءة مبالغاً فيها، ولكن تقليد الأشخاص نبلاء المولد كان يستحق الثناء. تبعته وهي متعجبة إلى مطعم فخــم، فاخر الأثــاث وكله باللون الحمــر، أما أغطيــة الموائد فكانت بيضــاء، أما الأباريق فمــن الفضة؛ وهو أمر ما كان ممكنــاً أن يُرى في الحانات أو المقاهي القديمة بأرضياتها المغطاة بالرمل ومقاعدها الخشب وطاسات شراب البنتش أو الشوكولا الساخنة وصفائح الورق الخشن ومباصقهــا. وضع قفازيه بأناقة على المائــدة إلى القرب منه. كانت ما تزال غير مصدقة إلا بالكاد أنه كان ذاك الشخص نفسه. كانت أظافره

نظيفــة، بينما كان طول الواحد منهــا في الماضي بوصة كاملة. كانت ذقنــه حليقة، بينما كانت لحية ســوداء تغطيها. كما كان يرتدي أزراراً ذهبية لكمّي قميصه، في حــين كان قماش قميصه المهترئ ينغمس في المرق. و لم تقتنع بالفعل أنه الشخص نفسه حتى قام بطلب النبيذ، وقد فعل ذلك بعناية ذكرتها بذوقه في "مالمسي" قبل زمن طويل. قال وهو يطلــق تنهيدة صغيرة، ولكنها كانــت مريحة على نحو كاف: "آه، آه، يــا سيدتي العزيزة، لقد ولّت الأيام العظيمة للأدب. مارلو، شكسبير، بــن جونسون... أولئك كانوا العمالقــة. درايدن، پوپ، أديسون... أولئــك كانوا الأبطال. وقد مات هؤلاء كافة. ومن تركوا لنا؟ تنيسون وبروانينــغ وكارلايــل!... وهنا تلفظ هــذه الكلمات بلهجــة ملؤها الازدراء. قــال وهو يصــب لنفسه كأســاً مــن النبيذ: "الحقيقة هي أن جميع كتابنا الشبان يتعيّشون من باعة الكتب. وهم مستعدون لكتابة أي نفاية تكفي لتسديد فواتير خيّاطيهم." ثم أضاف وهو يتناول شيئاً من المقبلات: "هذا عصر يتميــز بالأعاجيب الثمينة والتجارب الجامحة التي ما كان الإليزابيثيون ليسمحوا بها ولو لبرهة صغيرة."

واستأنف كلامه قائلاً وهو يوافق على طبق السمك بالغراتان الذي عرضه عليــه النادل ليعرف رأيه فيه: "لقد ولّــت الأيام العظيمة. نحن نعيشــ في عصــر الانحطاط. علينــا أن نعتز بالماضــي وأن نجلّ أولئك الكتّــاب ... ما تزال هناك بقية منهم ممــن يتخذون من العهود الماضية مثالاً ويكتبون ... ليس من أجل المال، ولكن من أجل ..." وهنا كادت أورلنــدو تصيح: "الغلورا" وبالفعل كان يمكنها أن تقسم بأنها سمعته قبل ثلاثمائــة سنة وهو يقول هــذه العبارات نفسهــا. كانت الأسماء مختلفــة بالطبع، ولكن الروح هي نفسها. لم يتغير نيك غرين رغم رتبة الفارس التي منحت له. ومع ذلك، حصل تبدل ما. فبينما كان يتحدث

مطولاً عـن أديسون كمثال يحتـذى (خطر لها أنه ذكـر شيشرون في الماضـي في هذا السيـاق) وعن الاستلقاء في السريـر في الصباح (وقد أحست بالفخـر لأنها كانت من يدفع له راتبـاً فصلياً ليتمكن من فعل ذلـك) وعن تقليب أفضل الأعمال لأفضـل المؤلفين على لسانه لساعة من الزمان، على الأقل، قبل البدء بالكتابة، وذلك لتطهير سوقية الوقت الحاضر والحالة المؤسفة للغتنا الأم (لقد عاش فترة طويلة في أمريكا كما كانت تظن) ... وبينمـا كان يتابع الحديث بالأسلوب نفسه الذي تميز بـه غرين قبل ثلاثمائـة سنة، كان لديها الوقت الـكافي لتسأل نفسها، كيف تغير إذاً؟ لقد أصبح ممتلئ الجسم، ولكنه كان رجلاً يناهز السبعين مـن العمر. تبدو عليـه النعمة، فلا شـك أن الأدب كان مهنة ناجحة. ولكن على نحو ما، كانت الحيوية القلقة والمضطربة قد تخلت عنه. لم تعد قصصه، رغم ألمعيتها، حرة ومنسابة. كان يذكر عن حق "صديقي العزيـز پوپ" أو "صديقي اللامع أديسون" باستمرار، ولكن كانت له هيئـة من الوقار تثير الكآبـة، وكان يفضل على ما يبدو أن ينبئها بأفعال وأقوال أقربائها على أن يخبرها، كما اعتاد أن يفعل، بفضائح الشعراء.

شعـرت أورلندو بخيبة الرجاء إلى حد كبـير. كانت قد فكرت في الأدب طـوال هذه السنين (كان عذرها في عزلتها ومقامها وجنسها) علـى أنه شيء جامح مثـل الريح وحار كالنار وسريـع كالبرق؛ كشيء شارد لا يمكن قياس حجمه، كشيء خطير، ولكنه أصبح الآن جنتلماناً عجـوزاً في بزة رمادية يتحـدث عن الدوقات. كان شـدة تحررها من الوهـم قوية إلى حـد أن مشبكاً ما أو زراً ما كان يربط الجزء الأعلى من ثوبهـا قد انكسر، واندفعت "شجرة السنديان" القصيدة، لتحطّ! على المائدة.

قـال السـير نيكولاس وهـو يضـع علـى عينيـه نظارتـه الأنفية

الذهبية: "مخطوطــة! لكم هذا مثير للاهتمام، مثير جداً جداً للاهتمام! اسمحــي لي أن ألقــي نظرة عليها." ومــرة أخرى، بعــد فترة تقارب الثلاثمائــة عام، أخــذ نيكولاس غرين قصيدة أورلنــدو ووضعها بين فناجــين القهــوة وكؤوس الشراب وبــدأ يقرأها. ولكــن حكمه الآن كان مختلفــاً جــداً عما كان عليه آنــذاك. قال إنها ذكّرتــه، وهو يقلب الصفحــات، بقصيدة "كاتــو" لأديسون. ويمكن مضاهاتهــا إيجابياً بقصيدة "فصول" لتومسون. قال إنه ليس فيها أي أثر للروح المعاصرة، وهــو ممتنّ لقوله ذلك. لقد كُتبت مع الأخذ بالحقيقة والطبيعة وجوهر القلب البشري، وهذا أمر نادر بالفعل في هذه الأيام التي تتصف بغرابة الأطوار وانعدام الضمير. يجب نشرها طبعاً وعلى الفور.

في الحقيقــة لم تعــرف أورلندو ما الــذي كان يعنيــه. لقد حملت علــى الدوام مخطوطتهــا معها في صدر ثوبها. أبهجــت الفكرة السير نيكولاس إلى حد كبير.

سألها: "وماذا عن حقوق النشر؟"

طــارت أفكار أورلندو إلى قصر بكينغهــام وبعض ذوي النفوذ من الأشرار القاطنين هناك.

كان الســير نيكولاس في حالة ابتهاج كبير. شرح لها أنه كان يشير إلى حقيقة أن "دار..." (وهنا ذكر داراً شهيرة للنشر) سيسرها أن تنشر لهــا المخطوطة، لو أنه كتب لها رأيــه. وربما يستطيع تدبير حقوق نشر بنسبة عشــرة بالمائة عن جميــع النسخ وحتى ألفــي نسخة. بعد ذلك ستكــون النسبة خمس عشرة بالمائــة. أما فيما يخص النقاد الصحفيين فهــو سيكتب شخصياً إلى "السيد ..."، الــذي كان الأكثر نفوذاً. ثم أن تحيــة ... مثلاً مديح صغير لقصائدهــا يوجه إلى زوجة رئيس تحرير

.... لـن يضرّ أبـداً. سيزور.... وهكذا دواليـك... لم تفهم أورلندو شيئاً من كل هذا الكلام، ومن تجربتها القديمة لم تكن تثق تماماً بطبيعته الطيبـة، ولكن لم يكـن أمامها سوى أن تستسلم أمـام ما كانت أمنيته الواضحـة ورغبته المحمومـة في القصيدة بحد ذاتهـا. وهكذا حوّل السـير نيكولاس الرزمة الصغيرة المبقعة بالدم إلى ربطة نظيفة، وسوّاها وهو يضعها في جيب صدره، حتى لا تكرمش معطفه. ثم افترقا وكل منهما يقدم للآخر الكثير من المديح والمجاملات.

سـارت أورلنـدو علـى امتـداد الشـارع. والآن بعـد أن ذهبت القصيـدة ... وشعرت بوجود فـراغ في عبّها حيث اعتادت حملها، لم يعد أمامها ما تفعله سوى التأمّل بأي شيء تحب: الفرص الاستثنائية التي قـد تصيب قدر الإنسان. هاهـي الآن في شارع سانت جيمس، امـرأة متزوجـة، وخـاتم في يدهـا؛ وحيـث اعتـاد أن يكـون مقهى ذات يـوم هاهي تـرى مطعماً. كانت الساعة حـوالي الثالثة والنصف عصـراً والشمس ساطعة. شاهدت ثلاث حمائـم وكلب صيد هجيناً ومركبتـين من نوع هانسوم وأخرى من نـوع باروش لانداو. ما هي الحيـاة إذاً؟ دبت الفكـرة في رأسها بعنف، دون سبـب مباشر (إلا إذا كان غريـن العجوز هو السبـب نوعاً ما). وربما نفهـم الأمر على أنه ملاحظة نقدية مضادة أو محبذة، والقارئ سيأخذ هذا في الاعتبار فيما يخص علاقتها بزوجها (الذي كان في رأس القرن)، إذ أنها كلما خطر لهـا خاطر، تذهب مباشـرة إلى أقرب مكتب للتلغـراف وترسل برقية إليـه. إليكم إحداها، كما كتبتها: "يـا إلهي يا شل. الحياة الأدب غرين خدوم..." وهنا بدأت تكتب برمـوز شيفرة خاصة اخترعها كلاهما حتى أنه يمكن نقل حالة روحية كاملة ذات تعقيد شديد بكلمة واحدة أو اثنتين دون أن يعـرف موظف التلغراف معناها، وأضافت كلمتي:

"راتيغـان غلومفوبو" اللتين اختصرتا الموضـوع كله بدقة. فلم تكن أحـداث هذا الصباح قد تركـت انطباعاً قوياً لديهـا فحسب، ولكن لا يمكـن أن يكون قد فات على القارئ بـأن أورلندو كانت تتقدم في العمر – وهذا لا يعني بالضرورة أنها كانت تتقدم نحو الأفضل- كما أن "راتيغـان غلومفوبو" وصفتا حالة روحيـة غاية في التعقيد... فلو وضع القارئ كل ذكائه في خدمتنا فقد يكتشف الأمر بنفسه.

لن يكون ممكناً وصول ردّ على برقيتها قبل مرور بعض الساعات. وبالفعـل، كان مرجحـاً، كما فكرت، وهي تنظـر إلى السماء، حيث كانـت الغيـوم العليا تتسابـق مسرعة في مرورها، وجـود عاصفة في "رأس القرن"، لذلـك سيكون زوجها فوق صـاري السفينة، على الأرجح، أو أنه يقصّ سارية ما، أو حتى أنه وحيد في زورق صغير مع بسكويتـة. وهكذا، غادرت مكتب البريـد والتفتت لتمرر الوقت في الـدكان التالي، وهو دكان شائع جداً في أيامنا هذه حتى أنه لا ضرورة لوصفـه؛ ومع ذلك، بدا لعينيها شديد الغرابة. كان دكاناً لبيع الكتب. طوال حياتها كانت أورلندو تعرف المخطوطات. وكانت قد أمسكت بيديهـا الصفحات البنية الخشنة التي كتـب عليها (الشاعر) "سبنسر" بخط يده الصغير العسير على القراءة. كما شاهدت مخطوطة لشكسبير وأخـرى لميلتـون. كان في حوزتها بالفعل عدد كبـير من الـصفحات الربعيـة المطبوعـة quartos وأوراق مخطوطات، غالبـاً ما تحتوي على قصيـدة من نوع "السونيتة" في مديحهـا وأحياناً خصلة شعر. ولكن أدهشتها إلى أقصى حدّ هذه الكتب الصغيرة التي لا حصر لها، اللامعة والمتشابهـة وسريعة الزوال، إذا بـدت مغلفة بالورق المقوى ومطبوعة علـى ورق رقيـق. كانـت أعمال شكسبـير الكاملـة لا تكلف سوى نصف كراون ويمكـن أن توضع في جيبك. ولا يمكن للمرء أن يقرأها

إلا بصعوبة لأن الحروف كانت صغيرة جداً، ولكنها كانت أعجوبة على أي حال. "أعمال"... أعمال كل كاتب عرفته أو سمعت به والكثير من الكتب الأخرى كانت تمتدّ على طول رفوف طويلة. وعلى المناضد والكراسي كان المزيد من "الأعمال" مكوماً أو ملقى. وهناك شاهدتها، وهي تقلب صفحة أو أكثر، فعرفت أنها كانت على الأغلب أعمالاً تدور حول أعمال أخرى للسير نيكولاس وعشرين كتاباً آخر افترضت، لجهلها، حيث أنها كانت مجلدة ومطبوعة، أنها لكتّاب كبار جداً أيضاً. لذلك تقدمت إلى بائع الكتب بطلب مذهل هو أن يرسل إليها كل كتاب هام في الدكان، ثم خرجت.

انعطفت نحو "هايد بارك"، وكانت تعرفه منذ زمن بعيد (تحت تلك الشجرة المصدوعة، كما تذكرت، سقط الدوق هاميلتون، بعد أن اخترق جسده سيف اللورد موهون). وبدأت شفتاها، وهما الملومتان غالباً في هذه المسألة، بتشكيل كلمات برقيتها بصوت يعلو وينخفض دون مغزى. " الحياة الأدب غرين خدوم راتيغان غلومفوبو"؛ لذا فإن عدداً من موظفي المنتزه راحوا ينظرون إليها بريبة، و لم يقروا بصحة عقلها إلا بعد أن شاهدوا عقد اللؤلؤ الذي كانت تضعه من حول جيدها. كانت قد حملت رزمة من الصحف والمجلات النقدية جلبتها من دكان بيع الكتب. وأخيراً، استلقت تحت شجرة مستندة إلى مرفقها، ونشرت هذه الصفحات من حولها وبذلت ما بوسعها لتفهم الفن النبيل للإنشاء النثري كما يمارسه هؤلاء السادة. كانت سرعة التصديق القديمة ما تزال حيّة فيها؛ وحتى الطباعة غير الواضحة لصحيفة أسبوعية كانت لها في نظرها بعض القداسة. وهكذا راحت تقرأ، مستندة إلى مرفقها، مقالة للسير نيكولاس موضوعها الأعمال الكاملة لرجل عرفته ذات مرة، ألا وهو "جون دَن". ولكنها كانت

قـد رمت بنفسها، دون أن تعرف، ليس بعيداً عن "السربنتاين". كان نباح ألف كلـب يدوّي في أذنيها. وكانت عجـلات العربات تندفع دون توقـف ضمن دائرة. راحت أوراق الشجر تتنهد من فوقها. بين الحـين والآخر كانت تنـورة مزركشة وزوج مـن السراويل القرمزية الضيقـة تعـبر العشب على بعد خطـوات منهـا. وفي إحدى المرات حطّت كرة مطاطية ضخمة على الصحيفة. كانت الألوان البنفسجية والبرتقاليـة والحمراء والزرقاء تتسلل عبر الفرجات بين أوراق الشجر وتتـلألأ في الزمردة التي علـى أصبعها. قرأت جملة ثم رفعت نظرها إلى السماء. رفعت نظرها إلى السماء ثم نظرت إلى الصحيفة. الحياة؟ الأدب؟ هـل الواحـد منهما يجب أن يتداخـل في الآخر؟ ولكن كم هـذا صعب إلى حد فظيع؟ لأنه... هاهو زوج من السراويل القرمزية الضيقـة يقـترب... كيـف كان من شـأن أديسـون أن يصف ذلك؟ هاهما زوج من الـكلاب يرقصان على سيقانهما الخلفية. كيف كان مـن شـأن (الكاتب والناقد) "لام" أن يصف ذلـك؟ إن قراءة ما كتبه السـير نيكولاس وأصدقاؤه)كما كانت تفعـل في الفترات الفاصلة بـين تطلعاتها من حولها)، أثـارت فيها ذلك الانطباع على نحو ما- وهنـا نهضت وراحت تتمشى- انطباعـاً جعلها تشعر- وكان ذلك شعـوراً مزعجاً جـداً- بأن على المـرء ألا يقول ما يفكـر فيه إطلاقاً. (وقفـت على ضفاف السربنتاين. كان اللـون برونزياً. كانت زوارق أشبه بالعناكب في نحولها تنزلق من هذه الضفة إلى الأخرى.) كانت تبث شعوراً في المرء بأن عليه دائماً أن يكتب كشخص آخر. (غمرت الدموع عينيها.) فكـرت- وهي تدفع زورقاً دمية بأصبع قدمها- لا أظـن أني أستطيع (وهنـا تهيأت لها مقالة السـير نيكولاس كلها كما تفعـل المقـالات عادة، بعد عشـر دقائق من قراءتها، مـع منظر غرفته ورأسه وقطتـه ومنضدة الكتابة خاصته وذلـك الوقت من النهار) لا

أظن أني أستطيع – هكذا استأنفت التفكير وهي تأخذ في الحسبان المقالة من وجهة النظر هذه– الجلوس في غرفة المكتب في المنزل، فهي أشبه بغرفة استقبال عفنة، طوال النهار، وأن أتحدث إلى الشبان الصغار الوسيمين، وأروي لهم نوادر صغيرة، عليهم ألا يكرروها، حول ما قاله (السياسي) "تاپر" عن "سمايلز". ثم استأنفت التفكير وهي تبكي بمرارة: كلهن مسترجلات، لذلك أكره الدوقات. كما أني لا أحب الكعك المحلي. وعلى الرغم من أني حقود بما فيه الكفاية، إلا أني لان أستطيع قطّ أن أتعلم كيف أكون حقوداً إلى ذلك الحدّ؛ إذاً كيف سأصبح ناقدة وأكتب أفضل نثر إنكليزي في عصري؟ اللعنة على ذلك كله! هكذا صرخت وهي تطلق زورقاً بخارياً صغيراً (دمية) أجرته بنس واحد، بقوة، مما جعلت الزورق المسكين يغرق في الأمواج برونزية اللون.

والآن، الحقيقة هي أنه حين يكون المرء في حالة ذهنية (كما تسميها المربيات)– وما تزال الدموع في عيني أورلندو– يصبح الشيء الذي ينظر المرء إليه، ليس هو نفسه، إنما شيء آخر، أكبر وأهمّ، ولكنه يبقى الشيء نفسه. لو نظر المرء إلى السربنتاين في هذه الحالة الذهنية، ستصبح الأمواج كبيرة شأن أمواج المحيط الأطلسي. الزوارق الدمية لن تتميز عن السفن عابرات المحيط. وهكذا ظنت أورلندو الزورق الدمية سفينة زوجها، أما الموجة التي أثارتها بإصبع قدمها فهي جبل من الماء في "رأس القرن". وبينما راحت تراقب الزورق الدمية وهو يتسلق الموجة الصغيرة، ظنت أنها رأت سفينة بونثروب تتسق صاعدة جبلاً من الزجاج. صعدت السفينة أعلى فأعلى، وهاهي ذروة بيضاء بألف ميتة فيها قد تقوست. وعبر الميتات الألف مضت السفينة واختفت... "لقد غرقت!" هكذا صرخت من

الألم، ثـم إليك، هاهي تبحر مجدداً سالمـة وآمنة بين البطّ على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي.

صرخـت: "النشـوة! النشوة! أيـن مكتب البريد؟ علـيّ أن أرسل برقيـة على الفـور إلى شل لأبلغـه..." ثم كـررت: "زورق دمية على السربنتايـن" و"النشـوة!" بالتنـاوب، فالأفكار كانت قابلـة للتبادل وتعني بالضبط الشيء نفسه. وهكذا هرعت إلى مكتب البريد.

راحت تكرر: "زورق دمية، زورق دمية، زورق دمية"، حيث أنه لا مقالات نِك غرين أو جون دَن ولا بيانات الساعة الثامنة ولا الميثاق ولا المعمـل هو من يفعل ذلك الفعل. إنه شـيء عديم الفائدة ومفاجئ وعنيـف. شـيء يكلف المـرء حياته. أحمـر، أرجـواني، أزرق، طاقة متفجرة، رُشاش، شأن زهور المكحلة الحدقية تلك (كانت تمرّ بحوض من هذه الزهور)؛ متحرر من اللون، اتّكال، تلويث البشرية أو الاهتمام بالبشر؛ شـيء متهور، مضحك، مثل مكحلتي الحدقية، أعني زوجي، بونـثروب ؛ هذا هـو الأمر وما فيـه... زورق دمية علـى السربنتاين، نشوة ... النشوة هـي التي تهمّ. هكذا راحت تتكلم بصوت مرتفع، منتظرة حتى تمر العربات عند "ستانهوب غايت"، فنتيجة لعدم العيش مـع الزوج، إلا حين تكـون الريح هامدة، هي أن يهذر المرء في "بارك لايـن". لا شك أن الأمر كان سيختلف لو أنهـا كانت ستعيش طوال العـام معه كما نصحت بذلك الملكة فيكتوريـا. كان التفكير به يأتيها في ومضـة. وقـد وجدت أنه مـن الضـروري حتماً أن تتحـدث إليه علـى الفور. لم تكن تهتم إطلاقاً بالهراء الـذي سيحصل، أو التشوش الذي سيصيـب الحكاية. كانت مقالة نِك غريـن قد رمتها في أعماق اليأس. أما الزورق الدمية فقد رفعها إلى أعالي السرور. وهكذا راحت تكرر: "النشوة، النشوة" وهي واقفة تنتظر العبور.

ولكن حركة السير كانت مزدحمة في عصر ذلك اليوم الربيعي، وأبقتها واقفة هناك، وهي تكرر التلفظ بكلمة النشوة، النشوة، أو الزورق الدمية على السربنتاين، بينما كانت ثروة وسلطة إنكلترا تجلس، كأنها منحوتة، بالقبعة والعباءة، في عربة تجرها أربعة جياد، أقصد فيكتوريا والعربة من طراز "باروش لانداو". بدا وكأن نهراً ذهبياً جمد وتكتل في كتل ذهبية عبر شارع "بارك لاين". حملت السيدات علباً تحوي بطاقات تعريف بينما راح الرجال يوازنون عصياً مطعمة بالذهب بين ركبهم. وقفت هناك وهي تحدق وتُعْجَب وقد أصيبت بالرعب. لقد أقلقتها فكرة واحدة فقط، فكرة مألوفة لدى كل من شاهد أفيالاً ضخمة أو حيتاناً كبيرة إلى حد لا يصدق؛ ألا وهي كيف تتكاثر هذه الحيوانات الهائلة الحجم التي تكره الضغط والتغيير والنشاط؟ فكرت أورلندو وهي تنظر إلى الوجوه الجليلة الهادئة، التي انقضى زمن تكاثرها. هذه هي الثمرة. هذا هو الختام. ما كانت تراه الآن هو كان انتصار عصر معين. كانوا يجلسون بجلال وروعة. ولكن الآن، أنزل الشرطي ذراعه. سال التيار. تحرك الحشد الهائل من الأشياء الرائعة وتفرق واختفى في بيكاديلّي.

وهكذا عبرت بارك لاين ومضت إلى منزلها في شارع "كورزون ستريت" حيث كانت تستطيع أن تتذكر- حين كانت تهب روائح البيلسان- صوت الكروان وهو يصيح ورجلاً عجوزاً جداً يحمل بندقية.

XXX

كانت تستطيع أن تتذكر، هكذا فكرت وهي تعبر عتبة منزلها، ما قاله اللورد تشسترفيلد، ولكن ذاكرتها خانتها. كانت ردهتها

التـي كان يلفها الكتمان في القـرن الثامن عشر، حيث كانت تستطيع مشاهدة اللورد تشسترفيلد وهو يضع قبعته هنا ومعطفه هناك بأناقة في التصرف، بحد ذاتها مبعث سرور لمن يراقبها؛ هذه الردهة كانت الرزم مبعثرة في أرجائها. فبينما كانت تجلس في هايد بارك كان بائع الكتب قد أوصل طلبيتها وكان المنزل مكتظاً بالرزم – كان بعضها ينزلق الآن عن الـدَّرج- بينمـا الأدب الفيكتـوري كله ملفوف بـورق رمادي اللون ومحزّم بالخيطـان بأناقة. حملت ما استطاعت من هذه الرزم إلى غرفتهـا، وأمرت الخدم بأن يجلبوا لها الرزم الأخرى؛ وراحت تقطع بسرعة الخيطان التي لا حصر لها، وهاهي تحاط بكتب لا عدّ لها خلال وقت قصير جداً.

وبما أنها كانت معتادة على الكتب الأدبية الصغيرة للقرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فقد هالتها عواقب طلبيتها. فقد كان الأدب الفيكتوري، حتى بالنسبة إلى الفيكتوريين أنفسهم لا يعني مجرد أربعـة أسماء عظيمـة مستقلة ومتميزة، بل أربعـة أسماء عظيمة غارقة ومطمـورة في كتلـة كبيرة من أسمـاء كألكسندر سميـث وديكسون وبلاك وميلمان وبَكل وتاين وپاين وتاپر وجيمسون؛ وكلها مسموعة ومدويـة وبارزة وتتطلب من الاهتمام الكثـير شأن أي أديب آخر. إن تبجيل أورلنـدو للكتاب المطبوع قد وضعها أمـام مهمة صعبة عليها إنجازهـا. ولكنها أزاحت كرسيها إلى جـوار النافذة لتستفيد من كمية النـور التي قد تتغلغل بين الأبنية السكنية العالية لحي مايفير، وحاولت أن تصل إلى نتيجة.

والآن يتضـح أن هنـاك وسيلتين فحسب للوصـول إلى نتيجة فيما يخص الأدب الفيكتوري: إحداهما هو مطّـه ليغطي ستين مجلداً من حجـم "أوكتافو"، والأخرى هي تقليصـه إلى ستة أسطر بطول أسطر

هـذا الكتاب. من بـين الوسيلتـين سيقودنا الاقتصاد- بمـا أن الوقت يـكاد ينفد- إلى اختيـار الوسيلة الثانية؛ وهكـذا سنواصل العمل. ثم وصلـت أورلنـدو إلى النتيجـة (وهي تفتح نصف دزينـة من الكتب) أنـه لأمر شديـد الغرابة عـدم وجود ولـو إهداء واحـد إلى رجل من النبـلاء بين هـذه الكتب. وتاليـاً (وهي تقلب صفحـات كومة هائلة من المذكـرات)، أن العديد من هؤلاء الكتّـاب لديهم شجرات نسب عائلـي تصل في ارتفاعها إلى نصـف ارتفاع شجـرة عائلتها. وثالثاً، أنـه سيكـون أمراً خالياً مـن الكياسة إلى أقصى حد، لـف ورقة نقدية مـن فئة العشرة جنيهات من حـول ملقط السكر حين حضرت الآنسة كريستينـا روسيتي لتناول الشاي. وتاليـاً (كان هناك نصف دزينة من الدعـوات إلى وليمة العشاء للاحتفال بمرور قـرن على مناسبة ما)، بما أن الأدب قد التهم جميع ولائم العشاء تلك فلا بدّ أنه قد أصبح مفرط السمنة. وتالياً، (لقد دُعيـت إلى عشرين محاضرة عن "تأثير" هذا على ذاك؛ عـن إحياء الكلاسيكيـة وبقاء الرومانسية حيّـة وعناوين أخرى مـن النوع الجـذاب نفسـه)، أن الأدب بما أنه كان يصغـي إلى جميع هذه المحاضـرات لا بدَ وأنـه أصيب بالجفاف الشديـد. وتالياً (وهنا حضـرت حفل استقبال أقامته إحدى النبيلات) بأن الأدب بما أنه لبس كل هـذه الأوشحة من الفرو فلا بد أنه يصبـح شديد الاحترام. وتالياً (وهنا زارت غرفـة (الأديب) كارلايل العازلـة للصوت في تشلسي) أن العبقريـة كونها في حاجة إلى كل هذه الحمايـة المفرطة لا بد وأنها تصبح شديدة الرقة؛ وهكذا أخـيراً فقد توصلت إلى نتيجتها النهائية، وكانت ذات أهمية قصوى، ولكن علينا أن نحذفها هنا حيث أننا سبق وتجاوزنا حدودنا.

بعد أن وصلت أورلنـدو إلى هذه النتيجة، وقفت تنظر عبر النافذة

إلى الخـارج لفـترة طويلة من الزمـن. لأنه حين يصـل أي شخص إلى استنتاج فهذا أشبه بمن يرمي كرة من فوق الشبكة وعليه انتظار الخصم غـير المرئي ليردهـا إليه. تساءلت: مـا الذي سيُرسل إليهـا من السماء عديمة اللـون فوق تشسترفيلد هاوس؟ وقفت، ويداها مشبكتان وهي تتسـاءل لفـترة طويلة مـن الزمن. وفجـأة تحركت بعنـف... وهنا لا نستطيع سوى أن نتمنى- كما جرى في مناسبة سابقة- أن تندفع آلهة الطهارة وآلهة العفة وآلهة الاحتشام فتفتحن الباب بقوة وأن تزودننا، ولـو بفسحـة تنفس نستطيع خلالها أن نفكـر كيف نلخص ما يجب أن يُروى الآن برقـة، كما يتوجب على كاتب السيرة أن يفعل. ولكن كلا! بعـد أن رمـين بثوبهن الأبيض علـى أورلندو العاريـة وشاهدنه يسقـط فيخطئها بعدة بوصات، كنّ قـد توقفن عن محادثتها منذ سنين عديـدة. وهاهنّ الآن يتصرفن خلاف ذلك. ألـن يحدث أي شيء إذاً في شهـر آذار (مارس) الشاحب هذا ليلطّـف ويستر ويغطي ويخفي ويلفّـع هذا الحدث الذي لا يُنكر مهما يكـن كنهه؟ فبعد تلك الحركة الفجائيـة العنيفة، فإن أورلندو ... ولكـن فلتحمد السماء، ففي هذه اللحظة بالـذات، عُزف أرغن يدوي من ذلك النـوع الرقيق القصبي الفلوتـي المرتج القديم الطـراز والذي ما يزال يستخـدم حتى الآن من قبـل موسيقيي الشارع الايطاليـين في الشوارع الخلفيـة. فلنقبلْ هذا التدخل، على الرغم مـن تواضعه، وكأنه موسيقى الأفلاك السماوية، واسمحـوا له، مع كل شهقاته وأنينه، أن يمـلأ هذه الصفحة بالصوت حتى تأتي اللحظة التي من المستحيل إنكار قدومها؛ والقارئ سيضطر إلى رؤيتهـا أيضاً؛ فأورلندو نفسها غير قادرة وبجلاء على تجاهلها بعد الآن ... دع الأرغـن اليدوي يعزف وينقل لنا بالفكر، وهو لا يتعدى كونه زورقاً صغيراً، حين تعزف الموسيقى، وهو يتقلب على الأمواج. بالفكر الذي هو بين كل النواقل، الأقل براعة والأكثر شذوذاً، عبر قمم

الأسطح والحدائق الخلفية حيث يعلق الغسيل ليجفّ... فما هو ذاك المكان؟ هل تميزون اللون الأخضر وفي الوسط الجزء العلوي المدبب من برج الكنيسة، والبوابات التي ينام أسد على كل جانب منها؟ أوه، أجل، إنها «حدائق كيو» اللندنية! حسناً، «كيو» ملائمة. إذاً نحن في «كيو»، وسوف أريكم اليوم (الثاني من آذار/مارس) تحت شجرة الخوخ، زهور المكحلة والزعفران، وبرعماً أيضاً، على شجرة اللوز. لذا فإن المشي إلى هناك يعني أن تفكر في البصلات المغطاة بالشعر والحمراء، والتي أقحمت في التربة في تشرين الأول (أكتوبر)، والتي تزهر الآن؛ ويعني أن تحلم بأكثر مما يمكن أن يقال على النحو الصحيح، وأن تأخذ من العلبة لفافة تبغ أو سيجار حتى، وأن ترمي بالعباءة تحت سنديانة (حسب ما تتطلبه القافية)، وأن تجلس هناك منتظراً طائر الرفراف الذي يقال إنه شوهد ذات مرة وهو يعبر في المساء من ضفة إلى أخرى.

انتظروا! انتظروا! هاهو الرفراف قادم؛ الرفراف لا يأتي.

انظروا في هذه الأثناء إلى مداخن المصنع، ودخانها. انظروا إلى كتبة المدينة يتحركون بسرعة في زورقهم. انظروا إلى تلك السيدة العجوز وهي تصطحب كلبها في مشوار والخادمة التي ترتدي قبعتها الجديدة للمرة الأولى ولكن ليس بالزاوية الصحيحة. انظروا إليهم جميعاً. على الرغم من أن السماء قد حكمت– بدافع الرأفة– أن تكون جميع أسرار القلب مخفية بحيث يتم إغراؤنا إلى الأبد للشك في شيء لا وجود له على الأرجح؛ ومن خلال دخان لفافتنا، نرى الوميض ونحيّي الإشباع الرائع لرغباتنا الطبيعية في قبعة، في زورق، في جرذ في حفرة؛ كما شاهد أحدهم ذات مرة الحريق– مثل تلك القفزات والوثبات الحمقاء التي يقوم بها الذهن حين ينزلق على هذا

النحو فوق طبق ويعزف الأرغن اليدوي- شاهد وميضاً لحريق في حقل أمام المآذن قرب القسطنطينية.

فلتحيا الرغبة الطبيعية! فلتحيا السعادة! السعادة المقدسة! والمسرات من كل الأصناف، الوردة والخمرة، على الرغم من أن إحداهما تذوي والثانية تصيبك بالنشوة؛ وبطاقات بقيمة نصف كراون إلى خارج لندن في أيام الآحاد، وإنشاد تراتيل عن الموت في معبد معتم، وأي شيء، أي شيء يقاطع ويربك الضرب على الآلات الكاتبة وحفظ الرسائل في أضابير وصنع الحلقات والسلاسل التي تربط أطراف الإمبراطورية بعضها ببعض. فلتحيا حتى الأقواس الحمراء غير المتقنة على شفاه البائعات في الدكاكين (وكأن كيوبيد غمس- على نحو أخرق جداً- أصبعه في الحبر الأحمر وخربش بها دلالة ما وبسرعة). فلتحيا السعادة! الرفراف الذي يندفع سريعاً من ضفة إلى أخرى، وكل إشباع للرغبة الطبيعية، سواء كانت ما يقوله الروائي الذكر، أو هي الصلاة أو الإنكار؛ فلتحيا! بأي شكل أتت به، ولتكن هناك أشكال أكثر وأغرب. فالجدول يتدفق داكناً- ويا ليت كان صادقاً ما توحي به القافية "كأنه حلم"- ولكن مصيرنا المعتاد أكثر مللاً وأسوأ من ذلك. تغرق زرقة جناح الطائر المتلاشي، دون أحلام، ولكن حية، ومزهوة بنفسها، وفصيحة، ومألوفة، تحت الأشجار التي لها ظل أخضر زيتوني اللون، وذلك حين يندفع فجأة من ضفة إلى أخرى.

فلتحيا السعادة إذاً وما بعد السعادة، ولكن ليس تلك الأحلام التي تنفخ الصورة الحادة كما تفعل المرايا المبقّعة بالوجه في بهو نزل ريفي؛ الأحلام التي تفتّت الكلّ وتمزقنا إرباً وتجرحنا وتنصّفنا حين ننام. نوم، نوم عميق جداً حتى لتسحق كل الأشكال متحولة إلى تراب لانهاية لدقة حبيباته؛ ماء من عتمة لا تُكتنه؛ وهناك مطوياً ومكفّناً كما المومياء

أو الفراشة، دعونا نتمدد منبطحين على الرمل في قاع النوم.

ولكــن انتظروا! ولكن انتظروا! لــن نرحل، ليس هذه المرة، لنزور الأرضــ العمياء. أزرق، كعود كبريت يشعــل في كرة العين الداخلية، هاهو يطير، يحترق، يفجر ختم النوم؛ الرفراف؛ إذاً يتدفق الآن عائداً منحســراً مثل المدّ والجــزر، الأحمر، جدول كثيف مــن الحياة مجدداً؛ يزبد، يقطّر، ونحن ننهضــ، وعيوننا (لكم هو السجع سهل هنا فوق النقلــة المربكة مــن الموت إلى الحياة) تسقط علــى (هنا يتوقف الأرغن اليدوي عن العزف فجأة).

قالــت السيــدة بانتينــغ، القابلة، وهــي تضع بين ذراعــي أورلندو بكرهــا الذكر: "إنه صبي جميل جداً يا سيدتــي". أي بعبارة أخرى، أن أورلنــدو أنجبت بسلام ابناً يوم الخميس الواقع في العشرين من آذار (مارس) في الساعة الثالثة صباحاً.

XXX

ومــن جديــد وقفت أورلنــدو عند النافــذة، ولكن لنــدع القارئ يتشجــع؛ لا شيء من هذا النــوع نفسه سيحدث اليوم، وهو ليس هذا اليوم نفسه بأي حال من الأحوال. كلا ... فلو نظرنا عبر النافذة، كما كانــت أورلندو في هذه اللحظــة، فسوف نرى أن "بارك لاين" نفسه قد تغير إلى حد كبير. وبالفعل يمكن للمرء أن يقف هناك لعشر دقائق أو أكثر، كما تفعل أورلندو الآن، دون أن يرى أي عربة من طراز باروش لانــداو. صاحت بعد بضعة أيام حين بدأت عربة قصيرة غريبة الشكل تنزلــق من تلقاء ذاتها دون أيــة جياد: "انظروا إلى تلك!" عربة دون أية جيــاد بالفعل! وقد نؤدي عليها بعــد أن تلفظت بتلك العبارة مباشرة، ولكنهــا عادت مرة أخرى وراحت تتطلع من جديد عبر النافذة. كان

الطقس في هــذه الأيام عجيباً. فحتى السمــاء نفسها قد تغيرت، كما لم تستطــع أن تغالب التفكير في ذلك. لم تعد كثيفة، كثيرة الماء، كثيرة الألــوان الآن، حتــى أن الملك إدوارد- ألا ترونه، إنــه هناك يهبط من عربتــه الأنيقة التي تجرها الجيــاد ليزور سيدة ما في البنــاء المقابل- قد خَلَــف الملكة فيكتوريــا. كانت الغيوم قد تقلصــت متحولة إلى شاش رقيق؛ بدت السماء وكأنها مصنوعة من معدن، وهي في الطقس الحار تتلطخ بالصدأ الأخضر النحاســي أو البرتقالي كما قد يحدث للمعدن في الضبــاب. هــذا التقلصــ كان مقلقاً بعضــ الشيء. بــدا كل شيء وكأنــه قد تقلص. لدى المرور بعربة إلى القــرب من قصر بكينغهام في الليلة الماضية، لم يكــن هناك أي أثر لتلك التركيبة الضخمة التي ظنت سابقــاً أنها ستدوم إلى الأبد؛ القبعات العالية وملابس الأرامل السوداء والأبواق والمناظير الفلكية وأكاليل الزهور؛ كلها اختفت دون أي أثر، ولا حتــى حفرة مليئة بماء المطر على الرصيف. ولكن التغيير كان الآن في المســاء وكان مهماً، وقــد لاحظته بعد أن عــادت الآن إلى موقعها المفضــل عند النافذة. انظروا إلى الأضــواء في المنازل! عند مجرد لمسة، تضــاء غرفة بأكملهــا. كانت مئات الغرف تضــاء؛ وكل واحدة تشبه الأخرى تماماً. كان المرء قادراً على مشاهدة كل شيء في هذه الصناديق الصغــيرة المربعة الشــكل. لم تكن هناك خصوصيــة؛ لم تعد موجودة تلك الظــلال المتوانية والزوايا الغريبة التــي اعتدنا على وجودها؛ ولا واحــدة من تلك النســاء المرتديات للمآزر واللواتــي يحملن مصابيح مترنحة، ويضعنها بحرص على هــذه المنضدة وتلك. بلمسة واحدة، كانــت الغرفة كلها تضاء بقــوة. وكانت السماء مضيئــة طوال الليل: وكانت الأرصفــة مضيئة. كل شيء مضيء. عادت مجدداً في منتصف النهــار. لكم أصبحت النساء نحيلات مؤخراً! يظهرن كعيدان الذرة، مستقيمات الأبدان، لامعات ومتشابهات. كما كانت وجوه الرجال

عارية مثل كف اليـد. كان جفاف الجو يبرز اللون في كل شيء ويبدو وكأنه يقسّي عضلات الوجنتين. لقد أصبح من الأصعب البكاء الآن. كان الماء يسخن خلال ثانيتين، كما مات اللبلاب أو كُشط عن جدران المنـازل. أصبح الخضار أقل خصوبة؛ وأصبحـت الأسر أصغر بكثير. أصبحـت الستائر والأغطية قصـيرة والجدران عاريـة، لذلك علقت صـور باهرة الألـوان لأشياء حقيقيـة كالشوارع والمظـلات والتفاح ضمـن إطـارات، أو كانت تُرسـم بالزيت على الخشـب. كان هناك شـيء محـدد ومتميز يغلف هذا العصـر، يذكرها بالقـرن الثامن عشر، باستثنـاء وجود التهاء ويأس- وبينما كانـت تفكر في هذا، فإن النفق الطويـل إلى حد هائل الذي بـدا أنها كانت تسافر فيه لمئات السنين قد اتسع. لقد انهمر النور. أصبحت أفكارها مشدودة على نحو غامض ومعلقة وكأن مُدوزِن بيانو قد وضع مفتاحه في ظهرها وشدّ أعصابها بقـوة. وفي الوقـت نفسه فإن سمعها أصبح أقـوى؛ فقد كانت قادرة علـى سماع كل همسـة وطقطقة في الغرفة، حتـى أنها كانت تسمع دقـات الساعة التي على رف المائدة وكأنهـا ضربات مطرقة. ولبضع ثـوان أخذ الضوء يصبح أكثر لمعانـاً بالتدريج، وراحت ترى كل شيء على نحـو أشد وضوحاً بينما الساعة تدق بصوت أعلى فأعلى، حتى حدث انفجار في أذنها تماماً. قفزت أورلندو وكأنها تلقت ضربة على الرأس. كانت هناك ضربتـان. في الواقع كانت الساعـة هي العاشرة صباحـاً. وكان اليوم هو الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر). كان العام هو (١٩٢٨). كانت تلك هي اللحظة الحاضرة.

لا عجب أن أورلندو أجفلت، ضغطت بيدها على قلبها، وشحب وجههـا. فما هو الكشف الأكثر بثاً للرعـب في النفس سوى أن هذه هـي اللحظة الحاضرة؟ وأن نبقى على قيد الحياة بعد تلك الصدمة لهو

أمر ممكن فحسب لأن الماضي يحمينا من جانب والمستقبل من الجانب الآخـر. ولكن ليس لدينا الآن أي وقـت للتأملات؛ فقد كان قد سبق لأورلندو وتأخرت إلى حد كبـير. هرعت إلى الطابق السفلي، قفزت إلى سيارتهـا وانطلقـت بها بعد أن ضغطت علـى زر الإقلاع. كانت كتـل زرقاء من الأبنية تبرز في الهـواء أمامها. كانت الطرابيش الحمراء للمداخـن ترى على نحـو غير منتظم عبر السمـاء. التمع الطريق مثل مسامـير ذات رؤوس فضية. هاهـي الباصات تمر بها مسرعة بسائقيها بيض الوجـوه الأشبه بالتماثيل المنحوتة، لاحظـت وجود إسفنجات وأقفاص للطيور وصناديق من القماش الأمريكي الأخضر. ولكنها لم تسمـح لتلك المشاهد بأن تتغلغل في ذهنهـا ولو لجزء من بوصة وهي تعـبر اللوح الضيق للزمن الحاضر، لئلا تسقط في السيل الجارف الذي في الأسفـل. "لم لا تنتبهـين إلى أيـن أنـت ذاهبـة؟ ... أخرجي يدك مـن النافـذة، ألا تستطيعـين؟ ... كان هـذا كل ما قالتـه بحدة وكأن الكلمـات انتزعت منهـا بالقوة. فقد كانت الشـوارع مزدحمة جداً والناس يعبرون دون أن ينتبهوا جيـداً. كان الناس يطنّون ويهمهمون من حـول النوافذ ذات الألواح الزجاجية الكبـيرة وهناك في الداخل كان ممكناً مشاهدة توهج للأحمر واتقاد للأصفر، وكأن هناك نحلاً؛ هكذا فكرت أورلندو... ولكن فكرة كونها من النحل تلاشت بعنف وهاهـي تشاهد، وهي تستعيد المنظور بطرفة عين أنها كانت أجساداً. صرخت بعنف: "لم لا تنتبهين إلى أين أنت ذاهبة؟"

أخـيراً، وعلـى أي حـال، توقفـت عنـد محـلات "مارشـال أند سنلغـروف" ودخلت إلى هنـاك. طغت عليها رائحـة الظل والعطر. سقـط الزمـن الحاضـر منها كنقـاط من ماء مغلـيّ. راح النـور يترنح نحـو الأعلـى والأسفـل كأشيـاء رقيقـة خارجـة من نسيـم صيفي.

أخرجت قائمة من حقيبتها وبدأت تقرأ بصوت غريب جاف أولاً وكأنها كانت تتمسك بالكلمات... حذاء للصبي، أملاح للحمّام، سردين... وذلك تحت صنبور من الماء الملوّن بألوان عديدة. راقبتها تتغير مع سقوط الضوء عليها. أصبح الحمّام والحذاء كليلين وبليدين. أما السردين فسنّ نفسه كالمنشار. وهكذا وقفت في الطابق الأرضي من محلات "السادة مارشال أند سنلغروف". نظرت ذات اليمين وذات الشمال. اشتمت هذه الرائحة وتلك، وهكذا أضاعت بضع ثوان. ثم دخلت المصعد، لسبب معقول لأنها وجدت بابه مفتوحاً. ثم صعد بها هذا بسرعة ونعومة نحو الأعلى. إن نسيج الحياة نفسه الآن، كما فكرت، هو السحر. في القرن الثامن عشر، كنا نعرف ما يتم فعله. ولكن هاأنذا أصعد في الجو. أنا أسمع أصواتاً وهي في أمريكا. أرى رجالاً يطيرون... ولكن كيف يتم فعل ذلك؟ لا أستطيع حتى أن أبدأ بالتساؤل. لذا يعود إليّ إيماني بالسحر. والآن ارتج المصعد قليلاً وهو يتوقف عند الطابق الأول: واعترتها رؤيا من أشياء عديدة لا تحصى وكلها ملونة ترفرف ضمن نسيم كانت تصدر عنه على نحو مميز روائح غريبة. وفي كل مرة كان يتوقف فيها المصعد ويفتح أبوابه، كانت هناك شريحة أخرى من العالم تتكشف لها مع كل الروائح التي لذلك العالم وهي تلتصق به. ذُكّرت بالنهر هناك قرب "واپينغ" في عهد إليزابيث حيث اعتادت سفن الكنوز والسفن التجارية أن ترسو. لكم كانت رائحتها غنية وغريبة! لكم تتذكر جيداً الشعور بالملمس الخشن للياقوت عبر أصابعها حين كانت تعبث بها في كيس مليء بالكنز! ثم كانت تستبقي مع "سَكي" – أو مهما يكن اسمها– ويضيء عليهما مصباح كمبرلاند! كان لآل كمبرلاند منزل في "بورتلاند پليس" الآن وكانت قد تناولت طعام الغداء معهم قبل أيام وجرؤت على أن تحكي لهم نكتة صغيرة عن الرجل العجوز في مأوى الفقراء في طريق

"شين رود". كان الضوء قد أومض. ولكن المصعد لا يرتفع أكثر من هـذا الطابق... عليها أن تخرج منه... والسماء وحدها تعرف في أي "قسم" من الأقسام (كما يسمونها) ستكون. وقفت جامدة لتنظر في قائمـة مشترياتها، ولكنها لم تستطع أن تـرى، كما تقول لها القائمة، أمـلاح الحمـام أو الحذاء للصبي، في أي مكان مـن حولها. وبالفعل، كانـت ستهبط مجـدداً دون أن تشتري شيئاً، ولكنهـا أنقذت من ذلك الجنون بأن تلفظت تلقائياً بصوت مرتفع باسم آخر شيء على قائمتها، وقد صدف أن كان "شراشف لسرير مزدوج".

قالـت لرجل يقف عند نضد الحساب: "شراشف لسرير مزدوج"، وبتدبـير إلهي صدف أن ذلك الرجل عند ذلـك النضد بالذات، كان يبيـع الشراشـف. فـإن غريمسديتشـ، كلا، غريمسديتش قـد ماتت. بارثولوميـو، كلا، بارثولوميـو كانت قـد ماتت أيضاً؛ لويـز إذاً، لقد جاءتهـا لويز مستغيثـة قبل أيام، فقد وجدت ثقبـاً في أسفل الشرشف في السريـر الملكـي. كان الكثير من الملوك والملكات قـد ناموا هناك: إليزابيــث، جيمس، تشارلز، جورج، فيكتوريا، إدوارد. لا عجب أن ذاك الشرشـف كان مثقوباً. ولكن لويز كانت متأكدة من معرفتها بمن تسبب في ذلك. كان زوج الملكة.

قالـت: "Sale Bosch! " (فلقد جرت حـرب جديدة؛ وهذه المرة ضد الألمان).

كررت أورلندو كالحالمة: "شراشف لسرير مزدوج"، لسرير مزدوج ولحـاف فضي في غرفة مؤثثة بذوق كان تظنـه الآن مبتذلاً قليلاً على الأرجـح: كل شيء فضّي. ولكنها كانت قد أثثتها حين أولعت بذلك المعدن. وريثما ذهب الرجل ليجلب شراشف لسرير مزدوج، أخرجت

مـرآة صغيرة وعلبة البـودرة. لم تكن النساء غير مباشـرات بأساليبهن تقريبـاً، كمـا فكـرت- وهـي تستعمل البـودرة دون اكـتراث على الإطلاق- كما كنّ حين تحولت هي إلى امرأة في بداية الأمر واستلقت علـى متن السفينـة "السيدة المعشوقة". أعطت أنفهـا اللون الصحيح عن عمد. لم يسبق لها أن لمست وجنتيها بالمساحيق. وبصدق، وعلى الرغـم من أنها في سن السادسة والثلاثين، فهي لم تكن تبدو أكبر بيوم واحد من ذلـك السنّ. كانت تبدو مبوزة وعبوسـاً وجميلة ومتوردة (كشجـرة ميلاد بمليون شمعة كما سبـق وقالت ساشا) بقدر ما كانت عليه في ذلك اليوم في الجليد، حين تجمد نهر التيمز وذهبا للتزلج...

قـال البائع وهـو ينشر الشراشف فـوق النضد: "أفضـل الشراشف الأيرلنديـة"... وقابلا امـرأة مسنة تلم الحطب. وهنـا وبينما راحت تتلمـس القماش الكتاني بذهن شارد، انفتـح أحد الأبواب المتأرجحة الـذي يفصل بـين الأقسام ودخلت، ربمـا من قسم البضائـع الباهظة الثمـن، نفحة من عطر مشمعة وملونة كأنما من شمعات وردية اللون، والتـوتْ رائحة العطـر كأنما هي قوقعة من حـول جسم ما- هل كان لشـاب أم لفتـاة؟ - كان فتياً ورشيقاً ومغويـاً- كانت تلك فتاة وحق الرب! ملتفة بالفرو واللآلئ وسروال روسي، ولكن خائنة، خائنة!

صرخـت أورلنـدو: " خائنـة!" (كان الرجـل قد رحـل) وبدت المحـلات وكأنهـا تترنـح وتتمايل بمـاء أصفـر ومن البعيـد شاهدت صـواري السفينة الروسية في البحر، ثم وعلـى نحو خارق (ربما فتح الباب مجـدداً)، فإن المحارة التـي صنعتها الرائحـة أصبحت رصيفاً، منصـة، هبطت منها امرأة بدينة، تلبـس الفراء، حافظت على جمالها بأعجوبـة، مغوية، وتلبـس تاجاً؛ إنهـا عشيقة الـدوق الأعظم، هي التي راقبت، بينما كانت تتكـئ على ضفاف نهر الفولغا، وهي تأكل

الشطائر، الرجال وهم يغرقون. هاهي تمشي في المحلات باتجاهها.

صرخت أورلندو: "أوه يا ساشا!" حقاً، كانت مصدومة لوصولها إلى هـذه الحال. لقد أصبحـت شديدة البدانة والكسـل؛ وقد أحنت رأسهـا فوق البياضات الكتانيـة حتى يمر هذا الشبح للمـرأة الرمادية المرتدية للفرو، وفتاة في سروال روسي، مع كل تلك الروائح للشموع والزهور البيضاء والسفن القديمة التي جلبها الشبح معه، يمر من خلفها دون أن يُشاهَد.

قال البائـع بإلحاح: "أي مناديـل أو مناشف أو مـآزر يا سيدتي؟" ولكن الأمـر كله كان يعود إلى قائمة المشتريـات التي عادت أورلندو الآن إلى قراءتهـا، فتمكنت من الإجابة بكل مظهر من مظاهر الهدوء، أنه لا يوجد سوى واحد في هذا العالم ما تزال في حاجة إليه، ألا وهو أملاح الحمّام. كانت هذه تباع في قسم آخر.

ولكنها وهـي تهبط بالمصعد مجدداً– تافه جـداً تكرار أي مشهد، غرقت مجـدداً وعميقـاً تحت اللحظـة الحاضرة. وظنـت حين ارتطم المصنع بالأرض أنها سمعت صوت قدر يتحطم على ضفة نهر. أما ما يخصـ إيجاد القسم الصحيح، مهما يكن، فقد وقفت وهي مستغرقة في الحقائب اليدوية، لا تسمع اقتراحات الموظفين المساعدين المهذبين، المرتديـن للون الأسـود، المسرحة شعورهم والحيويـين، والذين كانوا يهبطون كمـا هو شأنهم بالتسـاوي، والبعض منهـم، ربما، وبالفخر نفسـه، حتى من أعماق الماضـي السحيق كما فعلت هـي، قد اختار أن يسـدل الستـارة الكتيمة للحاضر حتى أنهم بـدوا اليوم كموظفين مساعديـن في محلات مارشال وسنلغـروف فحسب. وقفت أورلندو هناك مترددة. عبر الأبواب الزجاجية الكبيرة استطاعت أن ترى حركة

السير في شارع أوكسفورد. بدا الباص وكأنه يكوّم نفسه فوق باص ومن ثم ينفك عنه بقوة. وهكذا فإن كتل الجليد قد تحركت وتقلبت في ذلك اليوم على نهر التيمز. هناك رجل نبيل عجوز في خفّ من الفرو يجلس فوق أحدها مفرشخاً ساقيه. ثم غاص هناك- كانت قادرة على رؤيته الآن- وهو ينزل اللعنات على المتمردين الأيرلنديين. لقد غرق هناك، حيث تقف سيارتها الآن.

فكرت، وهي تحاول أن تستعيد السيطرة على نفسها: "لقد هجرني الزمن. هذه هي نتيجة منتصف العمر. لكم هذا غريب! لم يعد أي شيء هو نفسه. أحمل حقيبة يدوية فأفكر في امرأة عجوز في قارب خدمة وقد تجمدت في الجليد. يشعل أحدهم شمعة وردية اللون فأرى فتاة في سروال روسي. حين أخرج من بوابة ... كما أفعل الآن"، وهنا داست على رصيف شارع أوكسفورد، "ما الذي أتذوقه؟ أعشاب صغيرة. أسمع رنين أجراس الماعز. تركيا؟ الهند؟ فارس؟" فاضت الدموع من عينيها.

ربما قد يفاجأ القارئ من أن أورلندو قد ابتعدت كثيراً عن اللحظة الحاضرة، والذي يراها الآن تستعد لتدخل إلى سيارتها وعيناها مترعتان بالدموع وبرؤى من جبال فارسية. وبالفعل، لا يمكن إنكار أن أكثر ممتهني فن الحياة نجاحاً، وهم بالمناسبة أشخاص غير مشهورين، ينجحون على نحو ما في أن يزامنوا الأزمنة الستين أو السبعين المختلفة التي تدق في وقت واحد في كل نظام بشري، لذلك حين تدق الساعة الحادية عشرة، فإن كل البقية تدق في توافق، والزمن الحاضر ليس تعطلاً عنيفاً ولا هو منسيّ تماماً في الماضي. يمكننا أن نقول عنهم بحق إنهم يعيشون بالضبط الثماني والستين أو الاثنين والسبعين عاماً المقدرة لهم على شاهدة القبر. أما البقية فنعرف أنهم ميتون رغم أنهم يمشون بيننا.

البعض لم يولدوا بعد على الرغم من أنهم يمارسون أشكال الحياة؛ هناك آخرون بلغت أعمارهم المئات من السنين على الرغم من أنهم يقولون إنهم في السادسة والثلاثين. الطول الحقيقي لحياة الإنسان، مهما قال "قاموس السيرة الوطنية"، هو دائماً محل نزاع. فهي مسألة صعبة... مسألة حساب الزمن. ولا يشوشها شيء كما يفعل الاتصال بأي من الفنون. وربما كان حبها للشعر هو المسؤول عن جعل أورلندو تفقد قائمة مشترياتها وتنطلق نحو البيت دون السردين وأملاح الحمّام والحذاء. والآن، وبينما وقفت ويدها على باب سيارتها، ضربها الزمن الحاضر مجدداً على الرأس. وقد هوجمت إحدى عشرة مرة وبعنف.

صرخت: "اللعنة على كل شيء!"، فقد كان في ذلك صدمة قوية للجهاز العصبي، أي أن تسمع ساعة وهي تدقّ... إلى حد أنه ومنذ بعض الحين ما عاد يمكن أن يقال عنها إلا أنها كانت تعبس قليلاً. تبدل سرعة السيارة على نحو يثير الإعجاب، وتصرخ، كما في السابق: "انظري أين تذهبين!" "ألا تعرفين ما هي الأفكار التي في ذهنك؟" " لم لم تقولي ذلك إذاً؟" بينما راحت السيارة تنطلق مسرعة وتتأرجح وتضغط وتنزلق – فقد كانت سائقة خبيرة – عبر شارع "ريجنت ستريت"، ونزولاً عبر "هايماركت"، وعبر جادة "نورثمبرلاند أفنيو" و"جسر وستمينيستر"، ثم إلى اليسار، ثم باستقامة، ثم إلى اليمين، ثم باستقامة مجدداً...

كان شارع "كنت رود" القديم مزدحماً جداً في يوم الخميس الواقع في ١١ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٢٨. وكان الناس قد فاضوا عن الرصيف إلى الشارع لكثرتهم. كانت هناك نساء يحملن أكياس التبضع. راح الأطفال يتراكضون. كانت هناك تنزيلات في دكاكين المنسوجات. كانت الشوارع تتسع وتضيق.

وكانت الممـرات الطويلة بين الأشجار تتقلص باطراد معاً. هاهي سوق. هاهي جنازة. وهاهو موكب يحمل الناس فيه لافتات كتب عليهـا: "Ra– Un" ولكن ماذا أيضـاً؟ كان اللحم شديد الحمرة، والجزارون يقفون عند البـاب. كادت كعوب أحذية النساء تنسلخ عن مكانها. "نبيذ أَمور"... وكانت هذه اللافتة مرفوعة فوق شرفة. كانت هناك امرأة تتطلع من نافذة غرفة نومها، في حالة تأمل عميق وسكون شديد. "أپلجون وأپلبد لدفن الـ"... لا شيء يمكن أن تراه أو تقـرأه كاملاً من أوله إلى آخره. ما يُرى وقد بدأ– كصديقين بدأا يلتقي الواحد منهما بالآخر عبر الشارع– لم يكن ليُرى وقد انتهى. بعـد عشرين دقيقة كان الجسم والعقـل أشبه بقصاصات من الورق الممـزق التي تسقط من كيـس، وبالفعل فإن عمليـة سياقة السيارة بسرعـة إلى خـارج لندن تشابه إلى حد كبير تقطيـع الذات إلى قطع صغـيرة الذي يسبق فقدان الوعي وربما المـوت نفسه حتى أنه يبقى كسؤال دون جواب عن أي معنى يمكن أن يقال عن وجود أورلندو في اللحظـة الحاضرة. وبالفعـل، كان علينا أن نتخلـى عنها كونها شخصـاً مفككاً تماماً لولا أنـه وجدت هنا، أخـيراً، ستارة خضراء رفعت إلى اليمين، وعبرهـا كانت القطع الصغيرة من الورق تسقط علـى نحو أبطأ؛ ثم رفعت واحدة أخـرى إلى اليسار حتى يستطيع المـرء أن يرى القصاصـات المنفردة الآن وهـي تتقلب لوحدها في الهـواء. ثم راحت ستائر خضراء ترفع باستمرار على الجانبين، حتى أن ذهنهـا استعاد وهـم الإمساك بالأشياء ضمـن النفس وشاهدت هي كوخاً، فناء مزرعة وأربع بقرات وكلها بالضبط بالحجم الحيّ.

حين حدث ذلك، تنهدت أورلندو عميقاً وبراحة، وأشعلت لفافة ثم راحت تنفث دخانها لدقيقة أو اثنتين في صمت. ثم نادت بتردد،

وكأن الشخص الذي نادته قد لا يكون هناك: "أورلندو؟" فلو وجد هناك (في مجازفة) ستة وسبعون زمناً وكلها تقرع في الذهن معاً، فكم شخصاً مختلفاً هناك- فلتكن السماء في عوننا- والكل لديهم سكن في وقت من الأوقات في الروح البشرية؟ البعض يقولون إنهم ألفان واثنان وخمسون. لذلك فالأمر الأكثر اعتياداً في العالم بالنسبة إلى شخص هو أن ينادي، مباشرة حين يكونون وحيدين: "أورلندو!" (إن كان هذا هو اسم الشخص) ويعني بذلك: "تعال، تعال! لقد مللتُ إلى أقصى حد من هذه النفس بالضبط. أريد أخرى. ومن ذلك هذه التبدّلات المدهشة التي نراها تعتري أصدقاءنا. ولكنه ليس عموماً بالأمر السهل أيضاً، فعلى الرغم من أن المرء قد يقول، كما قالت أورلندو (كونها الآن في الريف وفي حاجة إلى نفس أخرى على وجه الافتراض): " أورلندو!" ومع ذلك فإن " أورلندو" التي تريدها قد لا تأتي. هذه النفوس التي نحن مركبون منها، الواحدة منها فوق الأخرى، كما تُكوّم الأطباق فوق يد النادل، لها ارتباطات في مكان آخر، ومشاركات وتراكيب صغيرة وحقوق خاصة بها؛ سمّها ما شئت (وكثير من هذه الأشياء لا اسم لها) لذا لا يأتي أحدها إلاّ إذا كان المطر يهطل، وآخر إلا في غرفة ذات ستارات خضراء، وآخر عندما لا تكون السيدة جونز موجودة، وآخر إن كنت تستطيع أن تعده بكأس من النبيذ... وهكذا دواليك. فكل شخص يستطيع أن يضاعف من تجربته الخاصة الشروط المختلفة التي صنعتها معه نفوسه المختلفة... والبعض منها مضحك جداً بحيث لا يمكن ذكره في كتاب مطبوع على الإطلاق.

وهكذا نادت أورلندو، عند منعطف الحظيرة: " أورلندو؟" بلهجة التساؤل في صوتها وانتظرت. لم تحضر أورلندو.

قالـت أورلنـدو بمـزاج حسـن يمارسـه الناس في مثـل هـذه المناسبات: "حسناً إذاً"، ثم جربت اسماً لنفس أخرى. فقد كان لديها عـدد كبير ومتنوع جداً مـن الأنفس لتناديها، أكـثر بكثير مما أتيحت لنـا الفرصـة لنجد له حيـزاً هنا؛ بما أن السـيرة لا تعتبر كاملـة لو أنها اقتصرت علـى ست أو سبع أنفس فحسب، بينمـا يمكن للشخص أن يكـون له ألف نفـس. فباختيارها تلك الأنفس التـي وجدنا لها حيزاً هنـا، يمكن لأورلندو أن تكون قد نـادت على الصبي الذي قطع رأس الزنجـي؛ الصبي الـذي علّقه مجـدداً؛ الصبي الذي جلـس على التلّ؛ الصبـي الـذي رأى الشاعر؛ الصبـي الذي قدم للملكـة طاساً من ماء الزهـر؛ أو قد تكـون نادت على أحد رجال الحاشيـة الملكية؛ أو على السفـير؛ أو على الجندي؛ أو علـى الرحالة؛ أو ربما رغبت في المرأة أن تأتـي إليهـا؛ الغجرية؛ السيدة المرهفـة؛ أو الراهبـة؛ أو الفتاة العاشقة للحيـاة؛ راعية الآداب؛ المرأة المسماة "مـار" (ويعني ذلك الحمامات الساخنة ومشعـلات الليل) أو شلمرداين (ويعنـي ذلك الزعفران في غابـات الخريف) أو بونثروب (ويعني ذلك الموت الذي نمارسه يومياً) أو الثلاثـة كلها معاً- ممـا يعني أشياء أكثر مما لدينـا الحيز لنكتب عنه- كلها كانت مختلفة وكان يمكنها أن تنادي على أي منها.

ربمـا، ولكن ما بدا أكيـداً (فنحن الآن في إقليـم "ربما" و"على ما يبـدو") أن التي كانت في أمسـ الحاجة إليها كانت بعيدة، فقد كانت - لـو سمعناها وهي تتكلم - تبدل أنفسهـا بسرعة سياقتها للسيارة- وكانت هنـاك نفس جديدة عند كل منعطف؛ كما يحدث، لسبب لا مـبرر له، أن ترغب النفس الواعية، وهـي النفس الأسمى، بألا تكون سوى مجـرد نفس واحدة. وهذا مـا يسميه بعض الأشخاص النفس الحقيقية، وهي، كمـا يقولون، مجموع كل الأنفس التي هي فينا؛ وقد

أصبحت تحت إمرة وسيطرة النفس "القبطان"، النفس "المفتاح" التي تدمج الأنفس كلها وتتحكم بهـا. كانت أورلندو بالتأكيد تنشد هذه النفس، كما يمكن للقارئ أن يحكم من سماعه صدفة لها وهي تتكلم خـلال سياقتها للسيـارة (ولو كان الكلام دون مغـزى وغير مترابط وتافهـاً ومملاً وأحياناً غـير مفهوم، فهذا هو غلط القـارئ لأنه يصغي إلى سيـدة تكلم نفسها. نحن ننسخ كلماتها فحسب وهي تتلفظ بها، ونضيف ضمن أقواس اسم النفس التي تتكلم حسب رأينا، ولكننا قد نكون على خطأ إلى حد كبير).

قالت: "مـاذا إذاً؟ من إذاً؟" ستة وثلاثون عامـاً؛ في سيارة. امرأة. أجـل، ولكـن مليون شيء آخـر أيضاً. متعالية، هل أنـا كذلك؟ رباط الجـورب في البهو؟ الفهود؟ أسـلافي؟ فخورة بهـم؟ أجل! طماعة، مترفـة، شريرة؟ هل أنا كذلـك؟ (هنا دخلت نفس جديـدة). لا أهتم إطلاقـاً لو كنت كذلـك. صادقة؟ أعتقد ذلك. كريمـة؟ ولكن هذا لا يهـمّ (هنا دخلت نفس جديدة). أستلقي في السرير صباحاً أصغي إلى الحَمَـام على شراشف ناعمـة وثمينة؛ أطباق فضيـة؛ نبيذ؛ خادمات؛ خـدم. مدللة؟ ربما. أشياء كثيرة جداً من أجل لا شيء. وبناء عليه كتبي (هنـا ذكرت خمسين عنواناً من المؤلفـات الكلاسيكية الهامة؛ ومنها كما نعتقد الأعمال الرومانسية المبكرة التي مزقتها). سهلة، سطحية، رومانسيـة. ولكن (هنا دخلت نفس جديدة) بطيئـة التعلم، مترددة. لا يمكـن أن أكون أكثر خرقاً مـن ذلك. و... و ...(وهنا ترددت أمام كلمـة ولو اقترحنا "حُـب" فقد نكون على خطـأ، ولكنها وبالتأكيد ضحكـت وتضرجت وجنتاها ثم صرخـت...) ضفدعة من الزمرد! هـاري الأرشدوق! ذبـاب أزرق علـى السقف! (هنـا دخلت نفس جديـدة). ولكـن "نِل"، "كيـت"، "ساشـا"؟ (غرقـت في الكآبة:

شكّلت الدموع نفسها بنفسها فعلاً، وكانت هي قد تخلت عن البكاء منــذ زمن طويل). قالت: أشجار. (هنــا دخلت نفس جديدة). أُحب الأشجار (كانت تمر بأجمة) تنمو هناك منذ ألف عام. والحظائر (مرت بحظيرة متداعية عند حافة الطريق). وكلاب الراعي (هاهو أحدها أتى مهرولاً عبر الطريق. تجنبته بحرص). والليل. ولكن الناس (هنا دخلت نفســ جديدة). الناس؟ (كــررت الكلمة كسـؤال.) لا أعرف. إنهم ثرثارون، حقــودون، وينطقون بالأكاذيب على الــدوام. (هنا التفّت لتدخل شارع "هاي ستريت" في بلدتها الأصلية الذي كان مزدحماً، فقــد كان ذاك اليــوم هو يــوم التسوق، فرأت مزارعــين ورعاة ونساء عجائز ودجاجــات في سلال). أُحــب الفلاحين. أفهــم المحاصيل. ولكــن (وهنا أتت نفس أخرى قافزة من أعلى ذهنها كشعاع قادم من منــارة). الشهرة! (ضحكت). الشهرة! سبــع طبعات. جائزة. صور فوتوغرافيــة في صحف المســاء (هنا كانت تلمّــح إلى قصيدة "شجرة السنديــان" و"جائزة ذا بِردتْ كورتس التذكارية" التي نالتها. وعلينا هنا أن نختطف بعض الحيز لنقول كم كان مقلقاً لكاتبة سيرتها أن هذا الأوج الذي صعد له الكتاب كله، هذه الخاتمة التي انتهى إليها الكتاب، توجب أن يذكر من قبلنا بهذه السرعة وبهذه الضحكة على هذا النحو؛ ولكــن الحقيقة هي أنه حين نكتب عن امــرأة، يكون كل شيء في غير محلّه ... القمم والخــواتم؛ فاللهجة لا تفقد زخمها عندما يكون الأمر متعلقــاً برجل). كــررت: الشهرة! شاعر ... مشعــوذ؛ كلاهما هناك كل صباح بانتظام كما يأتي البريد. تناول العشاء، اللقاء؛ اللقاء، تناول العشــاء؛ الشهرة ... الشهرة! (كان عليها هنــا أن تبطئ السرعة لتمر عــبر زحمة السوق. ولكن لم يلاحظها أحــد. كان من شأن دلفين في دكان سمّــاك أن يجذب اهتمامــاً أكبر بكثير من الاهتمام بسيدة نالــت جائــزة، ويمكنها، لو اختارت ذلك، أن ترتدي ثلاثة تويجات الواحد

فوق الآخر علـى جبينها). راحت تقود ببطء شديد وهي تهمهم الآن مـا قد يكون جزءاً من أغنية قديمة: "بجنيهاتي سأشتري أشجاراً مزهرة وأمشـي بين أشجاري المزهرة وأحكي لأبنائي ما هي الشهرة". هكذا راحت تهمهـم، والآن بدأت جميع كلماتها تتـدلّى هنا وهناك كعقد بربـري من الخـرز الثقيل. " وأمشـي بين أشجـاري المزهرة"، هكذا راحـت تغني وهي تشدد بقـوة على الكلمـات، "وأرى القمر يبزغ ببـطء، والعربـات تمضي..." هنا توقفـت قليلاً، ونظـرت إلى الأمام متمعنة بغطاء محرك السيارة في تأمل عميق.

فكرت: "جلس على مائدة الغسـق مرتدياً طوق رقبة قذراً... هل كان ذلك هو السيد بيكـر العجوز وقد أتى ليقيس ألواح الخشب؟ أو هـل كان "شكـ... ب... ر"؟ (فحين نلفـظ الأسماء نبجلها بحيث لا نلفظهـا كاملة). حدقت لعشر دقائـق أمامها، وتوقفت السيارة عن السير تقريباً.

"مسكونـة بالأشباح!"، هكذا صرخت فجـأة وهو تضغط على دواسـة البنزين. "مسكونة بالأشباح! منذ أن كنت طفلة. هاهو الأوز الـبري يطير. يطير عبر النافذة نحو البحر. قفزت إلى الأعلى (تمسكت بقـوة أكبر بعجلة القيـادة) وانطلقت خلفه. ولكـن الأوز يطير سريعاً جداً. لقد رأيته، هنا... هناك... هناك... إنكلترا، فارس، إيطاليا. هو يطير دائماً بسرعة نحـو البحر ودائماً ما أرمي خلفه كلمات كالشباك (وهنـا أخرجت يدها) التي انكمشت كما أرى الشّباك تنكمش وهي تُسحـب على متن المركب وليس فيها سـوى أعشاب البحر. وأحياناً هناك بوصة من الفضة- سـت كلمات- في قعر الشبكة. ولكن ليس السمكـة الكبيرة التي تعيش في قاع البحـر. وهنا أحنت رأسها وهي تتأمل بعمق.

وقــد حدث في هذه اللحظة، حين توقفت عــن مناداة "أورلندو" وكانــت منغمســة على نحو عميــق في تفكيرهــا بشيء آخــر، أن الـ "أورلنــدو" التي نادت عليها جاءت من تلقــاء نفسها؛ كما ثبت من التغيــير الذي راح يحصل لها الآن (كانت قد مرت عبر بوابات المنزل الريفي وراحت تدخل الحديقة).

لقــد أظلمــت كلها وهــدأت، كمــا يحــدث لرقاقة معدنيــة التي بإضافتها تجعل استدارة وصلابة السطح مضافاً إليها، ويصبح الضحل عميقــاً والقريب بعيداً؛ وكل هذا محتوى بجوانــب بئر. لذا أصبحت الآن مظلمــة، ساكنة، وأصبحت، بإضافة أورلنــدو، ما يسمى - حقاً أو باطلاً - نفساً وحيدة، نفساً حقيقية. وهكذا صمتت. فربما يحدث أن الناس حين يتكلمون بصوت مرتفع فإن النفوس الألف (وربما يزيد عددهــا عن الألفين) واعية بالانفصال، وتحاول التواصل، ولكن حين يحدث التواصل، تصمت.

وببراعــة وسرعة، قادت السيــارة عبر الطريق الملتــوي بين أشجار الــدردار ثم عبر التربة المنهارة للحديقــة التي كان انهيارها لطيفاً جداً، حتــى أنها لو كانت مــاء لانتشرت علــى الشاطئ بتيــار أخضر ناعم. كان مزروعــاً هنا وفي مجموعــات مهيبة أشجار الــدراق والسنديان. كانــت الأيائل تتمشى بينها، أحدهــا كان أبيض كالثلج، وآخر ورأسه ملتفــت جانباً إذ كانت قرونــه قد علقت بشبكة مــن الأسلاك. وكل هذا، الأشجار والأيائل والتربة راحت تلاحظها بأعظم شعور بالرضا وكأن ذهنها أصبح سائلاً يتدفق من حول الأشياء ويحيط بها تماماً. في الدقيقــة التالية كانت تقود في باحة الــدار التي كانت منذ مئات كثيرة مــن السنين تصلها على ظهر جواد لـو في عربة تجرها ستة أحصنة، مع رجال ممتطين للجياد يسبقونها أو يلحقون بها؛ حيث كانت الريشات

تهتـز والمشاعـل تتقد والأشجـار المزهرة التـي كانت تـترك أوراقها تتساقط الآن قد هزت سابقاً براعمها. فتح البواب البوابات الضخمة. قالت: "صباح الخير يا جيمس، هناك بعض الأغراض في السيارة. هل لـك أن تدخلها؟" كانت تلك كلمات خالية من الجمال والاهتمام أو المغزى، وهذا مـا يمكن التسليم به، ولكنها ممتلئـة الآن بالمعنى حتى أنهـا تساقطت كحبات ثمر الجوز الناضجة من شجرة، وبرهنت على أنـه حين تكـون القشرة المتجعدة للشـيء العادي مملـوءة بالمعنى فإنها تُشبـع الحواس على نحو مدهش. وقد كان هذا صحيحاً بالفعل فيما يخص كل حركة وفعـل الآن، رغم أنهما كانـا معتادين. لذلك حين نـرى أورلندو وهي تبدل تنورتها لتلبس بنطـالاً من القماش السميك وسـترة جلديّة، وقد فعلت ذلـك في أقل من ثلاث دقائق، وقد افتتنت من الحركـة كأنما المـدام لوبوكوفا كانـت تستخدم أرقـى فنونها. ثم سـارت نحو غرفة الطعام حيث قام أصدقاؤها القدماء درايدن وپوپ وسويفـت وأديسون بالنظر إليها باحتشام أولاً كمن يقول: ها هي من ربحت الجائزة! ولكن حين فكروا بأن مائتي جنيه هي مقدار الجائزة، فقد أومأوا برؤوسهم علامـة الاستحسان. بدا وكأنهم يقولون: مائتا جنيـه؛ مائتا جنيه مبلغ لا يستهان بـه. قطعت لنفسها شريحة من الخبز ولحم الخنزير المقدد، وبدأت تأكل، وهي تمشي جيئة وذهاباً في الغرفة، وبذلـك تخلت عن عادات رفقتها بثانيـة واحدة، وبدون تفكير. بعد خمـس أو سـت دورات كهذه، ابتلعت كأساً مـن النبيذ الإسباني، ثم مـلأت كأسـاً أخرى حملتها بيدهـا، وسارت بخطـوات واسعة عبر الممر الطويـل وعبر اثني عشر غرفة جلوس وبذلك بدأت بالتجول في الـدارة، برفقة كلاب الأيائل والكلاب السبلينية وكلاب صيد الأيائل التي أحبت أن تلحق بها.

وكان هـذا أيضـاً ضمـن الروتين اليومـي. ما أن تصـل إلى البيت وتـترك جدتهـا دون قبلة حتـى تعود لتغـادر البيت دون زيـارة. لقد تخيلت أن الغرف كانت تسطع وهي تدخلها؛ وكانت تتحرك وتفتح أعينهـا وكأنها كانت نائمـة في غيابها. وكانت تتخيـل أيضاً أنها في رؤيتهـا لها مئات وآلاف المرات، لم يسبـق أن رأتها مرتين على الحال نفسهـا؛ وكأن حياتها الطويلة جداً شأن حياتها، قد خزنت فيها عدداً ضخمـاً من الأمزجـة كانت تتغير مـع الشتاء والصيـف، في الطقس الصاحي والغائـم، وحسب أحداث حياتهـا وتقلباتها، وشخصيات الـزوار. كانـت لطيفة دائماً مـع الغرباء، إنمـا حذرة قليـلاً؛ أما معها هـي (أورلندو) فكانت صريحة ومسترخيـة. و لم لا حقّاً؟ لقد عرفتها تلـك الغـرف وعرفتها هي عن كثـب منذ أربعة قـرون حتى الآن. لم يكـن لدى الطرفين مـا تخفيانه الواحدة عن الأخـرى. كانت تعرف أحزانها وأفراحها. وكانت أورلندو تعرف عمر كل جزء منها وأسراره الصغيرة: درج سرّي، خزانة مخفية، أو عيب ما، ربما، مثل جزء صُنع أو أضيـف لاحقاً. وهي أيضاً كانت تعرفهـا بكل أمزجتها وتبدلاتها. لم تكن أورلندو تخفي عنها شيئاً. لقد عرفتها ودخلتها كصبي وكامرأة، باكية وراقصة، قلقة أو في حالة من المرح. في مقعد هذه النافذة كتبت أول قصائدهـا؛ في ذلـك المعبد الصغير عُقد قرانهـا. وسوف ستُدفن هنا، كما راحت تتأمل، وهي تركع فوق حافة النافذة في البهو الطويل وترشـف نبيذها الإسباني. وعلى الرغم مـن أنها لا تستطيع إلا بالكاد أن تتخيل الأمر ، فإن جسم الفهد الذي يمثل نسب العائلة سيرسم بركاً صفـراء على الأرض في اليوم الـذي سينزلونها فيه لترقد بين أسلافها. هـي التي لم تؤمن بأي خلود، لم تستطع أن تغالب الشعور بأن روحها ستأتـي وتذهب إلى الأبد مع الحُمر على ألـواح الزجاج والخُضر على الأريكـة. فالغرفـة- كانت تدخـل إلى غرفة "السفـير"- كانت أشبه

بصدفـة مكثت علـى قعر البحر لقـرون وقد تغطت بقشـرة وتلونت بمليون لون بواسطـة الماء. كانت باللون الـوردي والأصفر والأخضر والرملـي. كانت هشـة كالصدفة وكثـيرة الألوان وفارغـة مثلها. لن ينـام أي سفير فيهـا بعـد الآن. آه، ولكنها كانت تعـرف أين ما يزال قلـب المنزل ينبض. فتحت برقة باباً ووقفـت على العتبة بحيث (كما تخيلت) لا تراها الغرفة، وراحت تراقب النسيج المخرز باليد للستائر وهو يعلو ويهبط أمـام النسيم الواهي الذي لم يفشل قط في تحريكها. ما يزال القلب ينبض، كما فكرت، ولو بضعف، ولو من بعيد، القلب الهزيل الشجاع للبناء الهائل الحجم.

والآن، وبينما راحت تنادي جنودها من الكلاب، مرت عبر البهو الذي كانـت أرضيته مغطاة بأشجار سنديـان كاملة نشرت بالعرض. كانت صفوف من الكراسي بكل مخملها الذي بهت لونه كانت تقف مرتبة على الجدران وهي تفتح أذرعتها لإليزابيث وجيمس وشكسبير، وربمـا لسيسيل، الذي لم يحضر قط. جعلها المشهد كئيبة. فكت الحبل الـذي كان يحتجزهـا خلفـه. جلست علـى كرسي الملكـة؛ فتحت مخطوطة كانت على منضدة "الليدي بيتي"؛ حركت بأصابعها بتلات الورد القديم. مشطت شعرهـا القصير بفراشي الملك جيمس الفضية؛ تقافـزت فوق سريره (ولكن لن ينام هنـاك أي ملك مرة أخرى، رغم كل شراشف لويز الجديدة) وضغطت بخدها على غطاء السرير الفضي المهـترئ الذي كان يغطي السرير. ولكـن في كل مكان كانت أكياس صغيرة من الخزامى لإبعـاد فراشات العث، كما كانت هناك إنذارات مطبوعـة "الرجاء عـدم اللمس"؛ والتي على الرغم مـن أنها وضعتها هنـاك بيدها، بدت وكأنها تؤنبها. لم يعد المنزل ملكاً لها بكليته، وهنا تنهـدت. لقدْ أصبح ينتمي إلى الزمان الآن؛ إلى التاريخ؛ أصبح خارج

نطـاق اللمس وسيطـرة الأحياء. لن تراق الجعة هنـاك بعد الآن، كما فكـرت (كانت في غرفة النوم التي نام فيها نِك غرين العجوز)؛ ولن تحـدث ثقوب في السجادة من الجمر المتساقطِ من الغلايين. لن يتدافع مائتا خادم وهم يركضون في الممرات حاملين قدور التدفئة والأغصان الكبـيرة للمدافئ الكبيرة. لن تخمّر الجعة ولن تصنع الشموع هنا ولا السروج ولن تصقل الحجارة في الورشات التي خارج المنزل بعد الآن. المطـارق الحديد كما الخشب أضحت صامتة الآن. الكراسي والأسرّة فارغـة. أباريق الذهـب والفضة مقفل عليهـا في صناديق من الزجاج الآن. كانت أجنحة الصمت الضخمة تخفق صعوداً ونزولاً في المنزل الفارغ.

وهكذا جلست عند نهاية البهو المعمّد وكلابها رابضة من حولها، في كرسي الملكة إليزابيث ذي الذراع القاسية. كان البهو يمتد بعيداً إلى نقطـة يسودها الظلام. كان أشبه بنفـق حُفر عميقاً في الماضي. وبينما راحت عيناها تحدقان عبره، استطاعـت أن ترى أشخاصاً يضحكون ويتكلمـون؛ الرجـال العظمـاء الذيـن عرفتهـم؛ درايـدن وسويفت وپوپ؛ ورجال سياسة يتجادلون؛ وعشاقاً يعبثون في مقاعد النوافذ؛ وأشخاصـاً يأكلون ويشربون عند الموائد الطويلة؛ بينما دخان الحطب يلتف من حـول رؤوسهم وبجعلهم يعطسـون ويسعلون. إلى مسافة أبعـد رأت راقصـين رائعـين وقد استعـدوا بتشكيلة مـن أجل رقصة "الكوودريل". بدأت موسيقـى الفلوت الرقيقة إنما الجليلة بالعزف. دوّى صـوت الأرغـن. أحضر تابـوت إلى المعبد الصغـير. خرج منه موكـب عرس. غادر رجال مسلحون يرتـدون الخوذات إلى الحرب. جلبـوا الرايات وهـم عائدون من "فلودن" و"بواتييـه" وثبتوها على الجـدار. كان البهو الطويـل ممتلئاً على هذا النحـو، وراحت أورلندو

تفكـر وهي ما تـزال تحدق، بأنها تستطيع معرفـة النهاية بالضبط، إلى مـا بعـد الإليزابيثيين وآل تيودور؛ شخص ما أكـبر سناً وأبعد وأدكن، شـكل يرتدي قلنسوة، له علاقة بالأديرة، صارم، راهب، مضى ويداه منقبضتان، وهو يحمل بهما كتاباً ويهمهم...

كالرعد، دقت ساعة الإسطبل تعلن الرابعة. لم يسبق لأي زلزال أن دمـر بلدة بأكملها على هذا النحو. تهـاوى البهو المعمد وكل شاغليه متحولـين إلى مسحوق. أضيء وجهها، الذي كان معتماً وكئيباً وهي تحدق، من انفجار كالبارود. وضمن هذا الضوء نفسه، ظهر كل شيء مـن حولها بتميز شديد الوضوح. شاهدت ذبابتين تحومان ولاحظت البريـق الأزرق علـى جسديهمـا. شاهدت عقـدة في الخشب حيث كانت قدمهـا، وكذلك أذن كلبهـا وهي ترتعش. في الوقت نفسه، سمعـت غصناً ينكسر في الحديقة، وخروفاً يسعل في المنتزه، وصراخاً سريعاً عبر النافـذة. ارتعد جسدها ووخزها وكأنها وقفت فجأة وهي عاريـة في جو مـن الصقيع الشديـد. ومع ذلك، فقـد حافظت على هدوئهـا التام، كما لم تفعل حين دقت السـاعـة العاشرة في لندن (فقد شاهـدت الآن سطحـاً أكبر لصدمـة الزمن، سطحاً واحـداً وكبيراً). نهضت، ولكن دون تعجل، ونادت على كلابها، وهبطت بثبات، إنما بحـذر شديد، على الدرج ثم خرجت إلى الحديقة. وهنا كانت ظلال النباتـات متميزة على نحو معجز. لاحظـت حبيبات التراب المنفصلة في أحواضـ الزهور وكأن مجهـراً كان قد ألصق بعينيهـا. رأت تعقيد غصينات كل شجرة. كل ورقة عشب كانت متميزة وكذلك تفاصيل العروق والبتلات. شاهدت "ستبس"، الجنائني، وهو قادم على طول الممر، وكان كل زرّ في طماقه مرئياً لها. شاهدت "بِتي" و"برينس"، حصـاني العربة، ولم تكن قد لاحظت من قبل قط النجمة البيضاء على

جبين "بِتي" والشعـرات الطويلات الثلاث التي تهبط عن بقية شعور ذيل"برينسـس". هنـاك في الأبنية المحيطـة بالباحة شاهـدت الجدران الرماديـة العتيقة للمنزل وهي تبدو كصورة جديدة تعرضت للكشط. سمعت مكبرات الصوت تتكثف على الشرفة بلحن راقص كان الناس يستمعون إليه في دار الأوبرا المخملية في فيينا.

وبما أنها كانت محصورة ومعلقة باللحظة الحاضرة، فقد كانت أيضاً خائفـة، كأنما كلما فغر خليج الزمن فمه فقد يخرج منه خطر مجهول. كان التوتـر أكثر قسوة وصرامة إلى حـد لا يحتمل طويلاً دون مشقة. مشت بسرعة أكثر مما تحبّ، وكأن ساقيها كانتا تتحركان بإرادة ليست لهـا، عبر الحديقة ثم خرجت إلى المنتـزه. وهنا أجبرت نفسها، بجهد كبـير، على التوقف عنـد دكان النجار؛ فوقفت جامـدة وهي تراقب "جو ستبس" وهو يصنع دولاب عربة. كانت تقف وعينها مثبتة على يده حين دقت الساعة معلنة مرور ربع الساعة. اندفعت عبرها كنيزك، حـارة جداً وإلى حـد أنه لا يمكـن للأصابع لمسهـا. شاهدت بحيوية مثـيرة للاشمئزاز أن إبهام اليد اليمنى لجـو كان دون ظفر وكان هناك شـيء مسطح ومستدير بلون وردي في مكان الظفر. كان المنظر منفّراً حتـى أنها شعرت بالدوار لبرهة، ولكـن في عتمة تلك اللحظة، حين رف جفناهـا، فقد تخلصت من ضغط الزمن الحاضر. كان هناك شيء غريب في الظل الذي كان ترميه رفّة عينيها، شيء هو دائماً (كما يمكن لأي شخـص أن يعرفـه بالنظر إلى السماء) غائب عـن الحاضر- ومنه بالتـالي رعبه وصفته غير الاستثنائية- شيء ما يرتعد المرء لو وخزه عبر الجسد باسم ما وسماه جمالاً، فليس له جسد، فهو كظل دون مادة أو نوعية خاصة به، ولكنـه مع ذلك يتحلى بالقدرة على تغيير ما يضيف نفسه إليه مهمـا كان ذلك. وهذا الظل الآن، بينما كانت ترف بعينها

في حالة الضعف التي انتابتها في دكان النجار، انسلت مبتعدة، وبينما راحــت تصل نفسـها بالمشاهد العديـدة التي كانت تراها، جمعتها في شيء محتمل ومفهوم، وهي تتنهد بعمق وبراحة، مع التفافها من دكان النجــار لتتسلق التــل، أستطيع أن أبـدأ بالعيش مرة أخــرى. أنا قرب "السربنتاين"، هكذا فكرت، الزورق الصغير الذي يتسلق عبر القوس الأبيض لألف ميتة. أنا على وشك أن أفهم...

كانت هذه هي كلماتها، التي نطقت بها بشكل واضح، ولكننا لا نستطيــع إخفاء حقيقة أنها كانت الآن شاهدة شديدة اللامبالاة لحقيقة مــا كان أمامها وقد تكون قد أخطــأت الخروف فظنته بقرة، أو رجلاً عجــوزاً اسمه سميث فظنته آخر يدعى "جونز"، و لم يكن له أي صلة بذاك على الإطلاق. فظلّ الضعف الذي رماه الإبهام الخالي من الظفر قد تعمق الآن، عند مؤخر دماغها (الذي هو الجزء الأبعد عن البصر)، متحــولاً إلى بركة حيــث تسكن أشياء في ظلمة عميقــة إلى حدّ أننا لا نعــرف كنههــا إلا بالكاد. راحت تنظر الآن عميقــاً في هذه البركة أو البحــر، التي ينعكس فيها كل شــيء ... وبالفعل يقول البعض إن أكثر عواطفنــا عنفــاً، وكذلك الفن والدين، هــي انعكاسات نراها في هوة الظلام التــي في مؤخر رأسنا حين يكون العــالم المرئي محجوباً بشكل مؤقــت. نظرت إلى هنــاك الآن، طويلاً، بعمق، بتعمــق، وعلى الفور فــإن الطريق السرخسي صعــوداً في التل والذي كانــت تمشي عليه لم يعد ممراً تماماً بل جزئياً هو السربنتاين؛ شجيرات الزعرور البري كانت جزئياً سيدات وسادة يجلسون ومعهم علب بطاقات الزيارة خاصتهم وعصيهم المطلية بالذهــب. كانت الخراف جزئياً منازل عالية في حي مايفير؛ كل شيء كان جزئياً شيئاً آخر، وكأن ذهنها أصبح غابة تتفرع فيها الممــرات هنا وهناك. اقتربــت الأشياء أكــثر وابتعدت، وراحت

تختلط أو تنفصل وتقوم بأغرب التحالفات والمجموعات في مربعات متواصلة من النور والظل. باستثناء ما حدث حين قام "كنوت"، كلب صيد الأيائل بمطاردة أرنب وهكذا ذكّرها بأن الساعة الآن حوالي الرابعة والنصف- كانت بالفعل الخامسة والنصف وسبع دقائق- وأنها نسيت الزمن.

كان الممر السرخسي يؤدي، مع الكثير من الالتفافات والمنعطفات، أعلى فأعلى نحو شجرة السنديان. كانت الشجرة قد كبرت في حجمها وأصبحت أقوى وأكثر عقداً منذ أن عرفتها، حوالي العام (١٥٨٨)، ولكنها كانت ما تزال في ربيع الحياة. كانت الأوراق الصغيرة ذات الحواف الحادة ما تزال ترفرف بكثافة على أغصانها. رمت بنفسها على الأرض، فأحست بعظام الشجرة تمتد كالأضلاع من عمود فقري بهذا الاتجاه وذاك من تحتها. أحبت أن تظن بأنها كانت تمتطي ظهر العالم. كانت تحب أن تربط نفسها إلى شيء قاس. وبينما كانت تستلقي على الأرض، سقط من صدر سترتها الجلدية كتاب صغير مربع الشكل مغلف بقماش أحمر ... كان ذاك هو قصيدتها "شجرة السنديان". فكرت: "كان عليّ أن أحضر مالجاً". كانت التربة ضحلة جداً فوق الجذور حتى بدا أنه أمر غير مؤكد أن تتمكن من القيام بما كانت تنوي فعله، أي دفن الكتاب هنا. عدا عن ذلك، فإن الكلاب ستنبشه. لا يؤاتي الحظ مثل هذه الاحتفالات الرمزية أبداً. ربما من الأفضل عدم القيام بها. كان لديها خطاب صغير على رأس لسانها، كانت تنوي أن تلقيه على الكتاب وهي تدفنه. (كانت تلك نسخة من الطبعة الأولى موقعة من الشاعرة والفنان). كانت ستقول: "أدفن هذا كتقدمة، كعودة إلى الأرض مما أعطتني إياه الأرض"، ولكن يا إلهي! لكم تبدو سخيفة الكلمات ما أن يبدأ المرء

بالتلفظ بها بصوت مرتفع! تذكرت غرين العجوز وهو يصعد إلى المنبر في ذلـك اليوم ويقارنها بميلتون (باستثناء أن هذا كان أعمى) ويسلمها شيـكاً بمائتي جنيه. لقد فكـرت في حينه بشجـرة السنديان هنا على التـل، وما علاقة هذا بذاك؟ هكذا تساءلت. ما علاقة المديح والشهرة بالشعـر؟ ما علاقة سبع طبعات (كان الكتاب قد أعيد طبعه حتى الآن مـا لا يقل عن سبع مـرات) بقيمتـه؟ أليس نظم الشعـر صفقة سرية، صوتاً يجيـب على صوت؟ لذلك، فإن كل هذا الهذر والمديح واللوم والالتقاء بالأشخاص المعجبين بهذا والأشخاص غير المعجبين به مجرد أمـر لا يلائم شأنه شأن الشيء نفسـه ... صوت يجيب على صوت. مـا الذي كان يمكنه أن يكون أكثر سرية، كما فكرت، أكثر بطأ، ومثل التواصـل بـين العشاق، من الجـواب المتلعثم الـذي قدمته طوال هذه السنين إلى أغنية الغابات القديمة المدندنة، والمزارع والجياد البنية اللون الواقفة عند البوابة، جنباً إلى جنب، وورشة الحدادة والمطبخ والحقول التـي تنبت القمح واللفت والعشب بجهـد كبير، والحديقة التي تزهر بالسوسن وحشيشة الحجل؟

وهكذا تركت كتابها دون دفـن أو ترتيب على الأرض، وراحت تراقب المنظر الفسيح، المتنوع كأرض المحيط، هذا المساء بينما الشمس تنيره والظلال تعتمـه. كانت هناك قرية بكنيسة ذات برج بين أشجار الـدردار؛ وقصر ريفي بقبة رمادية في منتزه؛ وكانت هناك شرارة ضوء متوقـدة على زجاج منزل من المنازل؛ وفنـاء مزرعة بأكوام من القمح الأصفـر. كانت الحقـول متميزة بمجموعات من الأشجـار السوداء، ومـا وراء الحقول كانت تمتـد الغابات، وكانت هنـاك التماعة النهر، ثم تلال أخرى. في البعيـد كانت صخور "سنودون" تبدو بيضاء بين الغيوم؛ شاهدت الجبال السكوتلاندية البعيدة والتيارات المجنونة التي

تـدوّم من حول جزر الهبريديز. سمعـت دوي مدفع هناك في البحر. كلا، إنـه صوت الريح وهي تهبّ لا غير. لم تكن هناك حروب اليوم. كان "دريك" قد مات وكذلك "نلسون". فكرت وهي تترك عينيها، اللتين كانتا تنظران إلى تلك المسافات البعيدة، تعودان مرة أخرى لتنظر إلى الأرض تحتها: "وهناك، كانـت أرضي ذات مرة: تلك القلعة بين الوهاد كانت لي". وهنا هزّ المنظر الطبيعي نفسه (ربما كانت تلك حيلة من حيل النور المتلاشي)، وكوّم نفسه وترك كل هذا العائق من المنازل والقـلاع والغابات ينزلـق عن جوانبـه الأشبه بشـكل خيمة. كانت جبال تركيا الجرداء أمامها. كان الوقت هو الظهيرة المتوهجة. راحت العنزات تقضم العناقيد الرملية عند قدميها. حلّق نسر من فوقها. نعب الصـوت الأجش لرستـم العجوز في أذنيها. "ما هـو تاريخك القديم وعِرقـك، وأملاكك بالمقارنة مع هـذا؟ ما الذي تحتاجينه من أربعمائة غرفـة نـوم والأغطية الفضية علـى كل أطباقك، والخادمـات اللواتي ينفضن الغبار؟"

في هـذه اللحظة دقت ساعـة إحدى الكنائس في الـوادي. انهار المنظر الطبيعي الأشبه بالخيمة وسقط. انهمر الزمن الحاضر فوق رأسها مرة أخرى، ولكـن الآن وبينما كان النور يخبو، على نحو ألطف من السابـق، ولا يترك أي شـيء يبدو واضح التفاصيـل، لا شيء صغيراً، ولكن مجـرد حقول سديمية، وأكـواخ بمصابيح فيهـا، الكتلة الهاجعة للغابـة، ونور أشبه بمروحـة يدفع الظلمة أمامه علـى امتداد طريق ما. وسـواء دقـت الساعة التاسعـة أم العاشرة أم الحادية عشـرة، هذا ما لم تستطع معرفته. كان الليل قد حلّ... وهي تحب الليل أكثر من أي وقت آخـر، الليل الذي تلمع فيه الانعكاسات في البُركة المظلمة للذهن على نحو أوضح مما يحدث في النهار. لم يكن ضرورياً أن تصاب بالإغماء الآن لتنظـر عميقاً في العتمـة حيث تشكل الأشيـاء نفسها ولترى في

بُركـة الذهـن الآن شكسبير، وأحياناً فتاة في سـروال روسيّ، وأحياناً أخرى دميـة على شكل زورق على السربنتايـن، ثم المحيط الأطلسي نفسـه، حيث تهب عواصفـه بأمواج هائلة عبر رأس القرن. نظرت إلى العتمـة. هاهـي سفينة زوجها تعلو إلى قمـة الموجة! صعدت عالياً ثـم أعلى فأعلى. برز أمامها القوس الأبيض لألف ميتة. أيها المتهور، أيها الرجل المضحك، دوماً تبحر عبثاً من حول رأس القرن بين أنياب العاصفة! ولكـن السفينة خرجت من القوس وأصبحت على الجهة الأخرى، إنها بأمان أخيراً!

صرخت: النشوة! النشوة!" ثم توقفت الريح عن الهبوب، وهدأت حركة الماء. وشاهدت الأمواج تترقرق بسلام تحت ضوء القمر.

صرخت وهي واقفة عند شجـرة السنديان: "مارمديوك بونثروب شلمردايـن!"

سقط الاسم الجميل المومض من السماء كريشة زرقاء بلون الفولاذ. راقبتهـا وهي تسقـط، تتقلب وتتلـوى كسهم يسقط ببـطء ويلتصق بالهـواء العميق على نحو جميـل. كان قادماً، كمـا كان يأتي دائماً، في لحظات الهدوء التام؛ حـين كانت الموجة تترقرق والأوراق المبقعة تسقـط ببطء فوق قدمها في غابات الخريـف. حين كان الفهد ساكناً؛ والقمر على المياه، ولا شيء يتحرك بين السماء والبحر. ثم أتى.

كل شـيء كان ساكنـاً الآن. كاد الليل أن ينتصف. بزغ القمر ببطء فـوق الغابة. رفع نوره قلعة شبحية فوق الأرض. هناك كانت تنتصب الدارة العظيمـة بكل نوافذها وقد تسربلـت بالفضة. لم يكن هناك لا جـدار ولا مادة. كل شـيء كان شبحياً. كل شـيء ساكن. وكل شيء كان منـاراً كأنما من أجل قدوم ملكة ميتة. حدقت إلى ما تحتها، فرأت

أورلندو ريشات داكنة تتقلب في الباحة، كما شاهدت مشاعل تخفق وظلالاً تركع. هاهي ملكة تهبط مرة أخرى من عربتها.

صرخت وهي تنحني بعمق: "الدارة تحت أمرك يا سيدتي. لم يتغير أي شيء. اللورد المتوفي، أبي، سيرافقك إلى الداخل."

وبينما كانت تتكلم، دقت الساعة أول دقات منتصف الليل. راح النسيم البارد للوقت الحاضر يهب على وجهها بأنفاس الخوف. نظرت بقلق إلى السماء. كانت مظلمة مع غيوم الآن. هدرت الريح في أذنيها. ولكن في هذا الهدير للريح سمعت هدير طائرة تقترب أكثر فأكثر.

صرخت: "هنا يا شِل، هنا!" وهي تعرّي صدرها للقمر (الذي أضاء الآن) حتى تتوهج لآلئها كبَيْض عنكبوت قمري هائل. اندفعت الطائرة خارجة من الغيم ووقفت فوق رأسها. حومت من فوقها. راحت لآلئها تتوهج كإشارة فوسفورية في العتمة.

وحين قفز شلمرداين، بعد أن أصبح الآن قبطاناً بحرياً بارعاً، معافى، ونضر اللون وحيوياً، إلى الأرض، قفز من فوق رأسه طائر بري وحيد.

صرخت أورلندو: "إنها الأوزة!... الأوزة البرية..."

ودقت الساعة للمرة الثانية عشرة؛ الدقة الثانية عشرة لمنتصف الليل، الخميس الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) من عام ألف وتسعمائة وثمانية وعشرون.

(النهاية)

كان آباء أورلندو قد امتطوا الجياد عبر حقول من النرجس البري وحقول حجرية وحقول تسقيها أنهر غريبة، كما أنهم ضربوا رؤوساً كثيرة ذات ألوان عديدة من فوق أكتاف عديدة، وعادوا بها ليعلقوها من عوارض السقف:؛ وسيفعل أورلندو ذلك أيضاً كما عاهد نفسه. ولكن بما أنه كان في السادسة عشرة من عمره فحسب، وأصغر سناً من أن يرافقهم على ظهر جواد عبر أفريقيا أو فرنسا، فسوف يتسلل مبتعداً عن أمه والطواويس التي في الحديقة ويذهب إلى حجرته في السقيفة، وهناك سوف يطعن ويقتحم ويضرب الهواء بسيفه. أحياناً كان يقطع الحبل فتسقط الجمجمة على الأرض، وكان عليه أن يربطها مجدداً، فيثبتها بشهامة بعيداً عن المتناول تقريباً، حتى أن عدوه كان يبتسم له عبر الشفتين المسودتين والمتقلصتين بانتصار.


ISBN 978-2843090172